صور من شمالي جزيرة العرب

في منتصف القرن التاسع عشر

بقلم المستشرق الرحالة الفنلندي

جورج أوغست فالين

«عبد الولي»

ترجمة

سمير سليم شلبي

راجعه

يوسف ابراهيم يزبك

«لم ارَ في العالم كله اولاداً اكثر تعقلاً واحسن خلقاً واكثر طاعة لابيهم من ابناء البدوي».

ڤالين (ص١٠٧)

* * *

«لهذا احسب نجداً ، وبلادالجبلين خاصة ، عظيمة الأهمية في تاريخ هذه الرقعة من العالم»

ڤالين(ص١٢١)

* * *

«وليس لدي أيّ شك بأن هذه المنطقة افضل مقام لرئيس الحكومة لو أن بدو نجد والصحارى السورية وسكان البلدان والقرى القليلة المنتشرة في هذه الأرض توحّدوا في ظل حكومة واحدة»

ڤالين(ص١٢٣)

صور من شمالي جزيرة العرب

في منتصف القرن التاسع عشر

بقلم المستشرق الرحالة الفنلندي

جورج أوغست ڤالين

"عبد الولي"

ترجمه

سمير سليم شبلي

راجعه

يوسف ابرهيم يزبك

«صور من جزيرة العرب»
للمستعرب المستشرق جورج أوغيست ڤالّين

مقدّمة الطبعة الثانية

تعود العلاقات بين العرب وشعوب دول الاسكندناف، الى حوالي القرن الثامن للميلاد. يؤكّد ذلك أحمد ابن فضلان الرحّالة العربيّ المعروف، في رسالته الشهيرة سنة ٣٠٩ هـ. ٩٢٢ م. (حقّقها د. سامي الدهان دمشق ١٩٥٩). وتعتبر هذه الرسالة، بنظر المؤسّسات العلمية والمختصّين، من أهمّ مراجع تاريخ «الفايكنغ»، سكّان البلدان الاسكندنافية. كما تقدّم المتاحف الفنلنديّة صورة معيّنة، عن هذه العلاقات، إذ تضمّ بعض الآثار، خاصّة، القطع النقديّة التي تعود الى العهد العبّاسي. وقد جمعت هذه النقود، عن طريق تنقّل «الفايكنغ» عبر الأمبراطورية العربية ـ الاسلامية وتجارتهم مع سكّانها، في القرن الثامن للميلاد.

الاستشراق في فنلندا عريق، تعود جذوره، لعام ١٦٤٠، عند تأسيس أوّل جامعة في «توركو»، عاصمة فنلندا، حين كانت فنلندا جزءاً من المملكة السويدية. وقد برز عبر التاريخ، العديد من العلماء في أبحاثهم ودراساتهم القيّمة، في مجالات عديدة، وفي فترات مختلفة. وما تزال الدراسات العربيّة والاسلامية، الى أيّامنا هذه، تشكّل نواة قسم الدراسات الآسيويّة ـ الافريقية، في جامعة هلسنكي.

لقد جذبت المنطقة العربية، بعض المستشرقين «الاسكندناف»، الذين كتبوا عن الشرق العربي، مسجّلين وصفهم وانطباعاتهم عنه، كما أسهمت أبحاثهم وأعمالهم، إسهامًا فعّالاً، في نقل صورة عن المنطقة العربيـة، الى فنلندا، نقلاً منصفاً، من خلال التحقيقات، وعن طريق مشاهدة الأماكن، التي قاموا بزيارتها، ومن خلال أعمالهم في دراسة اللّغة العربيّة وآدابها والاسلام. كما قاموا بتدريس ما حملوه، الى أجيال جديدة من المستشرقين، الذين حملوا الراية من بعدهم، عبر القرون.

إنّ الدافع العلمي للمستشرقين الفنلنديين هو الدافع الرئيسي في

أسفارهم، وأبحاثهم، في التراث العربي والاسلامي. وهذا الدافع هو خال من التعصّب والتحامل وغير مرتبط بأهداف توسّعيّة أو استعماريّة. لذا، تخلو المتاحف الفنلندية والاسكندنافية، من تحف وآثار مسلوبة، من المنطقة العربية. ويمكننا القول، أنّ الغبن والتقصير قد لحقا بالمستشرقين الفنلنديين، نتيجة عدم تناول وعناية الباحثين لهم بالدرس أو التمحيص لأعمالهم. ولهذا، يستحقّ الشكر والتقدير كلّ من ساهم في نشر كتاب أوغست ڤلين **«صور من شمالي جزيرة العرب»**، في اللّغة العربيّة.

وقد كان للمؤرخ الراحل يوسف ابرهيم يزبك الفضل الاول في كشف شخصية ڤلين للعالم العربي اذ قدّم وحقّق كتابه الذي ترجمه بكل جدارة وأمانة الاستاذ سمير شبلي. وقد روى الاستاذ يزبك في مقدمة الطبعة الاولى قصته مع هذا الفنلندي الذي احب العرب وأنصفهم.

إنّ المستعرب «جورج أوغست ڤلين»، الملقّب بـ«عبد الولي» هو أكثر المستشرقين الاسكندينياف شهرة. وهو قد ولد عام ١٨١١، في إحدى جزر أرخبيل «أولاند»، الواقعة بين فنلندا والسويد.

انتقل «ڤلين» مع عائلته الى مدينة «توركو»، في جنوبيّ ـ غربيّ فنلندا، لـمّا كان في السادسة من عمره، حيث درس في مدارسها، وفي عام ١٨٢٩ انتقل الى العاصمة الجديدة، هلسنكي، وشرع في دراسة اللغات الشرقيّة، مركّزاً على اللّغة العربيّة وحضارتها، فكانت أطروحته الأولى: **«مقارنات في العربية بين الفصحى والعاميّة»** التي نوقشت عام ١٨٣٩. ومن بعدها، انتقل ڤلين الى جامعة «بطرسبورغ» (حالياً لينغراد) في روسيا، حين كانت فنلندا دوقيّة روسيّة أثر هزيمة السويد أمام الأمبراطورية الروسيّة، عام ١٨٠٩. أقام «ڤلين» هناك، حوالي السنتين، ليتعمّق في دراسة اللّغة العربيّة، في جامعة «بطرسبورغ». وبعد عودة ڤلين الى هلسنكي، تناول في دراساته وأبحاثه الشعر العربيّ، **ومقامات الحريريّ، وألف ليلة وليلة.**

لعلّ حبّ الاستطلاع ومعرفة المزيد عن نمط الحياة في الجزيرة العربية والاسلام، كانت من بين الأسباب المشجّعة على إصرار «ڤلين»، على ترك بلاده فنلندا، رغم مخاطر الأسفار آنذاك، وخاصة في الصحراء، ودون توفّر أيّ من أسباب الراحة، وتحت وطأة الشمس الحارقة، ولدغ الحشرات، حين

كانت وسيلة التنقّل الوحيدة، مقتصرة على الجمل أو الحمار، وإلاّ فالسير على الأقدام.

بعد أن حصل «ڤلين» على منحة، من جامعة هلسنكي، غادرها في تموز «يوليو»، عام ١٨٤٣، عبر باريس، فأقام هناك بعض الوقت، ثم تابع طريقه الى القاهرة، فوصلها في كانون الثاني «يناير» من العام ١٨٤٤. أقام فيها، حوالي السنة، وفي نيسان «ابريل» سنة ١٨٤٥، غادر القاهرة عبر شبه جزيرة سيناء، ماراً في صحراء الجوف. وبعد أربعة أشهر، تابع طريقه، الى مكّة المكرّمة وأدّى فيها مراسم الحج، كما طاف مع الحجّاج وأقام الصلاة، ولقّب نفسه، «بالحاج عبد الولي»، وفي آذار «مارس» عام ١٨٤٦، عاد الى القاهرة، فلم تطل إقامته فيها، حتّى شرع برحلته الثانية، الى فلسطين، خلال كانون الأول «دسمبر» ١٨٤٦، ثم عاد ثانية الى القاهرة، في حزيران «يونيو» عام ١٨٤٧، وفي كانون الأول «دسمبر» عام ١٨٤٧، شرع عبد الولي بثالث وأطول رحلاته من مصر، فالبحر الأحمر، ومرفأ المويلح، على الشاطىء الغربي للجزيرة العربية، ومنها الى دمشق فبيروت، ومنها عبر البحر الى الاسكندرية فالقاهرة التي وصلها في حزيران «يونيو» عام ١٨٤٩، ومنها عاد الى الاسكندرية فهلسنكي ماراً بلندن، ليحصل على جائزة «الجمعية الملكية الجغرافية» عام ١٨٥٠، كأحد أوائل الأوروبيّين الذين اجتازوا شمالي الجزيرة العربية.

لدى عودته الى هلسنكي عام ١٨٥٠، قدّم «ڤلين» وناقش أطروحته الثانية عن «ابن الفارض».

في أوّل كانون الثاني «يناير» عام ١٨٥١، نصّب عبد الولي، أستاذاً لكرسي الدراسات الشرقية، في جامعة هلسنكي، لكنّه لم يعمّر طويلاً، إذ توفي في ٢٣ تشرين الأول «اكتوبر» عام ١٨٥٢، قبل يوم واحد من إتمامه الـ ٤١ عاماً من العمر.

كان «عبد الولي» قد حمل معه بعض المخطوطات العربية، إضافة الى يوميّاته المتعدّدة، التي كتبها خلال رحلته، وهي ما تزال محفوظة في مكتبة جامعة هلسنكي، وقد حالت المنيّة دون أن يحقّق «ڤلين» أمله في ما جمّعه من موادّ علميّة، تعتبر كنزاً ثقافياً وحضارياً. وقد قام بوضع ونشر فهرس بها

الأستاذ الراحل «يوسّي أرو» الذي ساهم أيضاً مع المؤرخ يزبك والمترجم شبلي في تحقيق هذا الكتاب.

أمّا قبر «ڤلين» فهو لا يزال قائماً في هلسنكي الى اليوم، وقد نقش على شاهده، اسمه العربيّ «عبد الولي» وبالعربيّة.

والجدير بالذكر أنّ في الصفحة الأولى من هذا الكتاب صورة للوحة زيتيّة تصوّره بلباسه العربيّ، رسمت له بعد وفاته، تتصدّر أفخم قاعة من قاعات جامعة هلسنكي.

إنّ «كتاب صور من الجزيرة العربية»، يعالج موضوعاً هامّاً بالنسبة للمنطقة العربيّة عامّة، والجزيرة العربيّة خاصّة، حيث تناول طبيعة المنطقة، وسكّانها، ولغتها، وحضارتها، وطقوس الدين فيها، مبرزاً أهمّ ما قدّمته المنطقة الى العالم من حضارة وتراث.

على أثر نفاذ الطبعة الأولى لهذا الكتاب، من جرّاء الاقبال عليها، ونظراً لأهميّته وندرة موضوعه، مما استدعى الاهتمام بطبعة ثانية.

فكان دور السيد توفيق نجيب فاضل، القنصل الفخري لفنلندا في لبنان، دوراً ريادياً في أخذ مبادرة نشر وتوزيع هذا الكتاب القيّم على عاتقه، هادفًا من التزامه هذا الواجب المعنوي أن يكون قد خطا خطوة إيجابية في سبيل توطيد وتطوير العلاقات الطيّبة نحو الأفضل بين كلّ من فنلندا والعالم العربيّ أجمع. ولهذا، يستحقّ السيد فاضل منا ومن كل قارىء، التقدير والعرفان.

هلسنكي في حزيران/ يونيو ١٩٩١

فاروق أبو شقرا
أستاذ في الدراسات العربية قسم الدراسات الآسيوية والافريقية
جامعة هلسكني ـ فنلندا.

مدخل

هذه الدراسة القيمة ، المنصفة ، عن شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر ، وضعها المستعرب الفنلندي جورج اوغست ڤالين ، بعد زيارتين قام بهما إلى تلك البلاد ، ونشرت باللغة الانكليزية في جريدة الجمعية الملكية (*) بلوندرة على دفعتين : أُولاهما سنة ١٨٥٢ ، وهي التي توفي فيها الكاتب ، والأخرى بعد سنتين من وفاته أي سنة ١٨٥٤ .

وشاء سوء حظ الرجل ، وقد رافقه أكثر أيامه ، أن تبقى روائع دراسته الممتازة مجهولة من جماهير القراء ، لم يطلع عليها إلاّ قبضة من علماء الاختصاص بجغرافية العرب وتاريخهم ، في حين كونها أعظم دراسة في موضوعها كتبها غربي في ذلك الزمان .

ومع جورج اوغست ڤالين الذي عُرف في العربية باسم « الشيخ عبد الولي » كان لي قصة ، بل هوى ، يرجع إلى قبيل الحرب العالمية الثانية ، يوم ظهرت بالفرنسية ترجمة كتاب « ارتياد العربية ، منذ الأزمنة القديمة حتى

(*) — Journal of the Royal Geographical Society.

أيامنا » (*) للأستاذ البحاثة راء . هاء ، كيرنان ، وقرأت فيها وصـــف « اكتشاف » المستعرب ڤالين لديار حائل فقرأت عجبا !

حائل — وما أدراك — احدى مقاطعات نجد ، وطن الرائع من الشعر العربي المعطر :

لَعَمري ، لَزهرُ الأُقحوان بحائـــلٍ
ونَــورُ الخزامى في أَلاءٍ وعَرْفَـــجِ
أحبُّ إلينا يا حميدَ بــن مالــكٍ
من الوَرد والخِيري ودُهن البنفسجِ *

وقلت « اكتشاف » حائل لأن زيارتها يومئذ عسيرة جداً على غـــير عرب المنطقة ، بل كان دخول الاجانب قلب الجزيرة العربية أمراً مستحيلا. وما أكثر ما بذله الرحّالون الغربيون من ضروب الجهد وصنوف الحيل لارتيادها واستطلاع مجاهلها ، وكثيرون منهم أعلنوا إسلامهم — مؤمنين أو مصانعين — ولكنهم باؤوا بالفشل إلاّ ما ندر .

أما صاحبنا الشيخ عبد الولي فعرف بأنه الرائد الأوروبي الحقيقي الذي وُفق إلى دخول شمالي الجزيرة إذ رحل اليه مرتين وعاد منه بمعلومات بكرٍ عدّها

(*) — R.H. KIERNAN, L'Exploration de l'Arabie depuis les temps anciens jusqu'à nos jours. PAYOT, Paris.

(**) — النور ، بفتح النون: الأبيض من الزهر. — الألاء : شجر مر الطعم دائم الخضرة حسن المنظر قبيح المخبر . — العرفج : شجر سهلي وقيل هو القتاد . والقتاد شجر صلب له شوك كالابر . — الخيري ، بكسر الخاء : نبات وهو المنثور الأصفر ، زيته يوصف لتحليل الأورام . (المنجد ، وسواه) .

العلماء كنوزاً (*) .

وعلى ضيق ذات يده ، وحرّ الصحراء ، وقلّة الماء ، وبدائية الناس ، وأخطار الغزو الذي لم يألفه في اوروبة ، أصرّ عبد الولي على مصارعة وعورة المسالك وتحمّل شظف العيش ومخاوف قطع الطرق ، ليعرف أكثر ما يستطيع غريب معرفته عن لهجات البلاد وأراضيها وقبائلها وتقاليدها وتجارتها وزراعتها وتربتها ومناخاتها ومياهها ومحاصيلها ، وما إليها . وكوفىء جهده وتعبه بصيد ذي بال .

ونقل هاء راء كيرنان بعض ما كتبه جورج اوغست ڤالين عما شاهده في ديار نجد من تقاليد وعادات ، فاذا أنت تقرأ كلاماً يدبّجه قلم المحبة والاعجاب ، مع الانتقاد عند اللزوم ، مما لم نعرفه ، ولا عرفنا بعضه ، عند الكتّاب الغربيين في كتاباتهم عن بلادنا .

واستهواني ما كتبه ذلك المستعرب النبيل، وأدهشتني غزارة معرفته الجزيرة العربية اذ تناولها بمختلف حقولها حتى وصف أساليب الزراعة والري فيها ، والغناء والموسيقى ، ووصف الأماكن الأثرية ، وخاض في شؤون دينية ، واستنبط أحكاماً منطقية على بقايا آثار الحضارات التي عثر عليها ، وفتش ، وسأل الأهاين ، عن نقود عتيقة فلم يعثر على سوى قطعة نقد ذهبية واحدة من العهد الفاطمي (ص ٥٢) — وهذه اللقيا ذات شأن عند دارسي التاريخ الاسلامي ، اذ ان نجداً لم تصل اليها الفاطمية ، على كونها جارة اليمن حيث استقرت دعوة هذا المذهب بعد انهيار الحكم الفاطمي في مصر — ولم يوضح عبد الولي تلك

(*) — أوراقه محفوظة في جامعة هلسنكي . والفلنديون شديدو الاعتزاز بمؤلفاته . أما رحلتاه المنشورتان بالانكليزية والمترجمتان في هذا الكتاب ، فقد ظهرت الثانية منهما قبل الأولى .

القطعة النقدية التي عثر عليها : ما قيمتها ؟ وفي حكم أي خليفة سُكّت ؟ وفي أية سنة ؟ الخ ...

قلت : استهواني ما قرأته من دراسة جورج اوغست ڤالين فرأيت من واجبي ، وعملي ، أن أسعى اليها ، ونحن يومها قبضة من الشبان نكافح الاحتلال الأجنبي الذي يكبل ديارنا ، وأمتنا لا يعرف العالم عنها إلا « قبائح » بعضها صحيح ويا للأسف ، ولكنه يجهل جميع الحسنات والاريحيات التي انبثقت من الانسانية العربية ، فوجب علينا أن نفتش عن منصف في وزن ڤالين لنستشهد به .

وسعيت إلى الكتاب ولكن الأحداث الدولية تضاربت يومئذ بسرعة جنونية وجرفتني في تيارات جديدة ، غرقت فيها إلى أن أتيح لي أن أتنفس ولكن بعد أن بلغت الكبر !

مرت ثلاثون سنة أهملت فيها صديقي الشيخ النبيل الخلق عبد الولي ، وتباعدت دراسته عن خاطري ، إلى أن كان يوم سعيد عرفت فيه الدبلوماسي الحصيف الدكتور كارولوس لاسّيلا سفير فنلندة في لبنان ، بمنزل قنصلها صديقي العزيز السيد توفيق فاضل ، فذكرنا علاقة فنلندة بالعالم العربي ثقافيا وتجاريا ، وذكرنا مسلميها الطيبين ، وتبسطنا في أهدافها السلمية وفوائدها الانسانية المتبادلة ، وكم هزني قول الدكتور لاسيلا ، وهو ممن لهم نصيب من الاستعراب ، ان عناية جامعة هيلسنكي — عاصمة فنلندة — بدراساتها العربية والشرقية والاسلامية صارت بعد جورج اوغست ڤالين تراثاً متواصل الحلقات عند علمائها .

تلك الاشارة من السيد السفير كانت كافية لأن تبعث ببالي ذكرى صاحبي الشيخ عبد الولي وذكريات دراسته فأيقظت رغبتي القديمة بترجمتها . ثم توالت الأيام والرغبة تتفاعل في نفسي حتى شعرت بالحاحها فقررت وتوكلت .

ويطيب لي أن أعلن أني لقيت من الدكتور لاسيلا المحترم تشجيعاً كريماً.

وأنه تلطف فأرسل يطلب إلى مكتبة جامعة هلسنكي أن تصور لي أصل الدراسة المنشور في المجلة الجغرافية الملكية — ويكاد يكون اليوم مفقوداً — فصورته الجامعة وأرفقته بنماذج من كتابات المستعرب الكبير ، وبرسوم له وللبيت الذي ولد فيه (*) . ولبّاني صديقي الأستاذ سمير شبلي فترجم الدراسة بدقة وحصافة . وكان لنا من سعي الصديق المفضال السيد توفيق فاضل ما وفقنا إلى اصدارها في هذا الكتاب ليحل ضيفاً محترماً على المكتبة العربية الحديثة .

لقد نهج الشيخ عبد الولي في دراسته نهجاً علمياً اذ رجع إلى مخطوطات عربية قديمة تُعدّ من الينابيع في معرفة تاريخنا وجغرافيتنا ، وقرأها بامعان ، ولكنه ظن أنها جميع ما كتبه علماؤنا الأقدمون في موضوعه ، في حين أن مخطوطات رئيسية ذات اهمية خطيرة من الأصول التي وصلت الينا اليوم كانت في زمانه مجهولة المصير ، ولما يكشف عنها . واعتمد صاحبنا ، أكثر ما اعتمد ، مخطوطاً لكتاب « معجم البلدان » بالمتحف الأسيوي ببطرسبورغ و « فيه اخطاء كثيرة » (ص ٦٦) ولكن ڤالين استطاع فهمه على رداءة خطه ، بل استطاع تصويب أخطائه وترجمته بأمانة ، وهذه الأمانة كانت رأس ماله في عمله دائما .

وأعظم ما عرف في جورج اوغست ڤالين بعد رجوعه من نجد ايمانه بصحة الدعوة الاصلاحية (الوهابية) وجرأته في الدفاع عنها . ولعله أول القليلين الذين أنصفوها في الغرب ، مبرهناً على أنها مسعى اصلاحي خيّر في الاسلام ، لا كما صورتها السياسة المغرضة(**) . وكذلك كان أول من أذاع أن أطفالها

(*) — اغتنم هذه المناسبة السعيدة لأبعث إلى جامعة هلسنكي الموقرة — وهي مركز جليل في العالم للاستعراب والاستشراق ، يخدم العلم للعلم ولفوائده الانسانية ، بعيداً عن مرامي السياسة ، وفيها جميع آثار المؤلف محفوظة بعناية — بشكري الحار واحترامي ووفائي .

(**) — في ملحق الاستدراك والتعقيب ، رقم ٣٠، ص ٢١٠ — ورقم ٣٤، ص ٢١٢ ، كتبنا كلمة تكشف عن مرامي تلك السياسة .

يتعلمون القراءة والكتابة في حين أن الشرق كله ، بما فيه العالم العربي ، غارق يومئذ في الجهل . وهذه الشهادة من عالم حيادي صادق كانت انصافاً قيما في وجه الافتراءات التي رمي بها المذهب الاصلاحي المذكور .

ومع صدق الشيخ عبد الولي في اسلامه — وسيأتيك حديث ما تلفّظ به قبيل وفاته المؤمنة — ظل الرجل أوروبي الأسلوب في انشائه : فهو — مثل الغربيين — يذكر اسم الله تعالى بدون الاجلال الذي نتقيد به نحن في كتابتنا : ويذكر الأنبياء والرسل بدون الصلاة عليهم ، بل قد يقول باجتهاد ديني (لم نترجمه) لا يقره العلماء . والاعجب من ذلك أنه يناقض اسلوبه هذا بكلامه على الحركة الاصلاحية وحبه لها ، بل هو يظهر أشد منها وطأةً على خصومها فيتهمهم تهماً كبيرة (محوناها من الترجمة ، ص ١٧١) .

وأحب الشيخ عبد الولي أهل الجوف وأثنى على كرمهم وسجاياهم ، وكتب أكمل وصف عن منطقتهم ، وكذلك قدر قبيلة الحويطات فعني بالبحث عن أهلها ، وباح باعجابه بعنزة . وكل ما كتبه في مقارناته بين البداوة العربية والمدنية الغربية كتبه بقلب كبير .

وكانت امنية صاحبنا أن يتابع السفر إلى الرياض عاصمة السعوديين ، إلا أن حاجته إلى المال عضته عضّاً موجعاً وحالت دون بغيته ، وقيل إنه فوجىء بموانع فوق طاقته زادت في طينه بلةً ، وان عين الحسد لحقت به وهو يطوي البيد ويغالب الشظف في سبيل الخير ، فأرسل مستشرق اسمه هوغارت من ينقل إلى الرياض ان جورج اوغست ڤالين يعمل في خدمة محمد علي والي مصر (!) والمرجح أن هذا الدس عليه جعله ينهي رحلته فتوجه إلى بيت الله الحرام حاجا تائبا ، ثم زار المدينة المنورة خاشعا متبركا ، وبها قطع عهده بالأرض التي أحبها فوق كل حب . وقد اثبتت الأيام ان اتهام هوغارت « لا يقوم على أساس » (كيرنان : ص ٢٣٧ من الترجمة الفرنسية) . وبعد سنين كثيرة جاء عبد الله

فيلبي يقلل بأسلوب آخر مضلّل من شأن عمل عبد الولي فقال عنه : « يعتقد بأنه أول أوروبي زار المنطقة » . (« أرض الأنبياء » : ص ١٥٩) — فلماذا التحفظ يا حاج فيلبي بكلمة « يعتقد » وأنت تعرف أكثر من سواك أنه أول أوروبي زار المنطقة ، وان ليس من دليل واحد قال العكس ... ألا يغفر ضيق العين لمستعرب نزيه في وزن ڤالين ، بعد هو وقومه عن مطامع الفتح والاستئثار ، انه أنصف العرب وقال فيهم كلام الطيب والحب والاعجاب ؟

وهكذا قطع الشيخ عبد الولي رحلته ورجع إلى وطنه فنلندة تاركاً قلبه في نجد ، متمنيا لو يستطيع أن يعيش عمره كله فيه بين اخوانه العرب الذين أحبهم !

وقدرت جامعة هلسنكي علم مواطنها وعمل تلميذها فعينته استاذاً فيها للغات الشرقية ، وبدأ يعيد النظر في ملاحظاته ويكتب ما دوّنه من مذكرات فكتب كثيرا . إلا أن حياته الجديدة لم تطل لسوء الحظ فتوفي سنة ١٨٥٢ عن احدى وأربعين سنة ، وهو يردّد : الحمد لله ، ثم الحمد لله ! (*)

وفي مدفن متواضع واروه — ألم يكن عظيما ؟ — ووضعوا فوقه حجراً نقشوا عليه اسمه العربي : عبد الولي .

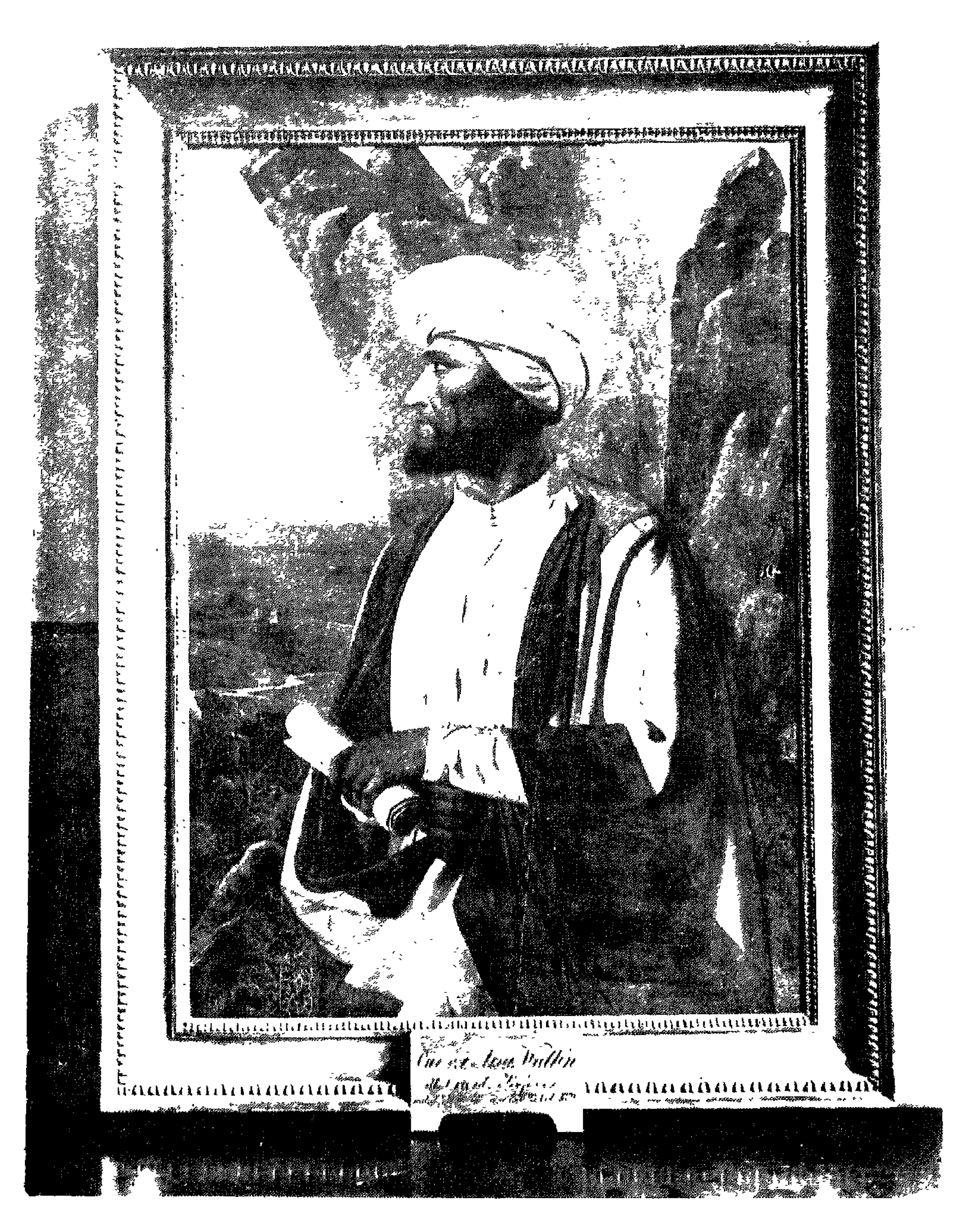
رحمه الله

الحدث في ٩ من شباط ١٩٧١

يوسف ابرهيم يزبك

(*) — في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٣ : ٢٥٧ ، ايلول ١٩٢٣) مقال بقلم يوحنا أهتينن كارسيكو (تعريب الارشيدياكون توما ديب المعلوف) عن جورج أوغست فالين عنوانه : « لغة العرب في حياة فينلنديا العلمية » .

وفي مجلة « الجمهور » ببيروت (٥ من كانون الثاني ١٩٦٨) مقال آخر عنه بقلم يوسف ابرهيم يزبك . وفي المقالين معلومات وافية عن حياته وعلمه وانتاجه .



المؤلف جورج أوغست ڤالين بلباسه العربي .

(عن صورة زيتية في متحف فنلنده الوطني – ملك جامعة هلسنكي)

رحلة ١٨٤٥

استأجرتُ دليلين من قبيلة « حيوي » (Heiwi) ليرافقاني من عاصمة مصر الى العقبة التي قررت الانطلاق منها، عبر جبال الشَّراة (*) الى مدينة الجوف في داخل صحراء البلاد العربية الشمالية . فغادرنا القاهرة الى السويس في الثاني عشر من شهر نيسان (ابريل) سنة ١٨٤٥ واتبعنا طريق التجار الى الهند فوصلنا بعد يومين الى عجرود ، أول محطة في طريق الحج المصري الى مكة المكرمـــة .

البقعة الصحراوية التي تمر فيها هذه الطريق معروفة جيداً ، وقد قطعتها خمس مرات في فصول مختلفة من السنة ولم أشاهد فيها مرة مضرباً واحداً للبدو ، ولا عجب فأرضها رملية خالية من مراعٍ تقصر حتى عن اعالة مواشي اصغر القبائل .

في السنوات الاخيرة نشطت حركة المواصلات مع السويس لاسباب عدة ، أهمها نمو التجارة مع الهند . وانك لترى القوافل في هذا الطريق في جيئة وذهاب ليل نهار ، مؤمّنةً اتصالا مستمراً وزاهراً بين اوروبة وآسية . وقام

(*) – أنظر ملحق الاستدراك والتعقيب ، رقم ١ ، في اخر الكتاب .

باشا مصر الحالي(*) برفع الحجارة والصخور والعوائق الأخرى من الطريق . ومدّ سلكاً تلغرافيّاً بين السويس والقاهرة . وشيدت عدة فنادق اوروپية تقدم وسائل الراحة للمسافرين الاوروپيين ، وحدهم ، الذين ينتقلون في عربات مريحة ويقطعون في عشر ساعات ، او اثنتي عشرة ساعة ، المسافة التي تقطعها الجمال في ثلاثة ايام . والبدو يُلَمّحون بذعر ودهشة الى السكة الحديدية وقد قيل لهم ان « الافرنج » المقلقين والحسودين سيمدّونها ليحرموهم الكسب الزهيد الذي ما زالوا يحصلون عليه بواسطة جمالهم .

قلعة عجرود أكبر القلاع في طريق الحج . ويعنى بها أكثر مما يعنى بسواها . ومياهها المستقاة من البئر الوحيدة في هذه المنطقة تضرب كثيراً الى الملوحة .

في الخامس عشر من نيسان (ابريل) غادرنا القلعة وسرنا في الصحراء التي تحيط بالسويس تاركين طريق الحج الى يسارنا . مشينا ساعتين في اتجاه شرقي — جنوبي ، ثم مشينا سبع ساعات وربع الساعة في اتجاه جنوبي – جنوبي شرقي حتى وصلنا الى عين « مبعوق » في سهل شاهدنا فيه بدوية ترعى غنمها الاعشاب والشجيرات القليلة النامية فيه . وماء العين فاتر يُبرَّد في القربات الجلدية التي يستعملها العرب فيصبح طعمه عذباً لذيذاً . وماء هذه العين افضل ماء عذب في جوار السويس ، يستقيه سكان البلدة الاغنياء على الرغم من بعد العين عنهم . اما سكان السويس « العاديون » فيستقون من بركة اسمها « غرقدة » (Gharkadé) في سفح جبال شبه جزيرة سيناء ، ومنها ينقل الماء على الجمال الى شاطىء البحر الاحمر ، ومنه الى السويس في زوارق صغيرة . والى الغرب من السويس ، على ساعة منها ، بئر أخرى على طريق عجرود ماؤها شديد الملوحة يصعب شربه. وفي « مبعوق » بقايا سور متداع .

(*) – كتب هذا الفصل سنة ١٨٤٥ (أنظر ملحق الاستدراك والتعقيب، رقم ٢ ، في اخر الكتاب)

وفي الربيع تنتشر حول العين قطعان صغيرة من الغنم ترعى الكلأ .

سرنا من « مبعوق » في اتجاه شمالي شرقي نحو جبل « الراحة » ودخلنا بعد ساعتين وربع الساعة وادياً اسمه « فِراشات الشيح » ينمو فيه الشيح والعَبَوْثُران بكثرة وهو يمتد من «الراحة» الى اليمين الى جبل حُمَيرة الاقل ارتفاعاً الى اليسار .

١٦ من نيسان (ابريل) — وصلنا الى طرف الوادي بعد ساعة وربع الساعة ودخلنا شِعباً ضيقاً اسمه « بلعيم المغاربة » قطعناه في ربع ساعة . وبعد اربع ساعات وربع الساعة مشيناها في سهول صحراوية نقدنا الى درب الحج المصري . والطريق التي سلكناها من عجرود يسلكها حجاج شمالي افريقية ، ولهذا سميت بدرب المغاربة . ثم سرنا ثلاث ساعات وربع الساعة في وادي «هشم الفروة» — وهو تتمة للوادي الذي اجتزناه في طريقنا من « مبعوق » — فدخلنا وادياً فسيحاً اسمه « وادي البروك » تحيط به الجبال من جوانبه جميعاً . وكذلك مررنا بجبل اسمه « ثميلة الدراويش » لأن في صخوره صهريجاً طبيعياً يتوفر فيه بعض الماء ابّان الامطار ، وطال سيرنا في السهل الى الشرق — الجنوب الشرقي ، فالجنوب ، مدة ثلاث ساعات باتجاه جبلٍ منعزل اسمه « جبل حَسَن »

١٧ من نيسان (ابريل) — حوّلنا اتجاهنا الى الجنوب الشرقي وسرنا تسع ساعات ونصف الساعة في السهل عينه فوصلنا الى المحطة الثانية في درب الحج المصري ، وهي قلعة النخل التي تقع تقريباً في منتصف السهل الفسيح على تلة منخفضة ينتصب في سفحها بيت صغير منعزل بناه رجل من الحامية (*) .

في القلعة بئر واحدة وماؤها ضارب الى الملوحة يرفع بالساقية ، وهي

(*) — رجعت سنة ١٨٤٧ ووجدت ان قرية صغيرة من اثني عشر بيتا برزت للوجود حول القلعة في خلال السنتين الاخيرتين . (المؤلف) .

الآلة المستعملة في مصر ، ثم يجر الى حوضين كبيرين وثالث صغير خارج السور .

طالت رحلتنا من عجرود الى قلعة النخل ثلاثاً وثلاثين ساعة ، اي باكثر من ثلاث ساعات من المدة التي تقطعها بها قوافل الحجاج التي لا تمر بعين مبعوق .

ومعظم العرب الذين يؤمون وادي « البروك » هم من قبائل التياها والترابين والحويطات والعلاوين ، غير ان المنطقة مهجورة في هذه السنة لقلة المراعي وبجفافها بسبب شحّ الامطار .

التياها اكبر قبيلة في الجوار ، وهي تشغل جميع الاراضي الممتدة من النخل الى غزة الى وادي العربة . ويزعم التياها انهم تحدروا من بني هلال الشهيرين الذين افتقدوا الماء في الصحراء في نزوحهم الى شمالي افريقية ، فانفصل ثلاثة من شبانهم ، معهم ثلاث صبايا ، يقودون ثلاثة حمير تحمل قربات فارغة — انفصلوا عن ربعهم في طلب الماء بوادي صدر — قيل لي عن هذا الوادي انه هو الذي ينحدر من العريش بمحاذاة الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء ، والرواة يختلفون في تسميته — ولم يلبث الازواج الثلاثة ان تاهوا في الصحراء واضطروا لضرب خيامهم فيها ومعايشة سكانها . والتياها المعاصرون لا يعرفون شيئاً عمن كان أولئك السكان القدماء .

عاش الازواج الشبان الثلاثة — وهم « ورد (*) بني هلال » — وتكاثروا في المنطقة ، والتياها يعتبرونهم اجداد قبيلتهم وواضعي اسمها . وبنو الرشيد و « الحكوك » هما البطنان الرئيسيان في القبيلة ، وبنو الرشيد هم شيوخها .

(*) — الورد (بكسر الواو) : القوم الواردون الماء . وبعض العرب يستعملها بمعنى « ولد » ، أي ذرية .

اما الحكوك فيقومون بزرع حقول الارز في جوار الغزة ونصّار ولا يبتعدون كثيراً عن قلعة النخل . ولهذه القبيلة يعود حق قيادة قوافل الحج والمسافرين حتّى العقبة من جهة ، والى غزة من جهة أخرى ، او الى اية محلة في سورية — وهذه المحلة هي « الظاهرية » في الغالب — تمكنهم علائقهم بالقبائل المجاورة من الذهاب اليها . وفي فصل الشتاء ، وفي اعياد الفصح على الاخص عندما ينطلق السياح الاوروبيون وقوافل المسيحيين الاقباط من مصر الى القدس يخيم عرب التياها في ضواحي النخل او ينزلون القلعة بانتظار هؤلاء المسافرين ، وهم — بعد الحويطات — اكبر القبائل العربية واقواها في هذه المنطقة . ولا ريب في انهم من اصل اشرف واعرق من سواهم ، وما يزالون على قوانين البداوة وتقاليدها اكثر من جيرانهم .

اما « الترابين » فمتفرقون بين القبائل المتنقلة في جوار الحدود المصرية ، وقد اخذوا بالاضمحلال في الصحراء ومخالطة فلاحي القرى المصرية والسورية . ومقامهم في ضواحي العريش والشاطىء الغربي للبحر الاحمر ، وفي الجبال الممتدة على الشاطىء الشرقي منه . وجيرانهم يستخفون بهم لانهم يرونهم من قبيلة تشترك و « هتيم » في الاصل . ولم اجد ذكراً للترابين والتياها في كتب العرب .

اما الحويطات فتقطن في وادي التيه وفي ارض « عِجمة » وفي جوار العقبة . ولا شك بانها القبيلة التي ذكرها القلقشندي في مؤلفه عن « انساب العرب» بانها «بنو حي» . وفي كتابه هذا ينسب الى « الحمداني » قوله ان هذه القبيلة تنحدر من قبيلة Faal (الفضل ؟) (*) السورية ذات الشهرة السابقة

(*) — يقول القلقشندي : « بنو حي : بطن من العرب ، ذكرهم الحمداني في حلفاء آل فضل من عرب الشام ولم ينسبهم إلى قبيلة . » — (طبعة بغداد ص ٢٢٧) .

دون تحديد نسبهم او الاشارة اليهم مرة اخرى . وصاحب القاموس ايضاً يشير الى عرب بهذا الاسم ولكنه لم يبسط في مؤلفه اية معلومات اضافية عنهم .

أما قبيلة « العلاوين » فتلازم وادي العربة وتعيش مختلطة بانسبائها من الحويطات .

وصل ، وانا في قلعة النخل ، شيخ من « الحيوي » Heiwi هو شيخ بطن « الغُرَيقان » يرافقه مدني من موظفي باشا مصر . وهذا الموظف جال بين بدو المنطقة ويهم بالعودة الى القاهرة ، واما شيخ الغريقان فراجع الى عائلته في وادي التيه ومعه جملان غير محملين ، فاتفق معه دليلاي على ان يأخذني الى العقبة البعيدة يوماً واحداً عن مضاربه ، على ان يكونا هما في خدمة الموظف المصري في عودته الى القاهرة . ووافق الجميع على هذا التبادل . وانطلقت مع دليلي الجديد من قلعة النخل في الثامن عشر من نيسان (ابريل) فسرنا اربع ساعات في منبسط وادي البروك باتجاهٍ جنوبيٍّ — جنوبي شرقي .

١٩ من نيسان (ابريل) — تابعنا السير نحو الجنوب الشرقي في المنبسط عينه، واخذت كثبان رملية تموّج تدريجاً ارضه وتتخلله سلاسل جبال منخفضة صخورها رملية وكلسية . ويطلق على المنطقة التي تبعد بضع ساعات عن القلعة اسم « قُرَيس » (بالسين المهملة) . وعلى جانبي طريق الحج تنتشر آبار قديمة تحيط بها اطلال اسوار قال لنا الناس انها المحلة التي قامت فيها قديماً قلعة النخل . وسرنا تسع ساعات في ارض متموجة ثم ملنا الى الشرق ودخلنا جبال « قُرَيس » الكلسية العالية حيث انحدرنا مدة ساعتين في اودية عميقة متعددة الاتجاهات .

٢٠ من نيسان (ابريل) — وصلنا بعد ساعة وربع الساعة الى آبار قُريس في وادٍ عميق ، ارضه طبشورية بيضاء ، ينحدر من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، وهي ست آبار مياهها على غزارتها ضاربة الى الملوحة .

ووصلنا بعد ثماني ساعات الى وادي التيه . وهنا تعددت اتجاهاتنا فسرنا في اودية عميقة وضيقة، وفي ممرات وعرة في قمم الجبال حتى وجدنا مضارب دليلي .

دليلي هذا ، جماعته تعيش في العراء بلا خيام – وهي العادة في الربيع – وذلك بالرغم من تنقلهم مع قطعانهم وجمالهم كلها . وكي لا تسبب الخيام عقبة في سبيلهم او ان تزعجهم في ترحّلهم فهم يعلقونها في شجر السنط ، على طريقة بدو « الطورَة » الضاربين في شبه جزيرة سيناء . ولا يمسّها احد حتى يعود اصحابها لاستردادها . وبعض القبائل، كالحيوي في العقبة ، تحتفظ بخيامها في قريتها او في مخزن او حانوت يخصص في القلعة لكل شيخ من شيوخ المناطق المجاورة. ولم أجد لهذا التدبير مثلاً في بلاد العرب حيث لا ينام البدوي في العراء ولا يترك مضاربه في عهدة القرويين . اما هنا فيتركون الخيام لانهم يجدون لأنفسهم ، ولأطفالهم العراة ، ملاذاً في المغاور والكهوف يقيهم حرارة الشمس والامطار الطارئة . والمغاور كثيرة في الجبال العالية الكلسية التي تحيط بالوادي من جوانبه جميعاً .

قضيت هنا بضعة ايام واستشرت مضيفي عن احسن الطرق الى الجوف واكثرها أمناً فنصح لي بالعدول عن الذهاب الى العقبة ، وأشار عليّ بان اتبع طريقاً اقصر يمر عبر وادي العربة وسلسلة جبال الشراة الى معان ، ووعد بمرافقتي الى احد اقاربه رئيس شيوخ قبيلة « العُمران » الضاربة في المنحدرات الشرقية من الجبال التي ذكرتها .

وقبلت ما عرضه رفيقي علي على رغمٍ من جهلي التام طرق المنطقة التي سأمر بها ، وجهلي العلائق بين مختلف القبائل التي سألقاها . وقد قبلت ذلك ليقيني ان رفيقي كان يأمل بالكسب ساعة عرض عليّ ان يرافقني ، ولأني آثرت ان اعمل بنصح البدو الذين كانوا يطلبون دائماً اليّ ملازمتهم وتجنب الاتصال بسكان المدن والقرى .

٢٣ من نيسان (ابريل) — غادرنا المضارب وسرنا ساعة وثلث الساعة في وادٍ جانبي يتفرع من وادي التيه ، ونفذنا منه الى سهلٍ صحراوي منفتح قطعناه في اتجاهٍ شمالي شرقي في ساعة وربع الساعة ، واستضافتنا اسرة من قبيلة دليلي الى وجبة طعام قليلة من الذرة المغلاة والمخبوصة . وهذه الاسرة تعيش في الوادي ، مثل اقربائها ، في العراء بين الشجيرات الصحراويّة .

٢٤ من نيسان (ابريل) — سرنا يوماً كاملا في سهول جَدب تتخللها جبال منفردة . قال لي دليلي ان اول تلك السهول اسمه « وادي الحماد » تسمع فيه بين حين وآخر اصوات غريبة جداً تتصاعد من الارض وتشبه نقر الطبول ، ولم يستطع احد تفسير هذه الظاهرة الغريبة .

بعد ثماني ساعات وثلاثة ارباع الساعة ، قطعنا فيها ثلاثة سهول تشكل خلجاناً في بحر الصحراء ، توقفنا للمبيت في طرف وادٍ في الجبال التي تحدّ وادي العربة من الغرب .

٢٥ من نيسان (ابريل) — سرنا في اودية ضيقة ومتعرجة تنحدر شرقاً نحو وادي العربة وينمو فيها شجر السنط بكثرة . والسنط يبلغ هنا حجماً كبيراً والجمال ترعى شوكه وورقه بنَهَم . والاودية الضيقة هذه هي بين جبال منخفضة جداً وتنحدر بلينٍ الى وادي العربة . وقد سرنا فيها ست ساعات وربعاً فدخلنا وادي العربة الكبير في مكان يبعد، حسب تقدير دليلي، يوماً عن العقبة ويومين عن وادي موسى . وسرنا في رمال الوادي ساعتين قبل ان نتوقف للمبيت .

٢٦ من نيسان (ابريل) — مررنا بعين ماء فاتر يضرب الى الملوحة، وقد خيّمت حوله بعض العائلات من عرب العمران . وكان سيرنا بطيئاً متعباً في الرمال العميقة التي تغطّي الارض . وقد اضطررنا الى التصعيد فيها كي نصل الى الحد الشرقي من الوادي المائل من الشرق الى الغرب .

الاجزاء الغربية من وادي العربة تتألف من سهلٍ وارضٍ رملية ينمو فيها – نسبياً – كثير من الاعشاب والشجيرات . اما الناحية الشرقية في سفح جبال الشراة فارض الوادي فيها تلّية متماوجة تغطيها الحجارة والحصى وكتل من المانع (الغرانيت) تدحرجت من اعالي الجبال المطلة على الوادي . والاعشاب قليلة في هذه الناحية وتشاهد مبعثرة هنا وهناك بضع شجيرات من السنط . وعبرنا الوادي في اتجاهٍ شرقيٍّ – شمالي شرقي وبعد ثماني ساعات وصلنا الى مدخل وادٍ ضيق اسمه « وادي غـرّندل » ينحدر من جبال الشراة ، ينبع في اوله ماء صافٍ وعذب يجري في جدول صغير وتنمو على ضفافه بعض شجيرات النخل والعشب ، ولكن سرعان ما يختفي في الرمال .

٢٧ من نيسان (ابريل) — سرنا في مجرى الوادي المتعرج بين جبال عمودية ترتفع الى حوالي الف قدم ، الوانها عديدة وكأنها في بعض الاماكن ورق رخامي . وفي ثلاث ساعات ونصف الساعة وصلنا الى طرف الوادي الضيق الذي لا يتجاوز عرضه في عدة أماكن خمسة عشر يرداً (*) ولما لم يكن لهذا الوادي منفذ فقد أخذنا نتسلق وهدة جبلية شبه عمودية اسمها «نقب عجانة » ، وسرنا اربع ساعات ونصف الساعة في ممرات صعبة على شفير المهاوي وفي المنبسطات المرتفعة .

٢٨ من نيسان (ابريل) — تابعنا التسلق ساعتين ووصلنا الى منبسط في قمة الجبل اسمه « وادي دلاغة » اتينا منه في ساعتين اخريين الى عين ماء تحمل الاسم عينه وتقع الى الشرق – الشمال الشرقي منه ، يزرع فيها بعض فلاحي البدو الذرة والقمح . ووصلنا بعد ساعة أخرى الى مضارب بني العمران ، عند الشيخ الذي كان دليلي الحيوي قد وعدني بمرافقتي اليه .

(*) – اليرد مكيال انكليزي يبلغ ٩١ سنتيمترا و ٤ ملم .

٣٠ من نيسان (ابريل) — غادرت القبيلة يرافقني دليلي الجديد ، الشيخ حُمَيد بن سلمان العُمراني ، وسرنا ساعة الى الشمال الشرقي في وادي دلاغة الفسيح ، ثم اتجهنا شرقاً ودخلنا في وادي مَبْرك وهو وادٍ يزرعه الفلاحون . وبعد ساعة ونصف الساعة وصلنا في طرف الوادي الى عين « بسطة » ذات الماء الغزير الكثير العذوبة . وقرب العين اطلال جدران من طين قد تكون اطلال قلعة صغيرة شيدت هنا في الماضي واستعملت مركزاً لمراقبة الصحراء وسكانها المشاغبين ، ايام كان فلاحون مسالمون يقطنون في هذه الجبال . وخلّفنا العين وراءنا ودخلنا السهل العظيم الذي يشكل الصحراء السورية ، حيث تذوب (تتوارى) تدريجاً الجبال التي مررنا بها ، وسرنا الى الشرق خمس ساعات فوصلنا الى بلدة معان .

ومَعان هو الاسم الذي يطلقه اليوم جميع العرب على هذه البلدة بدلا من مُعان (بضم الميم) الذي ذكره جغرافيوهم القدماء . وفي « الموجز في الجغرافية » لمحمد بن علي السپاهي ادرج قول ابن حوقل ان مُعان (بالضم) محلة صغيرة محصنة في ارض الشراة ، على يوم من شوبك ، اقام فيها بنو أميّة وهي اليوم اطلال مهجورة .

ومَعان الحالية من اكبر البلدان في طريق الحج السوري ، فيها مايتا عائلة تقريباً تنحدر من سبع بطون ، او « فِناد » ، مختلفة ، وقد اختلطت بالمهاجرين النازحين اليها من القرى السورية الاخرى . وهم اقوياء البنية ، سوريو الملامح ، يستطيعون تعبئة قوة محاربة من مئة وخمسين مقاتلا — وقيل لي : ثلاثمئة — وهذه القوة المحاربة تبعث في نفوس اهل معان ثقة تجعلهم يخفضون الخوّة التي يفرضها عليهم شيوخ القبائل المجاورة من الشرارات والحويطات وعَنَزة . وقد يرفضون تأديتها .

والخوّة التي تفرضها جميع القبائل الاصيلة على مدن البادية وقراها ،

وعلى المسافرين والتجار والقبائل المختلطة او الوضيعة ، الفقيرة منها والضعيفة ، تستند على الارجح الى زعم البدو أن الصحراء انما هي ارضهم الموروثة ، وان من حقهم فرض الخوّة فيها . وكل بقعة من هذه المنطقة كانت ذات يوم ملكاً لقبيلة معينة ، ولم تكن هذه القبيلة لتسمح باقامة قرى في المنطقة ولا لتجيز للقبائل الاخرى دخولها ، او تسمح للغرباء بالمرور فيها الا بـ « حماية » تشرى من سادة الارض ، وهذه الحماية هي الجزية (*). والحماية تمنح بسهولة اذ يكفي ان يهدي المسافر الغريب احد افراد القبيلة ، أرجلاً كان أم امرأة ام طفلا ، هدية صغيرة ، او ان يشاركهم الخبز والملح حتى يحسب أخاً لهم .

اما شروط منح القرى حماية فتخضع لتقاليد قديمة : وذلك ان تدفع القرية الخوّة ثياباً تقدمها لشيخ القبيلة الرئيسي ولاصحاب النفوذ في البطون المختلفة . وفي نجد تدفع تمراً وذرة . والحماة يطلبون ان تستقبلهم القرى (التي يحمونها) بحفاوة ، وان تستضيفهم بكرم فيما اذا زاروها . ويطلبون كذلك ان تساعدهم في الاحوال الطارئة ، وهم يدافعون عنها ويحمونها من تطلبات القبائل الاخرى ويقومون ايضاً بدور الوسطاء في النزاعات التي قد تنشب بينها وبين القبائل .

و « الخوّة » شائعة بين العرب الرحّل ايضاً . وهي تختلف بعض الاختلاف عن تلك التي ذكرتها سابقاً . فالصلات بين القبائل على ثلاثة انواع : هنـــاك قبائل تصل بينها أخوّة لا تقتصر على التحالف فحسب بل تشمل ايضاً حماية الغرباء والقرويين الذين هم على علاقة اخوية بها ، وهي حماية تردّ عن هؤلاء ما قد تفرضه عليهم القبائل غير الحليفة . ثم ان هذه القبائل المتحالفة لا تؤدي احداها اية جزية للاخرى ، وتعدّ نفسها متساوية في اصلها العريق . وهناك ثانياً ، قبائل تتواصل صداقة تضمن لها الحماية المتبادلة من اعتداء الاغراب

(*) – وهي : « الخوة » في التعبير البدوي .

عليها ، الا انه لا يحق لاي منها ان تحمي الغير من مطالب اصدقائها . اما اذا لم يكن هنالك علاقة صداقة ، او اخوة ، فالقبائل عدوة بعضها لبعض ، « يدها على كل فرد ، وكل فرد يده عليها » .

والبدو يعدّون جميع المزارعين الحضّر اعداء طبيعيين لهم، ولا يجيزون اقامتهم في اراضيهم الا بحماية يمنحونهم اياها لقاء اكبر ثمن يستطيعون الحصول عليه . وما ان يشتدّ اولئك المزارعون بأساً وثروة حتّى يسعوا الى رفض تطلبات البدو الرحّل ، او الى تخفيفها، كما هو الحال في القرى المصرية التي كانت قبل حكم محمد علي تحت رحمة بدو الجوار ، وكما هو الحال اليوم في معان التي كانت حتّى السنوات الاخيرة تحت رحمتهم ، وإنْ بدرجةٍ اقل . والبدو الذين يحتقرون الجبن والاتكالية يقرّون في الغالب مقاومة المزارعين تلك ، بل يقرون موقفهم الحازم ، فينتج عن هذا انهم يوطدون صلتهم بهم حتّى لتصير هذه الصلة وثقى ، كما هي الحالة في معان حيث يقدّر البدو رجولة سكانها وشجاعتهم ، ويرونهم أهلا لهذا التقدير اكثر من اهالي معظم القرى الاخرى ، وهذا يساهم كثيراً في تسهيل الاختلاط بين الفريقين ، وإحياء تجارة متبادلة نشيطة لم اشهد انشط منها في اي مكان آخر في هذا الطريق ، تقوم على المقايضة بين معان وسكان الصحراء المحيطة بها .

أكثر ما يرغبه البدو من السلع هو الثياب والبارود والرصاص والاسلحة والتوابل والبن والسكر الذي صار مرغوباً به كثيراً حتى في الصحراء . ومقابل هذه السلع يعطي البدو الجمال والغنم والصوف والزبدة (السمن) والحليب .

وفي الرحلة التي قمت بها من هنالك بين مختلف القبائـــل العديدة ، المنتشرة في المنحدرات الشرقية لجبال الشراة ، وجدت في كل مخيّم ، تقريباً ، تجاراً من معان أتوا ليتغذّوا — على العادة هنا في فصل الربيع — بحليب النوق ، في مضارب اخوانهم من العرب الرحّل المضيافين ، وليحصّلوا على الاخص

ديونهم منهم . ولولا تسهيلات الدفع التي يقدمها هؤلاء التجار للبدو لاستطاع البدو الحصول على حاجاتهم الضرورية بسهولة اكثر ، وبأثمان ارخص ، في الاسواق عينها التي يشتري منها اهل معان حاجاتهم ، وأهمها اسواق الخليل وغزة والعقبة . وقد يذهبون الى دمشق في الشمال والى الجوف في الشرق . اما طريقهم الى الخليل وغزة فتمر بوادي موسى – ويسمونه هنا « السيق » – وتمر الطريق الى العقبة بشعب « شتار » المتصل بوادي اللِتّم ، وهو وادٍ يقطع جبال الشراة على ثماني ساعات الى الشمال من العقبة .

ان معان هي اهم هذه الاسواق إطلاقاً في خلال اليومين اللذين تحط فيهما عادة قوافل الحج السوري رحالها هنا للراحة وهي في طريقها الى مكة وفي رجوعها منها . فالسكان يعملون طوال السنة، وفي سبيل هذه الايام الاربعة التي يطلقون عليها اسم «الموسم» ، على خزن متنوعات العلف والمؤن التي يحتاج اليها الحجاج لمبادلتهم بسلع وبضائع اخرى يحملونها معهم ، فلعلهم يحققون بعض الكسب من هذه المقايضة . وكثيرون من الحجاج يجمعون بين اداء فريضة الحج وبعض التجارة فيتزودون سلعاً يستطيعون بيعها ويحملون جمالهم من دمشق ثياباً وقطناً ومصنوعات اوروبية اخرى مرغوب بها في بلاد العرب ، ويحملون في عودتهم من مكة البن والافاويه، وعبايات بغدادية وقبعات (طرابيش؟) فارسية، او سيوفاً وخناجر هندية ، وهذه السلع نادرة نسبياً ويكثر طلبها في غربي شبه الجزيرة .

بالاضافة الى ما تقدم ، يجتمع البدو في هذا الموسم في البلدة آتين اليها من الصحراء القريبة ، فتصير القرية الصغيرة والقرى المنتشرة في طريق الحج ، مكتظةً بالناس تماثل اشهر الاسواق الدورية في اوروبة . وجميع السلع التي يستغنى عنها تعرض للبيع او للمقايضة . وينهمك الجميع بالمضاربات في سبيل الكسب، وهو ما ينشده سكان القرية حتى انهم ليجبّون الضيافة، وهي خلّة

العرب الرئيسية ، فيبيعون الماء العذب المتوافر في العين الوحيدة هناك واسمها « انجازة » . ولا بدّ من الاشارة الى ان اهل معان لا مورد لهم سوى تجارتهم هذه، وان اكثرهم، في الواقع ، يستحصلون في ايام الموسم الاربعة على كفافهم وكفاف عائلاتهم للسنة كلها .

اما مياه « انجازة » فتروي بعض الحدائق . وهنا تزرع اشجار مثمرة ، اهمها الرمّان المشهور بانه اطيب ما ينبت في بلاد العرب . والحجّاج يحبون ثماره التي تعدّ في الشرق افعل دواء لامراض الكبد . وهو يجمع في المخازن مؤنة للسنة. اما النخل فلم يفلح السكان بزراعته رغم محاولاتهم العديدة. ويرفع الماء من العين رجل واحد مستخدماً قربة من الجلد مفتوحة تماثل القربة التي تستعمل في اعالي مصر واسمها الشادوف . ويجرّ الماء – مع الماء الذي يأتي به جدول ينساب من محلّة تبعد نصف ساعة الى الشمال – في اقنية صغيرة الى الحدائق والى حوض كبير يتوضأ فيه السكان ، واحياناً يغتسلون فيه . وهناك آبار كثيرة اخرى غير هذه العين ويكفي ان تنبش في الارض الى عمق بضع « ياردات » حتى يتفجر الماء . وتزرع الذرة في السهل المحيط بالقرية كما تزرع في الحقول بين الشجر والكرمة . وفي السنين الجيدة يكاد المحصول يكفي حاجة السكان ، واما في سني الجفاف فيتمونون الذرة من غزة ومن العقبة التي يتمونون منها الارز ايضاً . والارز في المنطقة الغربية من بلاد العرب جنسه هندي يؤتى به من جدة وموانىء الساحل الشرقي للبحر الاحمر ، اما الارز المصري فيؤتى به من دمياط بطريق غزة والموانىء الاخرى على البحر المتوسط الى سورية . وعلى كونه احسن فان ارتفاع سعره يجعله نادراً داخل بلاد العرب .

وهناك قلعة قديمة واحدة –(وليس قلعتان كما قال ريتر في كتابه Erdekunde فصل ١٣ ، ص ٤٢٠) (*) واخبرني الاهلون ان بانيها هو السلطان

(*) – أنظر ملحق الاستدراك والتعقيب ، رقم ٣ ، في آخر الكتاب .

١) : المؤلف جورج أوغست ڤالين في شبابه (قبل رحلته إلى الجزيرة العربية) .

٢) : البيت الذي ولد فيه في بلدة سُنْد بفنلندة . ٣) : جامعة هلسنكي في زمانه .

سليمان التركي (*) وتراها اليوم ، في حالتها الراهنة ، متداعية غير مسكونة بسبب حاجتها الماسة الى الترميم . الا اني التقيت سنة ١٨٤٨ في تبوك (٤) اناساً من معان قالوا لي ان باشا دمشق (أي حاكم دمشق) ارسل مؤخراً الى معان ضابطاً تركياً يرافقه امين سر مسيحي وانه جهّز قسماً من القلعة لتأمين مقام له فيها . وحتى ذلك الوقت – وخلافاً لما هو الحال في المحطات الاخرى من طريق الحج هذا – لم تكن الحكومة التركية قد عينت قائداً للقلعة والقرية ، فتركت للاهلين امر تصريف شؤونهم وتموين قوافل الحج . ويبدو لي انهم قاموا بذلك على افضل وجه . غير اني لا انفي وجود نزاعات وخلافات بينهم غذّاها الحسد المتبادل والتفاخر التافه بين محبي المشاكسة في القرية من شيوخ البطون . وقد بلّغ احد هؤلاء والي دمشق نبأها باسلوب متكبّر وسيىء فأرسل الوالي ضابطه الى مَعان ليجمع ، بحجة النظر في المنازعات ، بين البطون المختلفة تحت إمرة رئيس واحد . وستظهر الايام ما اذا كان هذا التدبير هو في مصلحة القرية التي بـــدت لي أعظم واغنى المحلات في هذه المنطقة من الصحراء ، وانها جادة الى تحقيق رفاهية اكبر ورخاء اكثر .

الصناعيون الرئيسيون في مَعان هم نحاسٌ وحدّاد وصانع سلاح ، وقد نزحوا اليها من الخليل . اما معلّمها الوحيد فهو إمام القرية وقد ولد فيها وتلقى علومه في القاهرة . وجميع السكان بلا استثناء حنفيون يدققون في تأدية فرائض الدين ، على جهلهم للشريعة والادب العربي ، مثل سواهم من ابناء الصحراء .

اوالى ربع ساعة الى الشمال – الشمال الشرقي من مَعان قرية صغيرة اسمها « الشامية » او « المغارة » تعيش فيها عشرون اسرة من سورية . وتقوم القرية

(*) – التحفظ مستحسن في تقبل أخبار العامة .

على تلّة ، في سفحها بعض الحدائق يرويها ماء ضارب الى الملوحة يجري من عين غزيرة . وباستطاعتك ان تحسب « الشامية » من احياء مَعان مع ان سكانها من قبائل اخرى ومستقلون عن شيوخها . اما هندسة المنازل ، وشكل قطع الطين المجفف المبنية بها ، وعادات السكان واسلوب عيشهم واكلهم وزراعتهم واثمار حدائقهم فتذكرنا بسورية . الا ان فقدان الزيتون والنخيل اللذين يضفيان على قرى سورية ونجد منظراً بهياً يضع مَعان في الحد الفاصل بين هاتين المنطقتين .

وتتميز معان ايضاً بنبات صحراوي مفيد جداً اسمه « السَمْح » يقال انه ينمو في انهطال المطر في زمن الثريا (*) وهو لا ينمو في سوى الصحراء الشمالية من بلاد العرب ، في القسم الممتد بين قرية الشامية والجوف . والسَمْح نبات يثمر قروناً كبيرة فيها كثير من البزر ، وتجمع القرون وتنقع بالماء حتى تتفتح وتصعد الى سطح الماء بينما يغوص البزر في القاع . ويجمع البزر ويجفّف في الشمس ثم يطحن دقيقاً ويصنع منه خبز لذيذ الطعم ولكنه عسير الهضم الى حد ما ، يضرب لونه الى الحمرة . وتصنع منه ايضاً مأكولات اخرى . وأخبرني سكان المويلح وبدو شبه جزيرة سيناء ان السَمْح ينبت ايضاً في جزيرة تيران في البحر الاحمر ، ولكني لم أره ، ولم اذق طعمه ، الا في معان والجوف حيث يستعمل طعاماً مغذياً جداً فيما اذا عجن ، او سلق ، مع التمر . ودقيق هذا النبات يجلب احياناً من الجوف الى نجد حيث يستلذونه طعاماً . اما الشرارات الذين ينبت السَمْح في ارضهم فغير مولعين به فيقايضون القرويين به على اطعمة اخرى . وهناك نوع آخر منه ينبت في المويلح له الصفات عينها

(*) — هو فصل الصيف . وجاء في « كتاب المطر » للانصاري ص ١٠١ : «أول القيظ طلوع الثريا ، واخره طلوع سهيل » — «البلغة في شذوذ اللغة» — المطبعة الكاثوليكية — بيروت ، ١٩١٤ .

ويسمى دُعاع (*) .

ان القبائل الرئيسية في جوار معان ، التي يعمل الاهلون على حفظ صلات الصداقة بها ، هي اولاً الشرارات المعتبرة السيدة الاصلية لمعان والجوف ، ويعيش اكثرها في هذا الجزء من الصحراء وفي وادي سرحان ، وثانياً : الروله والنايف ، بطنا عنزة ، ثم بنو صخر قرب شوبك والكرك ، ثم الحويطات وقبائل اخرى تعيش في المنحدرات الشرقية من سلسلة الشراة . ويملك بعض الاهلين بساتين وكروماً في وادي موسى ويحميهم البدو العائشون في ذلك المكان شركاء للفلاحين .

٥ من نوار (مايو) — غادرت معان يرافقني الشيخ احمد القبّة وهو من اجل الشيوخ ومن التجار الذين يتعاطون تجارة الجمال المربحة ، يشتري بالدين عدداً كبيراً منها من الشرارات المشهورين بانهم يملكون نسلا جيداً من الابل ، ثم يأخذها الى عاصمة مصر ويبيعها فيها فيجني ربحاً طائلا . ولدى وصولي الى مَعان كان يعدّ لرحلة الى البدو ، ولما كان دربه الى مكان قريب من الجوف فانه وعد بمرافقتي الى هناك قبل ان يباشر صفقاته التجارية . وبما انه لا يملك سوى جمل واحد يمتطيه ، وليس له ، وهو القروي، الحق في حمايتي من القبائل المتآخية وقبيلته — مع ثقته بسلامته الشخصية بينهم — فقدَ اضطررنا للتفتيش عن رفيق ثالث يمدّني بالجمال والحماية . واملنا بالعثور على هذا الرفيق بين الرحّل الذين يعيشون في جبال الشراة . وهكذا بدأنا رحلتنا فتوجهنا الى هناك .

(*)—الدعاع ، بالضم : النخل المتفرق. وهو ايضا حب شجرة برية أسود كالشونيز يختبز منه. الواحدة دعاعة. وجاء في اللسان : « وقال أبو حنيفة : الدعاع بقلة يخرج منها حب يتسطح على الأرض تسطحا لا تذهب صعدا فاذا يبست جمع الناس يابسها ثم دقوه ثم ذروه ثم استخرجوا منه حبا أسود يملأون منه الغرائر ».

ويحيط بمعان من جوانبها جميعاً سهل صحراوي قاحل ، تربته رملية صلبة ، تغطيه أحجار سود صغيرة ، وقد قطعناه في ساعة واتينا منه الى بعض اودية نباتها قليل ، ترعى فيها قطعان صغيرة ويفتش الرعاة فيها عن الوقود .

بعد مسيرة خمس ساعات من القرية في اتجاه شمالي — شمالي غربي وصلنا الى عين اسمها « أذْرُح » ، مياهها الغزيرة تتجمع في حوض بسفح تلة تربتها غنية مخضرة ، وفي قمتها برج قديم مستدير وتحته برج آخر مربع الجوانب ونصف مهدم . ومقابل التلة ، وعلى الضفة الاخرى من الحوض الذي يحاكي بحيرة صغيرة ، آثار كثيرة لمحلة قديمة محصنة يحيط بها سور رباعي الشكل ، وكل جنب منها يبلغ طوله الواحد حوالي عشر دقائق من السير . والسور معمر بحجارة كبيرة منحوتة قطعت من صخور جيرية من الجبال المحيطة بالمكان ، وعلوه اثنتا عشرة قدماً بسماكة قدمين ، ولا يزال في حال حسن ، وفي داخله انقاض تكدست فوق اقبية معقودة بنيت فوقها المنازل . وتقوس عقود هذه الاقبية يذكرني بالمدن السورية والهندسة الرومانية . غير اني في خلال نصف الساعة التي تركني مرافقي فيها اتجول بين الآثار لم أجد أي نقش او كتابة . واكد لي دليلي ان هذه الاثار انما هي بقايا مدينة مسيحية منيعة ، بنيت قبل زمان الرسول (صلعم) ، وان كنوزاً ثمينة جداً مدفونة تحتها . ثم سألني الدليل عما اذا كنت اعرف تعويذات تساعدني على اكتشافها . وروى لي أيضاً ان البرجين كانا في الايام القديمة لجر المياه . ولكنه يخيل الي انهما ، بالنسبة لموقعهما في قمة تلة ، كانا يستعملان لمراقبة السهل الصحراوي ، الفسيح المترامي الى الشرق (٥) .

حول العين والحوض تمتد حقول ذرة كبيرة يفلحها بعض الفلاحين الرحل الذين يقيمون في اقبية في البلدة الخربة . والخضرة فيها نضرة ، ونمو الزرع ممتاز ، وماء العين صافٍ وعذب .

ابو الفداء يشير الى أُذْرُح بانها بلدة في جبال الشراة ، ويشير في الوقت عينه الى بلدة « مآب » بانها في منطقة الكرك(٦) . وفي القاموس : انها محلة قريبة من قرية سورية اخرى اسمها « جربى » ، ولم تذكر معلومات اخرى عنها (*) . ولم يلفظ السكان اسمها امامي . ونقل ريتر عن السيوطي (٨) ان أُذْرُح مدينة على حدود سورية قريبة من بلقاء وعمان ، ولكنه يكتبها أَدْسْرُح (**)

من أُذْرُح سرنا في اتجاهٍ شماليٍّ – شمالي غربي ، ساعة ونصف الساعة ووصلنا الى مضارب الحويطات فحللنا ضيوفاً عليهم تلك الليلة .

٦ من نوار (مايو) — سرنا ثلاث ساعات ونصفاً في اودية تمتد الى الشمال ، وتمتد الى الجنوب ، في ارض تلّية . ومررنا بخيام فلاحين رحّل . ثم سرنا نحو الشمال الشرقي في وادٍ اسمه « عَلَيْمة » يبعد ساعتين الى الشرق من الشوبك (٩) وسلكنا الوادي ساعة فأتينا الى الصحراء الفسيحة حيث سرنا ثلاث ساعات في اتجاهٍ شماليٍّ – شمالي شرقي حتى وصلنا الى اطلال حصن عتيق اسمه « خان الزبيب » ، قال لي دليلي ان السلطان سليمان هو الذي بناه ، وكان محطة في طريق الحج ، ويستعمله البدو اليوم احياناً اسطبلا لجمالهم وماشيتهم.

والسهل المنبسط بين شوبك والحصن يقطعه « وادي نَجِل » من الغرب الى الشرق .

بعد ساعة ونصف الساعة من اطلال الحصن وصلنا الى مضارب احدى

(*) – لم نقع على قرية في ذلك المكان اسمها جربى . وانما هي «جبة» . ونرجح انها طبعت « جربى » خطأ لتشابه حرفي الياء والراء الكبيرين في اللاتينية . أنظر ما جاء عنها في ملحق الاستدراك والتعقيب تحت رقم ٧ .

(**) – ERDEKUNDE ج ١٣ ، ص ٣٨٠

أقوى عشائر الحويطات ، اولاد ابن جازي . وهذه الطريقة في تسمية البطون والعشائر تستعمل كثيراً بين البدو الذين هم اليوم في درب الانحطاط ، ولا تستعمل أبداً في الصحراء . وكذلك لم يذكرها نسّابو العرب .

٧ من نوار (مايو) — مشينا ساعة وثلثي الساعة في اتجاهٍ شماليٍّ شرقيٍّ في الصحراء فوصلنا الى تلة منخفضة اسمها « شجرة التيّار » فيها آثار مساكن عتيقة تدل عليها اطلال اسوار ومنازل صغيرة من آجرّ ، وفي الارض اثلام كأنها من صنع محراث تشير الى ان التلة كانت تزرع ولا تزال ، مع اني لم أر حقولا مزروعة حديثاً . وتابعنا السير ساعتين وثلاثة ارباع الساعة وترجّلنا في مضارب اولاد « بن ثِيـّاب» ، وهم عشيرة من الحويطات يحملون اسم شيخهم .

٨ من نوار (مايو) — وصلنا بعد ثلاث ساعات فقط الى خيمة ابن جازي رئيس شيوخ الحويطات في هذا الجزء من جبال الشراة . وابن جازي هو ابن عم حسين بن جازي الذي يحكم عشائر الحويطات الضاربة في جوار العقبة وحتّى الوجه ، وعلى طول شاطىء البحر الاحمر . وعلى نصف ساعة من مضارب ابن جازي يقيم الشيخ مقبول زعيم قبيلة العمران الوثيقة العرى بالحويطات حتّى ان البعض يحسبونها منهم .

وعلى نصف ساعة آخر ، الى الشمال ، استضافتنا عشيرة المسعوديين في خيامها ، وهي من قبيلة « الحجّايا » ، وشيخها اسمه سليم بن عاقر . وعلى ثلاث ساعات من هذا المكان يقيم فرع آخر من الحجّايا هو فخذ المغاري ، وشيخه اسمه عبد الله بن حويشد ، نزلنا عنده يوماً واحداً .

وعلى نصف ساعة من هناك نزلنا في خيمة حسين الصَوَى (*) ، وهو

(*) – كتبها ALSAWA

على حداثته (١٨ عاماً) الشيخ الاعلى والرئيس لقبيلة الحجّايا العديدة الفروع . وهذه المحلة تبعد ثلاث ساعات الى الشرق الجنوبي عن قرية الطُفيلة التي تقول الحجايا انها تملكها وتحميها لقاء « خوّة » يؤديها الاهلون لها . وتقيم القبيلة اكثر ايام السنة في هذا الجوار ، وعندما تنتقل في الربيع الى نواحٍ بعيدة عن الصحراء يسمح لمعظم شيوخها ولأقوى رجالها بان يشغلوا المخازن فيضعوا فيها خيامهم الكبيرة وامتعتهم ومؤنهم التي يستغنون عنها .

اسم الشراة يطلق هنا على الجبال التي سرنا في منحدراتها الشرقية بعد انطلاقنا من معان . اما في نجد فيطلق احياناً اسم جبال العوارض على كامل السلسلة . وسكان المنطقة يحصرون اسم الشراة بالسلسلة الرئيسية الممتدة من وادي اللِيثم شمالا حتى سورية . ويدعى القسم الجنوبي من السلسلة حتى الحجر والوجه « جبال الشفا » او جبال التهامة . وبدا لي هنا — وقد اشرت اليه غير مرة — ان هذه السلسلة تنحدر انحداراً قوياً ، وغالباً عمودياً ، نحو البحر الاحمر والعقبة ووادي العربة ، بينما هي تنحدر في الشرق تدريجاً وتتلاشى في الصحاري الرملية في وسط البلاد .

ان أكثر جبال الشراة غرانيتية قاحلة عارية ، وبعضها من صخور جيرية فيها ماء وتكسوها طبقة من التراب لو عُنيَ بفلاحتها عناية احسن لبلغت خصبَ اجزائها الشمالية التي في فلسطين . وفي الجبال هنا تبدأ المغاور والكهوف التي تكثر في جبال فلسطين . والبدو يستعملون في الغالب هذه الكهوف ، على صغرها ، منازل لهم أو زرائب لقطعانهم ، وهي قليلة بالنسبة للكهوف المنتشرة في المنطقة الشمالية . ويؤكد السكان ان المسيحيين في الماضي كانوا يقطنون هذه الجبال . وكانت وقتئذ حقول الذرة وبساتين الفاكهة والكروم تغطي الارض . ولا تزال آثار واضحة في جميع الانحاء تشير الى ازدهار الزراعة القديمة وتثبت رواية السكان . والنباتات البرية كثيفة وعديدة الانواع . وفي

الاودية والتلال تكثر المراعي الجيدة بين شجر الشيح وهو الشجر الذي يحب البدو خشبه وقد تغنّى به الشعراء القدماء . وجوّ الجبال الشامخة تعطره روائح الاعشاب فتجعل هواء الشراة من أفضل ما تنشقته من هواء . وهو صحي جداً يزيد في نشاط السكان ذوي الاجسام القوية والمملوءة عافية .

إلى قبائل الحويطات والعمران والحجّايا – وهي تؤلف اهم قبائل هذه النواحي من جبال الشراة – صادفت عدداً كبيراً من عشائر الشرارات وقد فرّت من موطنها في وادي سرحان لاجئة الى هذه الجبال خوفاً من الشمّر الذين اخذ نفوذهم يمتدّ تدريجاً وكانت غزواتهم في تزايد مستمر . وصادفت ايضاً عائلات من بني صخر تقيم موقتاً في رحاب الحجّايا . وفي اماكن اخرى لقيت عائلات فقيرة من عرب معازه .

ان الحويطات والحجّايا هما بلا شك اكبر واقوى قبيلتين في هذه الانحاء . والقبائل الأخرى المختلطة بهما قليلة الاهمية ، نسبياً ، وقد انصهرت كلياً فيهما . وافخاذ الحويطات التي تضرب في هذه الانحاء تعتبر اقوى واشرف فروع القبيلة اطلاقاً . ويصح القول ان الحويطات يملكون المنطقة الجبلية المؤلفة من جبال تهامة والشراة ، والاراضي المنخفضة التي على ساحل البحر الاحمر ، ووادي العربة ، من ميناء الوجه حتى الطُفيلة .

ان تقديري للحويطات دفعني الى البحث والتقصّي بتدقيق لمعرفة منشأهم ، فسألت افرادهم وسألت البدو الآخرين وسكان المدن واتفق الجميع على ان الحويطات تحدرت من الفلاحين والقرويين الحَضر . ولم يستطع احد اعلامي متى نزحت هذه القبيلة الى الصحراء وما هو سبب استبدالها بالحياة الحضرية المستقرة حياة البداوة . والكتّاب العرب لا يذكرون اسمها . وافرادها يختلفون في عاداتهم وملامحهم ولغتهم اختلافاً كثيراً عن عرب الداخل وعن عرب « الطوَرة » المقيمين في شبه جزيرة سيناء ، كما يختلفون عن افراد القبائل

المجاورة ، واساريرهم — على ما لاحظه بركهاردت [١٠] — شبيهة بأسارير المصريين حتى انها لتنبيء فوراً بأنهم نزحوا من مصر .

ولا مشاحة في انه يندر ان عرباً تحضّروا واقاموا في ارض زراعية خصبة يعودون الى الصحراء والى حياة البداوة . ولكن صدف ان شاهدت بنفسي عودة كهذه : ففي أثناء اقامتي في ربيع ١٨٤٨ عند بني عقبة ، في ضواحي المويلح، صادفت رجلا منهم ولد في قرية مصرية في « الشرقية » ، نزح ابواه اليها ، فنشأ الطفل فيها بين الفلاحين واخذ عنهم لهجتهم ومظهرهم حتى لصارت تصعب معرفة أصله البدوي . وحين لقيته كان في سبيله الى انسبائه البدو الرحّل لاجراء اللازم كي يرجع بعائلته من القرية المصرية ويعيش في الصحراء . وصادفت حوادث مماثلة في بلاد ما بين النهرين (العراق) : فقد غادرها عديدون من بني شمّر بعد ان عاشوا فيها طويلا وعادوا الى موطنهم الاول في نجد .

ومن المحتمل ان الحويطات هم بقايا قبيلة عربية قديمة نزحت الى مصر وتحول افرادها الى فلاحين ، او انهم ، في الارجح ، من مزارعي وادي النيل الاصيلين ، وقد دفعتهم احداث سياسية الى مغادرة بلادهم واللجوء الى جبال الشراة المنيعة . ان اسمهم ليشير الى اصلهم الفلحي ، او القروي : فكلمة حويطي تعني « ساكن الحيط » ، اي البيت ، وهي تتوافق وتسمية « اهل الحيط » التي يطلقها البدو على سكان المدن في جميع بلاد العرب ، في حين انهم يسمون انفسهم بالبدو ، اي الرحّل ، او بأهل الشَعر ، اي سكان الخيام . وعلى كلّ فان القسم الاكبر من القبيلة لا يزال يعيش في مصر عيشاً نصف بدوي ونصف زراعي . والبدو الحقيقيون المقيمون الى الشرق من جبال بلاد العرب يذكرون الحويطات بازدراء ، على عادة البدو في كلامهم على الفلاحين . [١١]

ان الحويطات ، باستثناء بعض الاسر المقيمة في جوار الطفيلة ، تخضع

لوالي مصر وتتحمل حكمه راضية ودون تذمّر . وابن شديد هو كبير شيوخ الحويطات النازلة في مصر ، وهو يقيم اكثر السنة في العاصمة تحت مراقبة الوالي مباشرة . وقد منحه هذا أملاكاً واسعة في الشرقية (*) .

والحويطات المصريون وقفوا انفسهم للزراعة . اما الرحّل فيعملون فيها دون تردد متى استطاعوا اليها سبيلا . وهؤلاء (الرحّل) على صداقة بمختلف فروع قبيلتهم ، وبالبدو الآخرين المتنقلين في سلسلة جبال الشراة وفي الغرب منها ، كقبائل التياها والطّوَراء والمعازه التي تقيم عائلات منها في الصحراء بين عربة وغزّة .

في اواخر سنة ١٨٤٧ نشب نزاع بين شيخي قبيلة بني جازي بسبب سرقات ابل صغيرة اقترفها افراد من الحويطات يسكنون العقبة وكادت الحرب تندلع طويلا بين ولدي العم ولكن سرعان ما تصالحا بتدخل قبيلة « العلاوين » المحايدة بعد ان تناوشا وتبادلا غزوات وسرقات طفيفة رمزية .

ان الحجّايا عامة على عداء مع التياها . ولهذا لا يجرؤ الادلاّء من التياها الذين يعملون مع المسافرين على ان يدخلوا « الخليل » الا خلسة .

وجميع هذه القبائل على عداوة مع عنزة ومع العربان الذين في الجانب الشرقي من الجبال . فهي تهاجم عنزة حتى في عقر دارها . وفي مقامي بوادي دلاغة عند بني عمران كنت ارى دائماً فرساناً من عنزة متربصين في الجبال القريبة لينقضوا بين ساعة واخرى على المقيمين في جوار نبع «بسطة» . وقبل قدومي بقليل نشبت معركة بين الحويطات والرولة بسبب المرعى فقدت فيها ارواح وخيل كثيرة .

واذا استثنينا البطون المقيمة في جوار الطُفيلة ، فان القبائل الاخرى لا تغزو

(*) — هؤلاء الفلاحون يقطنون اليوم بالقرب من طنطا .

القبائل المعادية لها لان ليس فيها صفات البدو الاصليين . اما الفلاحون المساكين الذين يعيشون بين البدو في جبال الشراة وقبيلة هتَيم الفقيرة المكافحة في صيد السمك على شاطىء البحر الاحمر لاجل لقمة العيش فيشعرون بوطأة تلك القبائل وتسلطها عليهم ويجبنون امامها مما يتناقض وخصال ابناء البادية الحقيقيين ومروءتهم .

ويبدو أن عرب الحجّايا اصفى اصلا من سواهم ، وملامحهم واخلاقهم وسلوكهم اقرب الى ميزات البدو الحقيقيين من اية قبيلة اخرى في هذه المنطقة وذلك على الرغم من ان الكتّاب العرب الذين سنحت لي الفرصة لمراجعة مؤلفاتهم يجهلون اسمهم . ويبدو ان هذه القبيلة غنية عظيمة لكثرة ما تملكه من الخيل ، فالخيل في البداوة مقياس للقوة والغنى . وتغزو الحجّايا غزوات كثيرة في داخل الصحراء وتبيع الغنائم التي تحصل عليها بسهولة في المدن المجاورة . اما خيولها فمرغوبة كثيراً في سورية ومصر .

وبالاضافة الى الرحّل ، يقيم في هذه الجبال عدد كبير من البدو الفلاحين الذين يعنون بزرع الذرة ، ويزرعون احياناً الكرمة وشجر الفاكهة حيث الماء يكفي لجعل التربة منتجة . وهم يعيشون في خيام ، باستثناء نفر قليل منهم يسكن وادي موسى ، وينقلون مضاربهم من مكان الى آخر وفقاً لمتطلبات الزراعة والمحاصيل ، او للحاجة الى المراعي . وبدو الجوار يزدرونهم ويسيئون معاملتهم ويرغمونهم على دفع « خوّة » باهظة لا تردّ عنهم تأدية اتاوى مختلفة اخرى . ومراراً شاهدت البدو يقودون بغطرسة خيلهم وابلهم في حقول الذرة غير المحصودة ويطلقونها فيها لترعاها دون اي رادع . وعلى رغم من كون هؤلاء الفلاحين مزارعين مسالمين فهم يحملون دائماً سلاحاً اسوة بسواهم من العربان ، ويشتركون احياناً في النزاع والغزو مع اخوانهم البدو . وعددهم القليل ، وعجزهم عن مناهضة مضطهديهم وشهر السلاح

عليهم ، كما يفعل الفلاحون السوريون ، هذا كله يجعلهم يخضعون بصمت لاستبداد البدو المتسلطين عليهم .

واثناء وجودهم في الخيام يقوم الفلاحون باعمال يدوية،بعضها ترميم اسلحتهم ، وصنع اوانٍ واثاث ، لديهم منها اكثر مما يحوزه البدو . وعلى رغم من قلة قطعانهم ، ودخلهم ، ومن سوء حالهم الى حد ما ، لقيت في بيوتهم وسائل للراحة ورغداً اكثر مما في بيوت اسيادهم . وعندهم شعور ديني قوي ، ورغبة في تعلم فرائض الدين وتعاليمه اكثر من سكان الخيام . ولما كنت متلبساً بثوب شيخ مسلم عالم (*) فقد كانوا يستعلمون مني عن امور الدين باهتمام ، والى كونهم يختلفون عن جيرانهم الرحل في عاداتهم ومشاعرهم فان هيئتهم تدل على أصل مختلف : ذلك ان سحناءهم سورية تطغى عليها في كثير من الحالات ملامح يهودية بارزة (كذا) وأرى انهم بقية من السكان الاصليين ، من يهود قدماء ، او من انباط . ويؤسفني اني لم اقع على معلومات كافية عن هذا الموضوع لدى الكتّاب العرب ، وكذلك لم استطع اثناء مقامي القصير بهذه الجبال ان اجمع حقائق تساعدني على البت في الامر . (**)

وهنا (في جبال الشراة) تنتهي حدود الوهابيين وينتهي سلطان زعيمهم ابن سعود (***) الذي يعمّ نفوذه شمالي بلاد العرب ونجداً ، ولكنـــه لا

(*) — قال بالانكليزية Learned

(**) — يكرر المؤلف في مختلف المناسبات قوله انه لم يجد ما يطلبه عند « الكتاب العرب » . وهو قول ضعيف اذ ان الكتب التي وصل اليها فالين — او انه استطاع الوصول اليها — ليست هي « جميع » المؤلفات العربية التي تسد حاجته ، ولا هي نصفها .

(***) — كان زعيم الوهابيين وحاكم نجد يوم رحل فالين رحلته هذه الأمير فيصل بن تركي آل سعود ، وهو الجد الثاني لجلالة الملك فيصل بن عبد العزيز (أي جد جده لأبيه).وقد =

يتخطى جبال الشراة ، فسكان هذه الجبال ، رحّلاً وفلاحين ، لم يُكْرَهوا على تأدية الزكاة ، ولا ارغموا على اعتناق الوهابية . وبدو المنطقة ، ومنهم الحويطات خاصة ، يجهلون كل الجهل امور الدين كلها ، ولا يكترثون لما يوجبه عليهم ، وهم في هذا مثل اكثر اهل البادية . اما الفلاحون فيأتون الشعائر ظاهراً ، كالوضوء والصلوات الخمس وصيام رمضان ، ويعلنون انهم يتبعون مذهب ابي حنيفة السائد في جميع سورية ، ولكنهم يجهلون التعاليم الاساسية ويفتقرون الى معلمين يلقنونهم اصول دينهم ويشبعون رغبتهم بهـا .

ان المعلومات التي في المؤلفات العربية عن هذه الارض قليلة . ولكنها على قلتها تؤكد كلها ما يزعمه السكان الحاليون ان المنطقة في الماضي كانت اكثر ازدهاراً واخصب زرعاً ، فانهم يصفونها بانها ارض غزيرة المياه ، تكثر فيها الاشجار والفاكهة ، ولا سيما الكرمة وقصب السكر ، وزراعتها ناجحة . ويؤكد كل منهم (من الكتّاب العرب) ان الفلاحين في زمانه كانوا يسكنون المنطقة ، مما يستنتج منه ان البدو لم يسيطروا عليها الا من مدة قريبة ، وذلك لان المزارع المسالم لا يستطيع النجاح في ارض يسيطر عليها البدو الرّحل .

وقلت آنفاً ان السكان الحاليين يطلقون اسم « الشراة » على القسم الشمالي وحده من سلسلة الجبال ولكن بعض الجغرافيين القدماء اطلقوه على كامل

= ذكره أمين الريحاني بالخير والتقدير في كلامه عليه فقال : «... حكم فيصل حكما عربيا سعوديا ، مثل ابني عمه عبد العزيز وسعود ، فأقام العدل ، وعزز الامن ، وأعاد إلى نجد شيئا من اليسر وسالف المجد ، بل إلى ما وراء نجد : فقد بسط سيادته على الشطر الاكبر من شبه الجزيرة ، فدانت له الاحساء والقطيف ووادي الدواسر وعسير والجبل والقصيم . دانت له حبا لا كرها . الخ ... » — « تاريخ نجد الحديث وملحقاته » ، ص ٨١ (ط ١) .

السلسلة من اليمن الى سورية. وبالاضافة الى المدن والقرى التي ما تزال موجودة، والتي ذكرها المؤلفون العرب في كتبهم ووصفوها وصفاً مقتضباً ، هنالك كثير من المدن والقرى ذكرها اولئك الكتّاب ، لم يبق منها سوى خرائب تحمل في كثير من الاحيان اسماء جديدة تختلف عن القديمة الاصلية . ويذكر المؤلفون العرب فيما يذكرون قرية الحُمَيْمة[١٢] ويقولون انها قبالة الشوبك على مسيرة يوم واحد منها ، في الجانب الغربي من وادي موسى ، وربما كان هذا المكان هو قرية « الجي » الحالية التي ليس اسمها شائعاً — اذ يطلق اسم وادي موسى على هذه المنطقة — ومن المحتمل ان اسمها هو اللفظ العربي للكلمة اليونانية (GEA) التي قال عنها استيفانوس بيزنطيوس انها مدينة قرب البطرا (بترا) . وفي « الجي » قيل لي إن الفلاحين يروون حقول الذرة والكرمة بمياه فاترة نتنة ، ما ان تركد في البرك حتى تتصاعد منها ابخرة فاسدة وغير صحية ، وكثيراً ما تسبب حميات للاهلين . وأحياناً يلجأ السكان الى هذه المياه ، والى المياه الحارة والكثيرة في الجبال ، للاستشفاء ولمعالجة العلل المختلفة علاجاً يشفي في بعض الأحيان .

١٨ من نوار (مايو) — انطلقنا من آخر مخيم للحجّايا ، يرافقنا ثلاثة من الشرارات تركوا عيالهم هنا ، حيث يسكنون منذ عدة سنين ، ليقودوا الى الجوف اربعة جمال محملة صوفاً . فسرنا ساعة في وادٍ ينحدر الى سفح الجبل حتى نفذنا الى بادية الشام المترامية الاطراف . نحن هنا في طرف السهل ، في الحدود التي تفصل بين الجبال والبادية ، على مسافة اربع ساعات الى الجنوب الشرقي من قرية الطُفَيلة . ثم سرنا في الصحراء الى الشرق عبر أشد البقاع التي شاهدتها إقفاراً وجَدْباً . ان سطح البادية تغطيه الحصى ، لا النبات ، وهذه الحصى قد تلمع من اشعة الشمس فيبدو لونها داكناً احياناً ، ويسطع مبيضّاً ويؤذي العينين في حين آخر .

وسرنا بسرعة عظيمة اربع ساعات ونصف الساعة فشاهدنا قلعة الحسا على بعد ساعة الى الشمال منا. والحسا محطة في طريق الحج فيها بئر وحامية لا يتجاوز عددها بضعة رجال. واكد لي رفقائي ان ماء البئر رديء جداً.

وبعد خمس ساعات أخرى من السير شرقاً، في أرض مماثلة، اتينا بركة ضحلة، ولكنها واسعة ومياهها من الامطار، يقال لها بركة «باعج»، وقد تكون هي البركة المدرجة في الخارطة باسم «بائر»، في وادٍ مسطح تربته رملية تتجمع فيه مياه الامطار، وهذه تعطي الحياة لبعض خضار وشجيرات. والبركة يبقى ماؤها طوال أيام السنة فيما اذا هطول الامطار كان غزيراً في الشتاء، وفي غير ذلك يجف منذ اولى ايام الصيف. ولما اتينا البركة وجدنا الماء فيها كثيراً وموحلا يصعب شربه.

١٩ من نوار (مايو) — غادرنا البركة بعد ان حسبنا انفسنا محظوظين بملء قربنا من مائها الذي تعافه النفس. وسرنا قليلا في الوادي، ثم في ارض قفراء يمرّ الوادي عبرها. وبعد اربع ساعات وثلاثة ارباع الساعة من مغادرتنا البركة مررنا بسلاسل تلال جيرية منخفضة. ولم نتوقف للمبيت الا بعد ساعات ست أخرى.

٢٠ من نوار (مايو) — سرنا خمس عشرة ساعة متواصلة في البادية عينها. وهذه البادية، على الرغم من قحطها، تتخللها هنا وهناك اثلام (خطوط) من الرمل اوجدتها السيول، وقد نبتت فوقها اعشاب صحراوية رديئة النوع قد جفت، فاستعملناها وقوداً لاعداد طعامنا القليل.

٢١ من نوار (مايو) — سرنا اربع عشرة ساعة ووصلنا عند المغيب الى آبار صُدَيْع فلقينا ماءها مالحاً مرّاً ما كان ليروينا مع اننا في ظمأ منذ ثلاثة ايام. وقال البدو ان المياه هنا كانت جيدة عذبة الا ان خلوّ الجوار من الرحّل فلا يأتي أحد كي يستقي، والمياه لا منفذ لها، جعلها تركد وتأسن.

أضف الى ذلك ما تنقله الرياح من الصحراء المحيطة بالمكان من الغبار المالح .

٢٢ من نوار (مايو) — بعد اربع ساعات من انطلاقنا اتينا بعض الآبار الأخرى وهي آبار « أُويسط » التي لا يختلف ماؤها الا قليلا عن ماء صُدَيْع . ولكن للارض هنا مظهراً يختلف اختلافاً كاملا عن مظهرها هناك . فالتربة الاولى جبلية صلبة تتخللها الحصى الدكناء ، وقمم عارية منعزلة فوق تلال ٍ رملية جيرية ، ترتفع في بعض الاماكن ، وفيها نبت ضعيف ، في حين ان الارض تغطيها ، ابتداء من هنا ، رمال ناعمة كثيفة تتماوج في تلال ٍ صغيرة يكثر ، نسبياً ، فيها النبت الاخضر .

ان الجغرافيين العرب يطلقون اسم « الصحراء السورية » (بادية الشام) على البقعة المترامية التي عبرناها ، وعلى تكملتها الشمالية الممتدة بين سورية وبلاد ما بين النهرين (العراق) . اما اسمها الروماني **ARABIA PETRAEA** (العربية الحجرية) الذي ينطبق على ارضها الحجرية فلم اجد كلمة تؤدي معناه في المؤلفات العربية القديمة والحديثة . ويجوز القول عن هذه الصحراء انها شبيهة بوادٍ عظيم يبدأ في سهل دمشق ويترامى الى تيماء فيندمج في سهل آخر ينبسط على السفح الشمالي الغربي لسلسلة أجأ . ان هذا الوادي —الصحراء— تحده غرباً جبال الشراة حتى حِجْر ، ويحده شرقاً وادي السرحان الذي تقع آبار أُوَيسط على جانبه . اما جنوباً فتحده ارض النفود التي تنتصب كاسوار رملية فوقه . ولا تحمل هذه الصحراء في ايامنا اسماً واحداً بل ان لكل جزء منها اسماً هو في كثير من الاحيان غامض المعنى . والجزء الذي قطعناه في رحلتنا هذه اسمه « بُسيطة » وقيل لي ان السَمْح ينمو فيه .

نادراً ما يجوب البدو صحراء سورية وذلك بسبب قحطها ويبابها الكاملين . وإنْ أتوها فأيامهم فيها قصيرة. ويصادَف احياناً بعض من الشرارات الذين يعيشون في وادي السرحان ، وهم في طريقهم الى معان وجبال الشراة . والى

الشمال منهم ينتشر بنو صخر حتى الكرك . اما في الاجزاء الجنوبية حيث تتسع الأودية وتزيد خصباً فافخاذ من عنزة، كـ «الفُقْراء» و«ولد سِلمان» ، تضرب خيامها احياناً لبضعة أيام .

ان انحدار هذه البقعة هو الى الجنوب والجنوب الشرقي ، على ما يرى من مجاري الاودية والجداول الشتوية وطريق الحج السوري . وهذه الطريق تنحدر من دمشق الى حِجْر دون ان تصادف ، حسب علمي ، اية شعاب او هضاب . وسرنا من آبار اويسط ، في اتجاهٍ شرقي – جنوبي شرقي، في وادي سرحان ، سبع ساعات ونصف الساعة قبل ان نتوقف للمبيت .

٢٣ من نوار (مايو) — سرنا طوال اثنتي عشرة ساعة في اتجاهٍ شرقيّ – جنوبيّ شرقي ، وقبيل انتهاء النهار مررنا بسلسلة منخفضة من الجبال الصخرية الرملية ، وقال لي مرافقي ان في هذه الامكنة آباراً عديدة وبِركاً كثيرة ، وانه لولا شحّ المطر في هذا الشتاء المنصرم لمررنا في كل نصف ساعة بمضارب للشرارات ، إلا أنا لم نلتقِ احداً منهم طوال الرحلة . وقد بتنا تلك الليلة قرب « بئر صُبيحة » فوجدنا حولها خضرة نضرة وشجيرات من النخيل واعشاباً صحراوية منوعة . ونَمَت هناك ايضاً نخلة يقال انها تثمر رغم ان احداً لا يعنى بتلقيحها .

٢٤ من نوار (مايو) — تابعنا مسيرنا في الاتجاه السابق على طول سلسلة من الجبال المنخفضة اسمها « العُضيري » كانت الى يسارنا . وبعد احدى عشرة ساعة ونصف الساعة دخلنا وادي «الخلا» في تلك الجبال وسلكنا مجراه شرقاً ساعتين اخريين .

٢٥ من نوار (مايو) — نفذنا بعد نصف ساعة الى منبسط قاحل تربته حجرية صلبة تشبه ارض الصحراء السورية وقطعناه متجهين شرقاً الى جنوبٍ شرقي في ست ساعات ، وأتينا منه الى سلسلة جبال « جال

الجوف» (*) التي تحيط بالوادي الدائري الشكل حيث مدينة الجوف[١٣]. وبعد ساعة ونصف الساعة من السير في اعلى السلسلة نزلنا الى قاع الوادي المدعو « البَطين »، وقد بلغ مجموع سيرنا من آخر مضرب للحجّايا (وهو يبعد اربع ساعات الى الجنوب الشرقي من الطفيلة) ثلاثاً وخمسين ساعة عبر بادية الشام الى آبار أويسط حيث يبدأ وادي السرحان . وبلغ اربعين ساعة ونصف الساعة من هذه الآبار الى الجوف . ويجب ان اشير إلى أن سيرنا كان سريعاً جداً مع أن جمالنا محمّلة ، وقد استوى سطح الارض في أكثر الأحيان وهذا مما سهل سيرنا، وكانت جمالنا من ابل الشرارات ذات العِرق الجيد، وهي قوية وحسنة التغذية .

اخبرني البدو أن وادي السرحان الذي اجتزنا قسماً منه يبدأ على ساعتين الى الجنوب من دمشق ، ويتتابع الى محلة تبعد يوماً واحداً عن الجوف الى الشمال ، فتعترضه جبال « جال الجوف » ويجوز أن يقـــال عنها انها ، على مسمّاها ، جوف القسم الشمالي من الجزيرة . ويمتد الوادي على جانبي السلسلة حتى يصل الى النفود والدهناء ، في الجهة الجنوبية من الجوف . ولا يجوز عدّ وادي السرحان وادياً منتظماً على ما رسموه في خرائطنا ، فهو انخفاض في الارض تعلوه ربىً رملية ناعمة ، وارضه تشبه ارض النفود ، الا ان تلال النفود تمتاز عنها بأنها اعلى ارتفاعاً وأعظم قاعدة . ويخيل اليّ ان تلال السرحان الرملية تكونت من فعل الرياح التي قذفت برمل الصحراء وجمعته في أكوام حول جذور الشجيرات ، فأخذت الاكوام تكبر تدريجاً مع الزمن وصارت تلالا وجبالا . واذا هطل المطر بغزارة جعل هذه المحلة اكثر أراضي الصحراء

(*) — لم نعثر على هذا الاسم في « معجم البلدان » .

خصباً . وقد رأيت الاعشاب والشجيرات تكسوها . وعبثاً حاولت الحصول على أية معلومات عنها في كتابات الجغرافيين العرب ، بل اني لم أجد اسمها فيها . وأظن أنهم حسبوها في الماضي جزءاً من الدهناء ، وأن اسمها الحالي لم يطلق عليها إلا مؤخراً (*) .

ان وادي الجوف دائري الشكل تقريباً ، تحيط به سلسلة « جال الجوف » ذات الارتفاع المتساوي . وهذا الارتفاع يقارب خمسمائة قدم فيما اذا قيس من السفح . و « جال الجوف » جبال صخرية رملية تنحدر عمودياً الى الوادي وتغطيها الرمال بعض الاحيان في حين انها تلتصق تدريجاً ، من الجانب الآخر ، بتلال الدهناء الرملية . وفوق قمم السلسلة ، الى الشمال الشرقي ، ترتفع هضبة الحمّاميات وتنفتح السلسلة الى الشمال الغربي في شِعب يطلق عليه اسم « الفأو » (**) فيه ممر يوصل الى سورية . وتعترض الشكل الدائري في الغرب قمم معزولة ومتساوية الارتفاع تتفرع من السلسلة وتتصل بجبل كلسي آخر أقل انخفاضاً ، ثم تنحدر تدريجاً الى مركز الوادي فتنتهي في الرمال . وبلدة الجوف هي في آخر منحدرات الجبل الكلسي ، في بقعة نصف دائرية الشكل ، يبلغ طول قطرها من الغرب الشمالي الغربي الى الشرق — الجنوبي الشرقي حوالى ٣٥٠٠ خطوة .

وفي مركز نصف الدائرة هذه تنتصب « قلعة المارد » القديمة مواجهةً للشمال فوق حرف من الجبل الكلسي ، وتطل على الجوف والوادي بكامله . وهي خربة خالية من السكان ، تبدو وكأنها مركز البلدة فقد شيدت حولها الأسواق والأحياء .

(*) — حاجي خليفة ذكر الجوف في كتابه « جيهان نامه » .

(**) — كتبها بالانكليزية AL FA'W

ان قطر الوادي ، من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، وهو اطول قليلا من قطره في الاتجاه الآخر ، يبلغ حسب تقديري حوالى ثلاثة أميال انكليزية (*) . اما التربة فرملية صلبة ، ومجدبة في الغالب. وكلما ابتعدنا عن الجبل الكلسي ازدادت التربة مَحْلا،ذلك لان الينابيع هي في الجبل ، والآبار تحفر فيه .

ان اكثر بيوت الجوف مشيدة بالطيْن المجفّف بالشمس (اللبِن) ، والمصبوب في قوالب مستطيلة الشكل، طول الواحد منها ثماني بوصات (**)، وعرضه أربع تقريباً ، وعلوه بوصتان . وكل حيّ في الجوف يحيط به سور من اللبِن يفصله عن الاحياء المجاورة له . والبيوت داخل السور قائمة من غير ترتيب ، تفصل بينها في الغالب بساتين صغيرة وحفر عميقة نشأت من جرّاء الحفر في الرمل لاستخراج الطين . والاسواق ضيقة غير متناسقة ولا مرصوفة. وفي كل حي ساحة ينيخ فيها الغرباء جمالهم، وكذلك يحطّون رحالهم فيما اذا لم يكن لهم اصدقاء او من يعرفونه من الاهلين . واهل الحي يجتمعون في هذه الساحة ايضاً قبيل المغيب ليبحثوا في أمورهم .

واكثر المنازل فيها غرفة مستقلة عن البناء الرئيسي يسمونها « غرفة القهوة » يستضيفون فيها الغرباء . وفيها يتناول الضيوف الطعام والقهوة . والبساتين ومزارع النخيل بعيدة عن البيوت وتمتدّ في سفح الجبل الكلسي ، وتتتابع الى اعماق الوادي . ولكل بستان سور خاص به يفصله عن البساتين الاخرى . وبين الاسوار ممرّات ضيقة يستعملها المالكون للتنقل وتُستعمل ايضاً ليلا ونهاراً اقنيةً لجرّ المياه من الينابيع الى المزارع . ويخصص بكل بستان عدد من الساعات،

(*) — الميل الانكليزي يبلغ ١٦٠٩ أمتار

(**) — البوصة كيل انكليزي يبلغ سنتيمترين ونصف السنتيمتر تقريباً .

بالنسبة الى مساحته ، يجر فيها الماء اليه ، وهذه الحصة تحددها في النهار مواقيت الصلاة ، وتحدد في الليل بواسطة النجوم . غير ان هذا الري لا يكفي المزارع كلها فحفرت في البساتين آبار لتمدّها بما تحتاج إليه من مياه . اما العثور على الماء في هذا الوادي فسهل ولا يتطلب استخراجه الحفر العميق كما هو الحال في الجوار ، فأعمق الآبار فيه لا يتجاوز عشر قامات . وبالاضافة الى النخل المثمر الذي يبدو متأصلا هنا ، ينمو في الجوف اكثر الاشجار المثمرة المعروفة في البلدان ذات المناخ المماثل ، وإنْ بكميات قليلة ، كالتين والمشمش والاجاص والبرتقال والعنب الخ ... اما الرمان الكثير النمو في القرى القائمة على طول طريق الحج السوري وفي نجد ، فلا تنجح زراعته هنا . وزراعة الخضار قليلة جداً وهي أقل بكثير منها في نجد . وتزرع الذرة بين الأشجار في البساتين ويكاد محصولها يكفي حاجة زارعيها ، وهذا أمر نادر في قرى الصحراء .

وبلدة الجوف يعدّها السوريون اول محلة في نجد ، ولهذا يطلق عليها احياناً اسم «باب نجد». اما النجديون فيعدّونها في سورية . ولم اسمع ابداً عرب هذا الجوار يقرنون اسمها بكلمة السرحان (على ما ذكره نيابوهر[١٤] زيتسن[١٥]) .

وتتألف البلدة من اثني عشر حياً تسمى « أسواقاً »، وينتسب سكانها الى قرى وقبائل جد مختلفة . وتسودهم العادات والطباع والملامح السورية ، كما تغلب الهندسة السورية على منازلهم . وفي المزارع تستعمل طرق الفلاحة والزراعة السورية . والجزء الأقدم من الاهلين من اصل سوري جلي ، ومن العدنانيين . وفي بعض الاحياء اناس نزحوا الى الجوف متأخرين . ويلاحظ ايضاً ان اتصالهم بسورية أنشط من اتصالهم بالعراق . وان التجار الذين يؤمون الجوف هم التجار السوريون وحدهم ، والحال في نجد عكس هذا حيث يندر ان تصادف تاجراً سورياً .

فيما يلي أحياء مدينة الجوف ابتداء من جهة الغرب :

الحي الأول : **الغرب** ، ويقسم ستة أقسام اسمها : أشوان (عشوان ؟ أصحوان ؟) (*) . ابن حسيني . صنّاع المرعي (**) . الجفرية . عين ام سليم . ابن قَعَيِّد . وهي قرية بعضها من بعض ، وتقع في الطرف الشمالي الغربي من الوادي ، ويقطنها حوالى مئة اسرة تنحدر من شَمّر وتحمل اسم « حَمُولة المُناصبة » ، ويقيم اكثرها في «ابن قعيّد» (اكبر سوق في الحي) وفي « الجفرية » و « ابن حسيني » . وسكان « اشوان » اصلهم من الروّلة الرحّل من قبيلة عنزة . وسكان « عين ام سليم » من عرب سرحان . وفي « صنّاع المرعي » يقيم الحرفيون الذين نزحوا من سورية وبلاد العرب. ويبدو أن حي « الغرب » هو أحد أحياء المدينة الحديثة .

الحي الثاني : **الدرْع** ، أو سوق ابن الدرع . وهو أقدم أجزاء البلدة . فيه بناء عتيق من حجر منحوت يقال ان الخليفة عمر حوّله الىمسجد(***) وان ابن سعود رمّمه في بدء الدعوة الوهابية . وفي قرب المسجد تنتصب مئذنة غير متصلة به ، وهي المنارة الوحيدة في البلدة ، بنيت على قوس باب الحي . وقد تكون « البرج المربع الرائع المبني بحجارة ضخمة وعريضة» ،والذي ظن ريتر (بالاستناد الى يوسف الملكي مرجع زيتسن) انه مسلّة ، او قد تكون أيضاً ما ذكره بوركهاردت انها أحد « الاهرامات » التي أخبره عنها في حلب رحّالون أتراك وقالوا له إنها موجودة في الدرعية . ولكني لم أجد هذا البناء خارقاً ، فهو باب مثل سائر الابواب التي تستخدم

(*) – كتبها بالانكليزية : Ashwan

(**) – Sinna' Almar'y

(***) – نقل فالين هذا القول على سبيل الرواية

في الشرق مدخلا لمدينة او لحي ، يعلوه بناء مربع صغير له نوافذ وكوى كالأبنية المماثلة التي تصادفها في جميع الشوارع تقريباً ، وفي القاهرة خاصة . ولما دخل الدين الاسلامي البلدة وبدا ان أفضل مكان للأذان هو الباب ، شيدت مخرطة برجية (TURRET) فوقه لتكون مئذنة . ولم أر سواها بناء يماثل المسلّة او الهرم المزعوم .

ويقال إن هذا البناء – ومن الجائز انه استعمل كنيسة مسيحية – كان في الماضي يتصل بقلعة المارد – وهي في الحي عينه – بواسطة نفق ، وهذا النفق مغلق الآن ، تطمره احجار ونفايات . وقد شاهدت في القلعة المكان الذي يقال ان النفق ينتهي فيه . ويقول الاهلون ان ارتفاع اسوار « المارد » كان ضعف ما هو عليه الآن . وهي مبناة بعناية بحجارة كبيرة مربعة منحوتة ، تشابه بهندستها اسوار قلاع دمشق القديمة. وعلوها يبلغ ثلاثين الى اربعين قدماً فوق الجُرُف الذي تطل عليه . ومدخلها الرئيسي في يومنا هو في هذا الحي على منحدر الجبال الجيرية ، ولكن هناك ، في الجانب الغربي ، ممرّاً خلفيّاً ضيقاً يقال إن باباً حديدياً قوياً كان في طرفه ، ويروى ان الخليفة علياً شقّه بضربة واحدة من سيفه يوم الفتح الاسلامي للجوف (*) . ولم أر في الداخل شيئاً يستحق الذكر ، ولم أجد آثار نقوش . ولم يطرق سمعي ان كنوزاً أو اشياء ثمينة اكتشفت في الاطلال .

ان الكثير من بيوت هذا الحي مبناةٌ جزئياً بحجارة مربعة ومنحوتة شبيهة بحجارة القلعة والمسجد . وأما البيوت في الأحياء الأخرى ، وفي جميع قرى الصحراء ، فمبناة باللبِن والصلصال .

(*) – لم يذكر أحد من كتاب السيرة ان عليا (ض) كان في ذلك الفتح . بل قيل انه تخلف في المدينة وصيا على أهل البيت .

وسكان الدِرع متخالطون . يقال ان القسم الكبير منهم نزح إليه من الشقراء في نجد العريض . وريتّر يشير في كتابه (*) الى بني دِر بأنهم يقيمون في وادٍ في جبل أجأ اسمه وادي حفل (او هفل؟). وقد يُعتبرون اجداداً لسكان الدرع ، اضطروا الى مغادرة مساكنهم ، وربما سلكوا الدرب التي ما تزال مطروقة ، عبر القصيم ، الى جبلَي طيء، ومن هناك الى « جبّة » فالجوف. ولا تزال بعض أسرٍ أقدم سلالةً تدعو نفسها القراريط تزعم انها نزحت في البدء من جبّة ، ولعلها بقية الذين أشار إليهم مؤلف « القاموس » باسم « قروط » فقال إنهم من « كلاب » . والمعروف عن هؤلاء أنهم عاشوا قديماً في هذه النواحي ، وربما في جبّة حيث لا يزال حيٌّ اسمه «سوق الكلاب». ولما كنت في جبّة اخبرني أهلها ان هؤلاء القراريط يملكون كتباً قديمة جداً مكتوبة بلغة مجهولة وتحوي تاريخهم وانسابهم . ولم أسمع شيئاً من هذا في الجوف مع أني كنت صديقاً حميماً لشيوخها ومعمريها . وفي الدرع ثلاثة ينابيع غزيرة : الكبرى ، وبَرد زُبيدى، وعين الجمل . ومجموع السكان هنا يبلغ حوالى مئة وثلاثين عائلة .

الحي الثالث : **سوق السَعيديين** ، أو السرّاح ، تقيم فيه خمس قبائل هي السعيدين ، والعُمَر ، والعبّاس ، والسَلْمان ، والهبّوب . ويرجع اصل الأربع الأولى الى قرية السراحية (**) وقرية رخام في سورية، والقبيلة الخامسة من « الموالي »وجميعهم يبلغون ماية وعشرين عائلة . ويظهر أن هذا الحي يعدّ ، بعد الدرع ، أقدم أحياء البلدة . وفيه قلعة القُصَير الجديدة الى حدّ ما ، والمبناة باللبن فوق الصخرة عينها التي بنيت عليها قلعة المارد ، وقد بنيت

(*) – Erdekunde : XIII. 347

(**) – Alsarrâhiyé

قبالتها وعلى قرب منها . ويقال إنها بنيت قبالة قلعة المارد في زمان كان العداء مستحكماً بين الحيين المتجاورين .

الحي الرابع : **سوق الرحيبيين** ، وفيه حوالي سبعين عائلة ، يقال إنهم نزحوا من قرية رحيبة السورية التي ذكرها الرحالة الاميركي الدكتور روبنسون[١٦] وقال انها في الارض « التحتا » بين حوران والنبك . وفي هذا السوق نبع جارٍ اسمه العروس .

الحي الخامس : **العلاج** ، فيه أربعون عائلة نزحت من الطفيلة . ونبع مائه اسمه غَنَرْنَه (*) .

الحي السادس : **خذما** ، وسمي هكذا باسم نبع فيه ، وسط الحي ، يعطي ماء الري الضروري لبساتين الجوار . ويبلغ عدد سكان الحي ستين عائلة يقولون إن أجدادهم من الطبقة السادسة نزحوا من وادي السرحان الى الجوف . وبما أنهم حافظوا على لغة بدوية صافية وعلى عادات البدو أكثر من سواهم من أهالي الجوف فهم يدعون أنفسهم بدواً ، أو رحّلا ، ويسمون جيرانهم « قراونة » . وهذه الكلمة كثيرة الاستعمال في سورية ولها معنى كلمة «فلاحين» في مصر . وبين سكان « خذما » عشر عائلات زنجية الأصل تعرف باسم «المتولدين» ، يمتاز ابناؤها عن الآخرين بلون بشرتهم القاتم ، وببقايا ملامح زنجية صارت طفيفة . وفي الأحياء الأخرى يعيش بعض عائلات أخرى من المتولدين من زنوج ، بيعوا عبيداً في سوق مكة وجاء بهم مالكوهم الى مساكنهم في الجوف وأعتقوهم فيما بعد ، وتزوجوا نساء منهم ، وزوجوهم ، فيما ندر ، نساء عربيات . وهكذا تكاثر المتولدون وانتشروا في الصحراء ، ويصادَفون في القرى وفي خيام البدو الرحّل .

(*) – كتبها بالانكليزية : **Ghanarna**

الحي السابع : **الدهمية** ، وكان في السابق صغيراً وقريباً من « خذما » فيه حوالى عشرين عائلة تنحدر وسكان السرّاح الذين هم حلفاؤها من منبت واحد . وكان بينهم وبين سكان « خذما » و « الجرعاوي » — المتحالفين — نزاع قديم . ومنذ ثماني سنوات ، يوم وطد ابن الرشيد زعيم شمّر حكمه في أرضه ، انتصر لانسبائه في الجرعاوي فدمّرت عساكره حي الدهمية ونهبوه وخربوا بساتينه وقطعوا نخيله وطمروا آباره ، ولم يتركوا لاصحابه سوى الحياة و « حرية » اللجوء إلى حلفائهم السرّاح .

وعلاوة على تلك الأحياء السبعة ، القريب بعضها من بعض ، والكائنة في منحدرات الجبل في شكل نصف دائرة — هنالك في الوادي خمسة أحياء صغيرة أخرى ، هي :

الحي الثامن : **القراطين** ، في الجزء الغربي من الوادي ، بين جال الجوف والجبل الداخلي ، وفيه أسرتان محالفتان سكان « الغرب » .

الحي التاسع : **الوادي** ، في سفح جبل منفرد يسمّى « سَبّه » مخروطي الشكل ، في الجانب الآخر من الوادي الى الشمال الغربي من « المارد » قرب جال الجوف ، وفيه ثماني عائلات من قبيلتي « دَربَه » و « مناحي » تحالف سكان الدرع .

الحي العاشر : **غُطّي** (*) ، في شمال شرقي « المارد » في قعر الوادي تسكنه عائلتان تحالفان السرّاح .

الحي الحادي عشر : **السعيدان** ، وهو مزرعة نخيل يرويها بئر ، وتملكها أسرة زنجية تسكن خذما .

الحي الثاني عشر : **الجرعاوي**، فيه أربع عائلات منأ صحاب الحرف، نزحت

(*) — كتبها : Ghuttî

من جُبّة أصلها من « أرمال » أحد بطون شمّر. وفي أثناء النزاع الذي كان بين السرّاح والدلهمية من جهة، وبين خذما والجرعاوي من الجهة الأخرى، دُمّر حي الجرعاوي تدميراً شاملا وطُرد أصحابه من أرضهم فذهبوا إلى حلفائهم في خذما . وبعد ان تسلّط (ابن الرشيد) شيخ شمّر على الجوف وأنهى النزاعات بين أسواقها ، أذن للجرعاوي بالعودة إلى حيهم وبناء بيوتهم وتنظيف آبارهم وإعادة زرع ما قطع لهم من نخيل . ولما غادرتُ الجوف كانوا يتأهبون للرجوع من خذما إلى بيوتهم الجديدة .

ان سكان الجوف لا يحتفظون إلا بالقليل من تقاليد مدينتهم القديمة ومن تاريخها . ويزعمون أن بلدتهم الأصلية تعود إلى زمان سليمان بن داود ، وانها أسست في سنة ٨٠٠ للميلاد (*) . وهذا عصر لم يطرق ذكره سمعي ، في أي مكان آخر من العالم الاسلامي .

ان ابناء الشمال العربي وابناء نجد يعتقدون أن الملك الحكيم المذكور « حاكم الانس والجن والحيوان » هو أول من مدّن بلادهم وأقام القرى وحفر الآبار التي يفرض أنه بناها بمساعدة الجن . ويبدو ان اعتقادهم هذا يرمز إلى أن المدنيّة أتتهم من سورية ، على عكس من المدنية المفروض وجودها عند عرب اليمن ، وهي مدنيّة أخرى مختلفة عن الأولى ، كانت وليدة موقع اليمن الجغرافي ، وثمرة العلائق والمبادلات التي جرت منذ القدم بينها وبين الهند والحبشة . وأبناء الجوف لا يعرفون شيئاً من تاريخ المدة الطويلة التي تفصل بين سليمان الحكيم والنبي محمد سوى أن بلدتهم كان اسمها « دومة الجندل » ، وهو الاسم الذي يطلقه عليها إلى يومنا هذا الجغرافيون العرب .

إن البلدة ، عند ظهور الرسول (صلعم) كان يحكمها مسيحي اسمه

(*) - كذا وردت في النص الانكليزي، والأرجح انها خطأ مطبعي وانها سنة ٨٠٠ «قبل» الميلاد

« الا كيدر » يقيم في قلعة المارد . الا ان لفظة « أكيدر » غامضة جداً وتشمل أزماناً غير محددة . والسكان أنفسهم لا يجزمون بما إذا كانت اسماً لمفرد ، أو لقبيلة ، أو لأسرة رئيسية . ولكني أعتقد أنها اسم أسرة رئيسية لدخول « ال » التعريف عليها . (*)

ويروى أن البلدة في ذلك الزمان كانت أكبر حجماً ، وفيها من بساتين الفاكهة والنخيل ما يغطي مساحة أكبر من الوادي ، فيها آبار وعيون كثيرة . ويحيط بها كلها سور واحد . وهنالك حتى الآن آثار عديدة لزراعة الماضي في أرض تفوق مساحتها مساحة الأرض المزروعة حالياً . وبين وقت وآخر تُكتشف أنفاقٌ مبناة بحجارة مربعة دقيقة النحت وممتازة التقطيع ، قد تكون بنيت لجرّ مياه الأمطار ، أو لجر مياه الآبار والعيون التي اختفى أثرها. وفي مقامي هنا اكتشفوا في السعيدان نفقاً للمياه قديماً وكبيراً يكاد يتسع لان يقف الانسان فيه منتصباً . والمرجح أنه متصل بالبئر الوحيدة هناك ، وكان الرمل يطمره . وما رفع منه من الرمل حتى الآن لا يفسح لمعرفة طرفيه معرفة أكيدة . وكذلك اكتشفت أنفاق أخرى في البلدة تمتد إلى محلات ليس للزراعة فيها من أثر الآن .

وفي قعر الوادي بقايا جدران من طين مجفّف في الشمس يقال إنها بقايا السور الذي بناه « الاكيدر » ليحيط بلدته به . وكثيراً ما يكشف عن أوانٍ منوعة مطمورة في الارض ، منها هواوين حجرية تشبه الهواوين التي تستعمل في جميع بلاد نجد لطحن البن المحمص ، والتي اشتهر بصنعها سكان الجوف . وتصنع هنا كميات كبيرة منها تباع في نجد، وقد يبلغ ثمن الواحد منها جنيهاً . ويكشف الحفر أيضاً عن « محامل منافخ » (**) تماثل في شكلها تلك التي

(*) — ليس في العربية ما يمنع في حالات كثيرة من دخول ال التعريف على العلم المفرد .

(**) — Bellows - stands

يستعملها اليوم الحرفيون العرب ، الا أن الأولى منحوتة في الحجر واما الحالية فأكثرها مصنوع من الطين . وقيل لي انه عثر على نقود عتيقة وان بعضها يرجع إلى أيام موسى(!) وعلى رغم من التنقيب ، ومن البحث بين الأهالي، لم أقع على سوى قطعة نقد ذهبية واحدة من العهد الفاطمي . ولم أعثر على أية نقوش أو كتابات قديمة .

قُهر « الأكيدر » وقتله المسلمون رجال الدين الجديد الذين دخلوا البلدة بقيادة عمر وعلي — على ما يرويه الاهلون (*) — وفرضوا على المسيحيين اعتناق الاسلام . وما يقصه السكان من حوادث القرون التالية يدور كله على النزاعات والخلافات السائدة بين القبائل وأسواق المدينة . وأبناء الجوف مشهورون حتى اليوم بالتنازع ، ويقول جيرانهم عنهم : « إن الشيطان لن يموت أبداً في قلوب سكان الجوف » . ويبدو أن المثل العربي القديم الذي ورد في « القاموس » يشير إليهم بقوله : « تمرّد مارد وعزّ الابلق ! »[١٧]

في أول عهد الوهابيين دخل البلدة أحد قادة ابن سعود بجيشه ودمّر في حي الدرع قبراً قديماً تعلوه قبة ، كانت الناس تعتبره مدفناً لذي القرنين . وبعد أن جمع القائد الزكاة — احدى فرائض الاسلام الاساسية الخمس — تابع طريقه وترك في الجوف ممثلا يحكمها باسم ابن سعود . والأئمة المتعلمون (ويسمونهم « الخطباء » هنا وفي نجد) يتلقون علومهم في المدينة والدرعية بنفقة ابن سعود . ويرسَلون أيضاً الى هنا بنفقته ليعلموا الناس الدين الاسلامي تعليماً نقياً ومجدّداً (اصلاحياً) حسب تعاليم عبد الوهاب ، وهكذا خمدت

(*) — أحسن فالين في تحفظه بنسبته هذه « الرواية » إلى الأهلين . فالثابت تاريخا ، بأقوال كتاب السيرة ، ان الرسول الكريم (صلعم) اختار خالد بن الوليد — وكان قريب العهد باسلامه — فبعثه إلى اكيدر على رأس جيش المسلمين . ولم يرافقه عمر (ض) ولا علي (ض) في تلك الغزوة .

النزاعات والعداوات ، وسادت العدالة والأمن أراضي ابن سعود الواسعة . والناس جميعهم هنا يذكرون تلك الايام بحماسة . ولما انحسرت سلطة الوهابيين أمام والي مصر (محمد علي باشا) الذي احتلت جيوشه مقاطعات نجد وشمالي الجزيرة العربية كلها ، الا الجوف وحدها ، عادت الفوضى والاضطرابات إلى سابق عهدها في الجوف ، فقام لها عبد الله بن الرشيد ، بعد أن ثبّت سلطانه في جبل شَمَّر ، وبعث أخاه عبيد الله إليها فوضع حداً للعداء الذي كان بين خذما والدلهمية والذي بسطته سابقاً . وقد جرى ذلك حوالي سنة ١٨٣٨ . ومن ذلك الزمان خضعت الجوف لسلطان رئيس شَمَّر دون أن يكون له ممثل يقيم فيها .

ان لكل حيّ في الجوف شيخه الذي يحكم بخلافاته الصغيرة . اما النزاعات الكبيرة الأهمية فتعرض على رئيس شَمَّر شخصياً ، وهذا الرئيس يدعو المتنازعين الى عاصمته حائل ويناقش بالمسألة علناً في اجتماع عام وبمشورة القاضي .

والزكاة في الجوف يجمعها خمسة يختارهم شيخ شَمَّر من أبناء البلدة . وأما شؤون الدين فيقوم بها « خطباء » تنتخبهم أحياؤهم . ويجري ذلك بأن كل حي ينتخب خطيبه من سكانه على حدة . ولا يزال في خذما خطيب واحد هو بقية الذين تلقّوا علومهم في المدينة ، انه من جبل شمّر . اما الآخرون فمن الجوف . ولكل سوق مسجده تقام فيه الصلوات اليومية وتُلقى من على منبره خطبة الجمعة . وجرت العادة ان يفسّر الخطيب بعد صلاة الظهر أحاديث نبوية او آيات من القرآن الكريم ، أو يشرح التعاليم الوهابية في وحدانية الله تعالى وبوجوب عدم عبادة الأولياء . وهذا الامر الاخير مثار للجدل بين الوهابيين وسواهم من المسلمين .

ان الوهابيين متزمتون يسمون انفسهم بالموحّدين ويقولون إن الآخرين يشركون بالله تعالى كائنات ادنى منه ويعتبرونها جديرة بأن يعبدها الانسان .

وهم لا يتخذون كلمة « وهابية » اسماً لهم لانهم يعدّونها اهانة . والذين يطلقون عليهم هذه اللفظة هم أهل البلاد العربية التركية (*) . والوهابيون لا يؤلفون مذهباً خاصاً بهم بل يتبعون مذهب الامام احمد الحنبلي . وامراء آل سعود لم يسكّوا نقوداً تحمل أسماءهم .

ان الاولاد هنا — كما في جميع القرى الوهابية — يلقنون (منذ الصغر) اصول الدين وشعائره . والكتابة والقراءة منتشرتان بينهم أكثر مما هي عليه في المدن العربية التركية (**) . ومع ان المعروف عن أهل الجوف ان طباعهم قاسية وانهم يميلون للتشاكس فالجميع يشهدون لهم بأنهم مضاييف كرماء ، ومهذبون مع الغريب . وأعلن ، فيما يتعلق بي شخصياً ، اني لم ألق ، حتى بين أكرم عرب الصحراء ، قبيلة تفوق أهل الجوف في أفضالهم . ولم يستقبلني أحد أحسن من استقبالهم إياي . وهم مشهورون أيضاً بمواهبهم الشعرية . ومع أن الوهابية صارمة تشجب الغناء والضرب بالرباب (الآلة الموسيقية الوحيدة في الصحراء) وتراهما غير لائقين بالمؤمن الحقيقي ، اعتقاداً منها بأن من استمتع بالشعر والغناء في هذه الحياة الدنيا لا يستمتع بهما في الآخرة ، فانه لم تمض ليلة لم أسمع فيها أغنية تصاحبها آلة البدو الموسيقية الساحرة ، على رتابتها . ولا أقول إن أهل الجوف يفوقون البدو الآخرين بمواهبهم الشعرية والموسيقية ، فهذه المواهب تعمّ البدو أجمعين . واما ما ذكره بركهاردت عن أن رجال الجوف يجولون أحياناً في الأرض المجاورة مغنّين فلم أقع على

(*) — يريد : البلدان العربية الخاضعة في ذلك الزمان للحكم العثماني، وهي التي تضم أكثر العرب الحضر.

(**) — هذا أعطر ثناء على الحركة الاصلاحية (الوهابية) ومتى ذكرنا ان الجهل كان يسود بلاد العرب جميعا ، بل يسود شعوب السلطنة العثمانية كلها ، عرفنا وزن هذه الشهادة بالوهابية .

دليل يثبت صحته . بل لم التق في بلاد العرب ، ولا في المناطق المجاورة ، مهاجرين او رحّالة من الجوف . ويندر أن يغادر الجوفيون أسواقهم الا فيما اذا طُلبوا الى حائل ، او فيما إذا قصدوا مكة المكرمة لاتمام فريضة الحج .

ان أبناء الجوف لا يغزون لحسابهم الخاص ، وقد يشترك بعض منهم في غزوات عرب شَمّر . وليس من عاداتهم ان يقصدوا البلدان المجاورة كما يفعل سكان شَمّر والقَصيم ليتمونوا القمح والأرز والضروريات الأخرى ، ولكن حلفاءهم من عنزة والشرارات يأتونهم بهذه الأصناف من سورية والعراق . ولما كانت بساتين الفاكهة والنخيل تُسقى ، الى حد بعيد ، من مياه الينابيع والآبار القليلة العمق التي يسهل استخراج الماء منها فليس للناس من حاجة إلى الابل . ولهذا قلّ عدد الذين يملكون جملا ، وهو الحيوان الذي لا غنى عنه في البلاد العربية . وتستخدم الثيران والبقر ، بدلا من الجمال ، في استخراج الماء من الآبار العميقة . والماء يسحب منها في قِرَبٍ من جلود الابل والثيران والبقر .

والمواشي هنا ، وفي جميع بلاد العرب ، من نسل صغير وهزيل . والعربي يتلكأ كثيراً عن ذبح ماشية لطعامه . وجميع الحيوانات التي تستخدم للري ، بما فيها الابل ، تسمى بالصواني . وبما ان أهل الجوف لا جمال عندهم — وهذه وحدها وسيلة النقل والاتصال في الصحراء — فهم يعتمدون على البدو اعتماداً كلياً في قضاء حاجاتهم التجارية . وحالهم في هذا عكس الحال في بلاد العرب . وعلاوة على ذلك فالنزاعات والحروب الداخلية المزمنة بين سكان الجوف كانت دائماً تكبح النشاط التجاري . والموقع الذي اختاره أوّلوهم لبلدتهم كي يدرأوا عنهم الغزاة ، لا يشجع على المواصلات والتجارة .

ونستطيع أن نخلص إلى القول إن تأثير الجوف في التاريخ العربي بقي دائماً ضئيلا . ذلك لان المدينة تحيط بها رمال شاسعة لا مياه فيها ، فلا تمر بها طريق

الحج من سورية ، ولا من العراق ، الى مكة التي اعتبرت مركز تجمّع العرب في جميع الأزمنة وكانت مهد المدنية العربية والاسلامية .

وبسبب هذه العزلة عن البلاد الحضرية المجاورة ، اضطر ابناء الجوف للاعتماد على مواردهم القليلة من محصول أرضهم الفقيرة . وهذا المحصول أكثره من التمر ، ليبادلوه باصناف أخرى .

يقول بعض (؟) الكتّاب العرب إن الزيتون كان نامياً هنا . واما في الوقت الحالي فليس اية شجرة . وأشك بكون التربة صالحة لزرعه . ومن المحتمل أن القليل الذي كانوا يحتاجون إليه مما لا تنتجه بساتينهم ، كانوا يأتون به ، كما هو الحال ، من المقايضة بالتمر ، فيشترونه بأنفسهم من السوق السنوية ، وهي التي قال القلقشندي[١٨] عنها انها كانت تقام عندهم في الازمنة القديمة. وقصوّ الجوف عن الدروب المطروقة وصعوبة الوصول إليها كانا السبب الرئيسي لاقامة سوقٍ فيها .

ان تمر الجوف من أطيب أصناف التمر . ونكهته تفضّل على نكهة تمر البصرة وبغداد . ومع أنه كاد يظل طعامي الوحيد طوال أربعة أشهر فلم املّ تذوقه أبداً . وبه وبتمر تيماء يضرب المثل . ولكن في تيماء صنفاً واحداً جيداً واما تمر الجوف فجميع أصنافه جيدة وتعدّ من أطيب الأصناف . وقد أكلت منها خمسة عشر صنفاً ، على الأقل ، وكلها من ذات النكهة الفائقة . والأهلون يقولون إن السبب في جودها يرجع إلى أن النخيل في الجوف لا يروى بكثرة كما هو الحال في المناطق الأخرى . وفيما يعمل أهل نجد بالمبدأ القائل : « كلما رويت الاشجار بكثرة زاد السكر في أثمارها » يعاكسهم ملاكو الجوف فلا يروون أشجارهم الا مرة كل ثلاثة أيام ، أو اربعة .

ويؤدّي سكان الجوف الزكاة لزعيم شمّر فيتصرف بها على مشيئته . غير ان هذه التأدية لا تدرأ عنهم هجمات رحّل الجوار . وكل حي (سوق)

يدفع «خوّة» لشيخ، او لعدة شيوخ من البدو. و « الخوة » في الغالب كمية معينة من التمر . والقبائل الرئيسية التي تستوفيها هي الشرارات والروَلة من عنزة — وتسمى أيضاً كلاس — والتايف والشعلان ، وهما بطنان من الروَلة عظيمان ، يعيشان أكثر أيام السنة في حوران . والبدو يعرفون حوران باسم « نقرة الشام » . وينتشرون صيفاً في النفود سعياً الى مراعي ابلهم العديدة ، ذات اللون الرمادي الفاتح ، في جوار الجوف وجوار بئر الشقيق ، ويذهبون أحياناً جنوباً حتى القَصيم ، وشرقاً وشمالا شرقاً حتى الجزيرة وتخوم العراق حيث يلتقون فيها بعض أنسبائهم . ويعيش عدد كبير من أثرياء البدو أكثر الوقت في المدن . كلّ بنفقته الخاصة ، ويرسل قطيعه مع راعٍ خاص الى الصحراء المجاورة ولا يلبث أن يرجع هذا بالقطيع بعد بضعة أيام في طلب الماء.

ولما ينضج التمر يجمع شيوخ البدو ما استطاعوا منه لقاء « الخوة » التي فرضوها على الأهلين ، ويضعونه في جلود ويقايضون به وببعض الجمال المسنّة التي صارت للنحر كي يحصلوا على ملابس مختلفة ثم يعودون الى منازلهم في حوران .

ويعيش أكثر الشرارات — على ما قلناه سابقاً — في وادي السرحان ، ومنه ينتقلون إلى النفود ، وقد ينتقلون الى جبال الشراة . والبطون الرئيسية في القبيلة هي :

أ — الفُلَيحان، وشيخهم يدعى « الحاوي » وهو سيد القبيلة بأسرها.

ب — الضّباعين ، والعشيرة الرئيسية في هذا البطن اسمها شوشان .

ج — الحُلَساء ، او : الحِلْسة وشيخهم ابن دعيجة .

د — العزّام ، وشيخهم شبلي

ه — السليم ، وشيخهم الدويري

والشرارات يعتبرون الجوف بلدتهم ، ويلزمون جوارها ما استطاعوا .

وفي موسم الحصاد يأتونها زرافاتٍ للمقايضة بقطعانهم وبالاصواف والارز والزبد والاجبان التي استطاعوا جلبها من اماكن أخرى . والأصناف الرئيسية التي يعرضونها هي التمر والحصر المنوعة وأقمشة الخيام والاكياس المصنوعة جميعها من الصوف ، ومنها أردية كثيفة مدفئة يدعى واحدها « عباءة » — وفي الغالب يدعى «مشلح» — اشتهر سكان الجوف بحياكتها . وهذه العباءات — على خشونة نسجها — متينة ومدفئة ، وتحمل للبيع بعيداً حتى مكة عبر جبل شَمَّر . وهذا الاتّجار يتم بالمقايضة بسبب ندور النقد هنا ، وهو حال أكثر الصحراء .

يعتقد سكان الجوف أن مدينتهم في وسط الدنيا ، ولذا يطلقون عليها اسم « جوف الدنيا » . والواقع ان المسافات التي تفصلها عن عبر الصحراء ، المحيطة بها ، الى اقرب الاراضي المزروعة تكاد تتماثل . فيمكن الوصول من الجوف الى دمشق في سورية ، والى النجف أو مشهد علي في العراق ، والى المدينة في الحجاز ، والى الكرك في فلسطين ، في حوالي سبعة أيام . والعرب الحاليون يسمون دمشق باسم « الشام الكبيرة » محاكاة لتسميتهم القاهرة بمصر الكبيرة ، واسمها القديم (دمشق) يقتصر استعماله على المتعلمين الذين يلفظونه كما ضبطه الكتّاب العرب ، اما العامة في الجوف ونجد ، وحتى في سورية ، فيلفظونه دَمَشْقَ ، واحياناً : دِمْشَق . ويضرب السوريون المثل بقولهم « الشام دمشقاء » (*) أي ان دمشق نظيفة وجميلة وان شعبها أنيق لبق . واذا استحقت مدينة شرقية مثل هذا المديح فدمشق به أجدر .

والاهلون يعدّون مواضع الماء في الطريق من الجوف الى دمشق في الاماكن الآتية : النبك (في وادي السرحان ، وعلى يوم من الجوف) ، ومُرَيرة ، وغُراب ، وقُراقر ، والحازم ، وأزرق ، وبصرى (في نقرة الشام) ،

(*) — كذا كتبها . ولا ريب بأنها لفظة : « مدمشقة »

وحُرَيره ، ورُزْدلي في طريق الحج ، والعوج ، ودمشق . ومواضع الماء من الجوف الى الكرك هي هذه : مبقوع ، العيون البيض ، العمري ، الحفاير ، اللجـــون .

والطريق من الجوف الى الرياض ، وهي المطروقة في الاكثر ، تمر عبر جبل شـَمـّر والقـَصيم، ويحتاج قطعها الى حوالي اثني عشر يوماً أو ثلاثةعشر. ومن المحتمل ان لا تزيد المسافة من الجوف الى الرياض على سبعة أيام فيما اذا كان السير عبر الصحراء ، بينما يصعب الوصول الى المدينة (المنورة) في طريق تيماء والحِجر بأقل من تسعة أيام . والطريق من الجوف الى العراق تمر بأرض النفود ، الى الشمال الشرقي من الجوف ، وتتصل بالدرب الذي يطرقه أهل جبل شمـّر في زياراتهم المتعددة للعراق . اما الجوفيون فلا يزورون العراق الا نادراً .

والكتـّاب العرب لا يذكرون مدينة الجوف باسمها هذا مطلقاً ويبدو ان هذا الاسم مرجعه شكل الوادي الواقعة فيه البلدة ، والذي وصفناه بأنه فجوة غائصة في سلسلة الجبال المحيطة بها . وأما الصحراء المحيطة بالجوف والتي قد يقال انها تابعة لها فليست أرضاً منخفضة تنحدر تدريجاً من نجد الى سورية كمـــا وَهـَم فون هامر [19] الذي استشهد بـــه ريتر في مؤلفه « ارضكوندي » (١٣ : ٣٧٧) (*) فقد فسـّر كلمـــة الجوف العربية بمعنى السهول الفسيحة والارض المنخفضة بالنسبة للجبال العالية التي تحيط بها . وأنا رأيت العكس . ولا أجد مفراً من عدّ أرض الجوف أعلى ، نسبياً ، من أرض نجد وجبال « جال الجوف » ، ومن الاراضي الجبلية والحجرية المحيطة

(*) – Erdekunde او علم الأرض (الجغرافية) وكان هذا الكتاب من أرقى المؤلفات التي بحثت في القرن الماضي بهذا العلم ، ولا يزال مرجعا لكثير من الجغرافيين .

بها من الغرب ومن الشمال ، وهي تشكّل ما يقرب من قمة الهضبة الشمالية من جزيرة العرب . وعليّ ايضاً ان افنّد ما ذهب اليه هذا الجغرافي العالم الذي قال إن القسم الجنوبي من منطقة الجوف جبلي ، معتقداً أن القسم الشمالي منخفض نسبياً ومسطح . والواقع هو العكس : فقد رأينا سابقاً ان القسم الشمالي من سلسلة الجبال يرتفع عالياً ويمتدّ الى الغرب ، او الى الشمال الغربي ، مع سلسلة العُضيبري التي هي أدنى منه . ومنحدرات السلسلة الشمالية تتألف من بقاع جبلية تمتد على مسافة يوم حتى وادي السرحان . واما الاجزاء الجنوبية والشرقية من السلسلة فهي ، على العكس ، منخفضة ولا تمتد الى ارض نجد بل تنتهي في طرف الوادي . ولذا أقول إنه ليس هناك من صلة بين هذه الجبال وجبلَي طيء اللذين ظن ريتر انهما ينحدران تدريجاً حتى أرض الجوف المزعوم انخفاضها .

والى الشمال الشرقي من الجوف ، على احدى عشرة ساعة منها ، بلدة أخرى اسمها « سُكاكة » (وهنا يسكّنون سينها ويلفظونها : سْكاكة) وفيها حصن خرب يعرف بزَعْبل ، وفيها أيضاً أربعة أحياء ، او اسواق ، هي: العمران و السُحْيان و الحرقان و الفياد . وياقوت الحموي يحسب سُكاكة في عداد القرى التي منها دومة الجندل ، ويروي انها مسوّرة غير محصنة تحصين دومة الجندل، ويقول أيضاً ان سكانها أقل بأساً من سكان دومة الجندل (*) . وأظن أن قوله هذا ينطبق على أصحابها الحاليين أيضاً ، رغم اني لم استطع خلال إقامتي في الجوف أن أزورها ، ولكن كان يأتيني منها في الغالب رجال

(*) – اليك ما قاله ياقوت : « سكاكة ، بضم أوله ، قال أبو منصور : السكاك والسكاكة الهواء بين السماء والأرض . والسكاكة احدى القريات التي منها دومة الجندل وعليها ايضا سور ، لكن دومة أحصن وأهلها اجلد »

ليستشيروني في أمراضهم فبدوا لي خشنين ذوي ملامح بشعة . ويقال إن الحالات الصحية في بلدتهم سيئة جداً . وأكثر الامراض التي وجدتها فيهم هو الزُهري ، في الدرجتين الثانية والثالثة . والعائلات التي تعيش في تلك البلدة يقدر عددها باربعماية عائلة .

والى الشمال الشرقي من الجوف ، وعلى ثماني ساعات منها ، محلة صغيرة تدعى قصر الطوير ، تسكنها حوالي عشر عائلات . وبين المحلتين موضع ثالث يقال له « قارة » تقطنه ما يقرب من عشرين عائلة أصلها من الدغمي من عنزة ، وفيها حصن قديم يعرف بالمُشْرفة . وقيل لي إن القرى الثلاث تقع في أرض منبسطة ذات تربة قاسية فيها مياه وآبار عميقة ، مما جعلني أعتقد أن الصحراء في هذه المنطقة تحاكي الصحراء الممتدة الى الشمال الغربي ولمسافة يوم تقريباً ، في ميزات أرضها الجبلية ، تنبثق من جال الجوف وتعترضها سلاسل، وهذه المنطقة كلها تخضع لشيخ شَمّر وتؤدّي له الزكاة التي يجبيها جباة الجوف أنفسهم .

ولا يزال الاهلون يذكرون اسم الجوف القديم — دومة الجندل — والجوف لم يعرف عند جغرافيي العرب الا بالاسم القديم . ويقول أبناؤه ان هذا الاسم يعني كومة من حجارة كبيرة . وإذا صدق قولهم جاز اعتبار هذا الاسم انه قد يرمز الى الجبل الكلسي الذي أشرت إليه والذي يرتفع فوق منبسط الوادي في شكل الكومة . ان بعض السكان يؤكدون ان كلمة جندل تعني الصخور التي يتألف منها الجبل المذكور . غير أن المؤلفين العرب لا يتفقون على أصل الكلمة ، فالبعض يرجعونها الى دوم ، ودومان ، ودومة ، ودوماء بن اسمعيل بن ابرهيم ، ويقول سواهم انها دومة انوش بن شيت بن آدم . وكما اختلف المؤلفون في ضبط اسم مؤسسها كذلك اختلفوا في لفظها ، فمنهم من يرفع الدال ومنهم من يفتحها :

وأورد ياقوت في معجمه الجغرافي العظيم زعم ابن الكلبي (*) انه :

« لما كثر ولد اسمعيل عليه السلام بتهامة ، خرج ابنه دوماء حتى نزل موضع دومة وبنى به حصناً فقيل : دوماء ، ونسب الحصن إليه . وهي على سبع مراحل من دمشق . »

وقال أبو سعد :

« دومة الجندل في غائط (حفرة) من الأرض خمسة فراسخ ، ومن قبل (جهة) مغربه عين تثج (تسيل) فتسقي ما به من النخل والزرع . »

وربما استطعنا القول ان هذه العين هي عين ام سليم . ويتابع ابو سعد قوله ان في البلدة حصناً اطلق عليه اسم المارد نسبة للحجارة الضخمة والثقيلة التي بني بها .

وقال أبو عبيد السكوني :

« دومة الجندل حصن ... قرب جبلي طيء ، كانت فيه بنو كنانة من كلب . ودومة من القريات ، من وادي القرى إلى تيماء أربع ليال . والقريات (هي) دومة وسكاكة وذو القارة . فاما دومة فعليها سور يتحصن به ، وفي داخل السور حصن منيع يقال له مارد ، وهو حصن أكيدر الملك، ابن عبد الملك بن عبد الجن بن أعيا بن الحارث بن معاوية ابن حلاوة بن أبامة بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون بن أشرس (**) بن عفير وهو كندة السكوني الكندي . وكان النبي(ص) وجه إليه خالد بن الوليد من تبوك وقال له : « ستلقاه يصيد الوحش . » وجاءت بقرة وحشية فحككت قرونها بحصنه فنزل (اكيدر) اليها ليلا ليصيدها فهجم عليه خالد فأسره ، وقتل أخاه حسان بن عبد الملك وافتتحها خالد عنوة ، وذلك في سنة تسع للهجرة (٦٣١ م) . ثم ان

(*) – هنا يتصرف الرحالة فالين بنقل ما قاله ياقوت في معجم البلدان في تعريف دومة الجندل ، فرأينا أن نرجع إلى الأصل العربي ونثبته بنصه .

(**) هنا ذكر فالين ، بعد كلمة اشرس « بن شويعر وهوكندة» . وقد يرجع الاختلاف في النصين الى المخطوط الذي كان يعتمده .

النبي (ص) صالح اكيدر على دومة ، وآمنه وقرر عليه وعلى أهله الجزية ، وكان نصرانياً ، فأسلم أخوه حريث فأقره النبي (ص) على ما في يده . ونقض أكيدر الصلح بعد النبي (ص) فأجلاه عمر رضي الله عنه من دومة في من أجلى من مخالفي دين الإسلام إلى الحيرة ، فنزل في موضع منها ، قرب عين التمر ، وبنى فيه منازل وسماها دومة ، وقيل دوماء ، باسم حصنه بوادي القرى ، فهو قائم يعرف إلا أنه خراب . قال : وفي إجلاء عمر رضي الله عنه لاكيدر يقول الشاعر :

يا مَن رأى ظَعناً تَحمّلَ غدوةً من آل أَكْدَرَ ،شَجوُهُ يعنيني
قد بُدِّلتْ ظعناً بدار اقـامـة والسيرَ من حصنٍ أشمَّ حصين.»

« وأهل كتب الفتوح مجمعون على ان خالد بن الوليد رضي الله عنه غزا دومة أيام بكر رضي الله عنه عند كونه بالعراق سنة ١٢ ، وقتل أكيدر لأنه كان نقض وارتد ، وعلى هذا لا يصح أن عمر رضي الله عنه اجلاه . وقد غزي وقتل في أيام أبي بكر رضي الله عنه .

« وأحسن ما ورد في ذلك ما ذكره أحمد بن جابر في الفتوح له ، وأنا حاك جميع ما قاله على الوجه ، قال :

« بعث رسول الله (ص) خالد بن الوليد رضي الله عنه سنة تسع إلى اكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل فأخذه أسيراً ، وقتل آخاه .

« وقدم بأكيدر على النبي (صلعم) على أرضه وكتب له ولأهل دومة كتاباً وهو : »

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمد رسول الله لاكيدر حين أجاب للاسلام وخلع الا نداد والا صنام ، ولأهل دومة :

« إن لنا الضاحية من الضَحل والبَوْرَ والمعامي وأغفال الارض والحلقة والسّلاح والحافر والحصن ، ولكم الضامنة من النخل والمَعين من المعمور . لا تُعدل سارحتكم ولا تُعَد فاردتكم ولا يحظر النبات . تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة لحقها . عليكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء . شهد الله ومن حضر من المسلمين . »

قيل : الضاحي هو البارز . الضحل الماء القليل . البور الارض التي لم تستخرج . المعامي الارض المجهولة . الاغفال التي لا آثار فيها . الحلقة الدروع . الحافر الخيل والبراذين والبغال والحمير . الحصن دومة الجندل .

الضامنة النخل الذي معهم في الحصن . المعين : الظاهر من الماء الدائم . لا تعدل سارحتكم : اي لا يصدقها المصدق الا في مراعيها ومواضعها ولا يحشرها . وقوله : لا تعد فاردتكم اي لا تضم الغاردة الى غيرها ثم يصدق الجميع فيجمع بين متفرق الصدقة.(*) ويتابع أحمد بن جابر كلامه قائلا : « فلما مات رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، منع أكيدر الصدقة وخرج من دومة الجندل ولحق بنواحي الحيرة وابتنى قرب عين التمر بناء وسماه دومة . وأسلم أخوه حريث بن عبد الملك على ما في يده فسلم له ذلك ، فقال سويد ابن الكلبي :

« فلا يأمَنَنْ قومٌ زوالَ جدودهم كما زال عن خَبْتٍ ظعائنُ أكيْدرا »

وقال ياقوت :

« وتزوج يزيد بن معاوية ابنة حريث . وقيل إن خالداً لما
« انصرف من العراق الى الشام مرّ بدومة الجندل التي غزاها
« اولاً وفتحها وقتل أكيدر ... وروى ايضاً ان اكيدر
« كان منزله اولا بدومة الحيرة ، وكان يزور أخواله من
« بني كلب ، وإنه لمعهم وقد خرجوا للصيد اذ (ظهرت)
« لهم مدينة متهدمة لم يبق الا حيطانها ، وهي مبنيةبالجندل
« فاعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها
« دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة ، وكان
« اكيدر يتردد بينها وبين دومة الحيرة » .

انتهى ما نقله ياقوت عن دومة ، وهي بلدة الجوف الحالية . وهناك — الى هذه الرواية — اشارات عديدة من الشعراء إليها . وفي مخطوط « معجم البلدان»

(*) — « معجم البلدان » : ٨، ص ٤٨٨، مطبعة دار صادرودار بيروت . ورواه البلاذري بما لا يختلف عن هذا في « فتوح البلدان » ج ١ ، ص ٨٢ وما بعدها (طبعة بيروت : تحقيق الاخوين عبد الله وعمر انيس الطباع) .

لياقوت ، وهو مخطوط ثمين يملكه المتحف الاسيوي في سانت بطرسبورغ ، وعنه نقلت هذه المقتطفات ، اخطاء كثيرة فلم أستطع وضع ترجمة حرفية لنصها (*) .

ومن الواضح ان دومة الحيرة التي قال ياقوت عنها انها أخت لدومة الجندل هي المحلة التي أطلق عليها بوركهاردت (١٠) اسم « دومة حير » او « دومة حور » — ومثله فعل ريتر (٢٠) — وهذه الدومة تقع في أرض العراق المنبسطة والمنخفضة ، وهي على بعد ستة أيـــام ، في الاقل ، من دومة دمشق . ولصاحب « جيوغرافيا ساكرا » (**) كل الحق بان يسميها بالارض المنبسطة . ولكن لا سبيـــل للجغرافي الالماني الشهير (***) لان يستنتج ان نيابوهر (١٤) لم يعرف الجوف من طرفها الجنوبي ، على اساس انه الجانب الجبلي الوحيد ، بينما هو يشير ، ومثله زيتسن (١٥) الى ان الجانب الشمالي منها هو أرض منبسطة .

وفي تاريخ رشيد الدين (مخطوط الجمعية الاسيوية الملكية في لندن) وصف آخر لغزوة الرسول (ﷺ) لدومة الجندل ، جاء فيه : « عندما جاء الرسول (ﷺ) نبأ تجمع العرب في دومة الجندل — وهي مدينة سورية على خمسة أيام من دمشق ، وخمسة عشر يوماً من المدينة المنورة — وكان ذلك في شهر ربيع الاول ، وهو الشهر الخمسون للهجرة ، وَكَّلَ (ﷺ) الى سبع ادارة المدينة وسار يرافقه ألف رجل ومعه دليل من بني عُذْرَة اسمه «مذكور»

(*) — اننا اثبتنا النص العربي الاصل نقلا عن « معجم البلدان » وهكذا فعلنا في الصفحات السابقة . اما مدينة سانت بطرسبورغ التي اشار المؤلف الى متحفها ، فهي عاصمة القياصرة الروس في الماضي وصار اسمها لينينغراد .

(**) — يشير الى بوركهاردت صاحب كتاب « رحلة في سورية والاراضي المقدسة » .

(***) — قد يكون هذا التعظيم اشارة الى الجغرافي ريتر . واما بوركهاردت فسويسري ، لا الماني .

فيسري في الليل ويستريح في النهار . ولما وصل الى البلدة وجدها خالية فقد فرّ سكانها مخلّفين ماشيتهم وأمتعتهم غنيمة هينة للمسلمين . وأرسل (ﷺ) رجالا في طلب الفارين استطاعوا ، بعد جهد ، ان يقعوا على أحدهم فرجعوا به إليه وعرف (ﷺ) منه ان جميع الاهلين قد فرّوا اذ بلغهم اقتراب جنود المسلمين من البلدة . وبعد مساعٍ كثيرة استطاع المسلمون اقناعهم بترك مخابئهم والعودة إلى بلدتهم واعتناق الاسلام على يد النبي (ﷺ) . وعاد الرسول (ﷺ) الى المدينة في العاشر من شهر ربيع الثاني . »

أما آخر مؤرخي العرب القدماء ، وأكثرهم دقة ، كوسان دي پرسڤال (٢١) فقال في مؤلفه « بحث في تاريخ العرب قبل الاسلام » (ج ٣ ، ص ٤١٤) ، نقلا عن الطبري وعن سواه من كتّاب العرب :

« في السنة الثانية عشرة للهجرة ، عندما أرسل أبو بكر قائديه خالد بن الوليد وعياض بن غنم في طريقين مختلفين لفتح العراق لحق (ابو بكر) بعياض الذي سلك الطريق الرئيسي عبر الصحراء لاخضاع دومة الجندل الثائرة . وحاصر عياض البلدة ولكنه لم ينل منها فكتب إلى خالد في عين التمر — وكان قد احتل الحيرة والا نبار — ان يأتي إلى نصرته فترك خالد حامية في البلدان المحتلة وأسرع إلى نجدة زميله في دومة الجندل ، فأخضع البلدة وثائريها ، وأعدم اكيدر الذي رفض محاربته وطلب إلى السكان أن يسلموا المدينة ويصالحوا المسلمين . وأعدم ايضا حاكما آخر هناك هو جودي الذي هاجم خالدا على رأس مقاتلين من دومة من بدو الجوار ، وأخذ أسيراً في القتال . ويضيف برسفال : ان مؤرخين آخرين يروون ان اكيدر وحده أسر وجيء به إلى المدينة أمام النبي (صلعم) وأطلق عمر (ض) سراحه فيما بعد ونفاه إلى العراق حيث ابتنى دومة الحيرة . »

وقد نستخلص مما تقدم ان اكيدر اضطر الى الفرار من المسلمين ، او انه ما كان أسره ليطول أمده فيما لو وقع أسيراً ، ولكان أذن له بالعود الى بلدته ، او انه نفي الى العراق ، وربما عاد من الدومة التي أسسها هناك الى

دومة الجندل التي كان له فيها نفوذ ، وذلك الى الوقت الذي قرر فيه عمر (ض) في بدء خلافته ، تنفيذ امر النبي (ﷺ) بعدم السماح لغير معتنقي الاسلام بالاقامة في بلاد العرب (*) فاضطر عندها اكيدر الى مغادرة موطنه واللجوء الى دومة الجديدة .

ويبدو أن التقاليد المعمول بها اليوم ما تزال تروي نبأ احتلال المسلمين دومة الجندل وطرْدهم المسيحيين منها ، كما تنسب الى عمر (ض) احتلال البلدة . وفيما تذكر هذه التقاليد ان علياً (ض) ساعد في الغزو ، وانه شقّ بضربة من سيفه الباب الحديدي لقلعة المارد ، فأنا لا أعرف مؤلفاً ذكر ان علياً (ض) شارك في قهر دومة الجندل . والتقاليد تخلط آخر احتلال للدومة في خلافة عمر او ابي بكر بغزو الرسول (ﷺ) لها عندما كان في تبوك وأرسل جنوده بقيادة خالد لاحتلالها .

وسكان تبوك والجوف الحاليون يروون ان تلك الحملة كانت الوحيدة التي قام بها المسلمون على مدينتهم . ومن المحتمل جداً ان الاحتلال المذكور تمّ في ذلك الوقت اذ ان النبي (ﷺ) تلقى وهو في تبوك رسائل من مدينتي أيلة وأذرح يعرض فيها أصحابهما تأدية الجزية شرط ان تبقى لهم حرية الاحتفاظ بدينهم . اما الغزوة التي تمت في السنة الخامسة للهجرة وذكرها رشيد الدين في تاريخه ، ووردت في « تاريخ الخميسي » وفقاً لكوسان دي پرسڤال (ج ٣،ص ١٢٩) فكانت لمعاقبة بعض قبائل كلب وسكون الذين هاجموا قوافل آمنة في طريقها من سورية الى المدينة المنورة ، ولم يكن لها من تأثير في الوضع السياسي للمنطقة الا ما سلبه المهاجمون من السكان .

والقلقشندي ، في « الانساب » ، يعد دومة الجندل سوقاً من أسواق

(*) — لا نعرف من اين اتى الرحالة ڤالين بهذا الخبر غير الصحيح . والارجح انه اراد : الاقامة في مكة المكرمة والمدينة ، لا في جميع بلاد العرب .

العرب كانوا يأتونها من قريب وبعيد ، في أول يوم من شهر ربيع الاول ويتاجرون فيها بالمقايضة حتى آخر الشهر ، فيستضيفهم أكيدر حاكم البلدة ، ويقول القلقشندي أيضاً ان بني كلب كانوا يهتمون أحياناً بتلك السوق ويرعونها ويقوم شيوخهم باستضافة العرب .

« ... فكانوا ينزلون دومة الجندل في أول يوم من ربيع الاول، فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء ، فيعشرهم رؤساء آل بدر في دومة الجندل ، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشرهم بعض رؤساء كلب فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر » . — « أنساب العرب » (ط . بغداد) : ص ٤٣٥ .

ان السكان الحاليين مجمعون على أن المسيحية كانت الديانة الرئيسية في الجوف . ولكنه يبدو ان الاحاديث الشريفة التي اوردها ياقوت في مؤلفه الجغرافي (*) تلمح الى ان الدين اليهودي وجد ، هو أيضاً ، ذات يوم فيها . وبالنسبة لموقع الجوف وعلائقها الدائمة بسورية نستطيع القول انها كانت تتأثر دائماً بالدين والمدنية السائدين في سورية في كل عصر . ونستطيع القول ، اذن ، ان اليهودية والمسيحية ، كلاً بدورها ، قد سادتا الجوف . وفي ظهور الاسلام كان مسموحاً بهما معاً كما هو الحال حتى اليوم في المدن الشرقية .

ويضيف كتّاب العرب الى ما تقدم ان سكان دومة الجندل كانوا يعبدون صنماً اسمه « ود » (٢٢) . ورأيي ان الصحراء لم تكن أبداً موطن عبدة أصنام ، فهذا ليس من طبيعة البدوي القح ، كما ان طبيعة الارض لا تتفق وعبادة كهذه . وأعتقد ان الذين أدخلوا في القديم عبادة الاصنام الى بعض مناطق من بلاد العرب هم قبائل يمانية أخذت تنزح اليها بين وقت وآخر واحتلت نجداً وشمالي بلاد العرب . ومن المحتمل ان عبادة الاصنام أتت اليمن من الهند . وكان — ولا يزال — بين الهند واجزاء الجنوب العربي بعض اتصال ،

(*) — لم نقع في « معجم البلدان » لياقوت على احاديث شريفة تحت كلمة الجوف .

ولكنه اتصال نشيط جداً . والنازحون من اليمن كانوا يطرقون درباً تقودهم الى مكة التي تبدو لي أقرب الى المدن الهندية بميزاتها منها الى العربية . ومن هناك انتشروا في الحجاز وتهامة وفي سفوح الجبال المتلاصقة والممتدة من السلسلة الرئيسية في اتجاه شماليّ شرقي ، والقائمة حدوداً لنجد في الشمال ، ومن هناك اتوا تدريجاً الى جَبَلَي طيء . وكان عليهم ، وهم في تلك الحالة ، اختيار واحد من الطريقين يؤدّي اولهما شمالا شرقاً الى العراق وفارس ، والآخر يؤدّي شمالا غرباً بطريق الجوف ، أو تبوك ، الى سورية ومصر وشمالي افريقية . وربما كان اولئك النازحون يحملون « معبودهم » في اسفارهم وينصبونه حيث أقاموا ليسجدوا له ويعبدوه . الا أنهم لم يحاولوا أن يدخلوا في أديانهم سكان الارض التي ينزلونها ، فقد كان التسامح في الامور الدينية يسود الجاهلية . و « الجاهلية » عند كتّاب العرب اسم العصر الذي سبق الاسلام (*) حتى انه ليجوز القول ان اولئك اليمانيين النازحين كانوا في نزولهم أرضاً ، يفوقهم أهلها ثقافة ومدنية ، كانوا يعملون تدريجاً بعادات هؤلاء الاهلين ويتكلمون لغتهم ويأخذون ديانتهم . وهذا حال قبيلتي كلب وسكون اللتين سيطرتا على الجوف في زمن الفتح الاسلامي : فبعد عبادتهم « ودّ » اعتنقوا النصرانية وبقوا عليها حتى اضطروا لاعتناق الاسلام فرضاً .

وعلى هذا يجوز لنا القول ، وفاقاً للتقاليد المعمول بها حتى اليوم ، وطبقاً لكلام المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون الذي نقله كوسان دي پرسفال ، ان المسيحية كانت الديانة السائدة في الجوف ، وذلك على عكس ما رواه ريتر (١٣ ، ٣٧٩) ، من أن بني كلب كانوا إبّان الفتح الاسلامي ما يزالون يعبدون صنمهم « ودّ » الذي له شكل الرجل .

٣٠ من آب (اغوستوس) — غادرت الجوف ترافقني عائلة بدوية

(*) — ليس هذا الاسم من الكتاب العرب فقد اخذوه من القرآن الكريم .

من قبيلة صغيرة اسمها هوازم (*) تعيش مع الشرارات في جوار سُكاكة . اظن أن هوازم هذه من بقايا قبيلة « العدوان » القديمة ذات النفوذ الكبير ، وقد انتشرت باسم هوازم في قسم واسع من نجد ، وكان لها تأثير شديد في الماضي البعيد . وهذه البقية تعيش عيش قلة اذ يغزوها دائماً جيرانها الاشداء من شمّر ، بل ينهبها صغارهم أيضاً ويسوق الغزاة مواشيها الى مضاربهم . فحفاظاً على نفسه وعلى ما تبقّى له من ابل قليلة قرر مرافقي ان ينزح مع عائلته الى ارض اعدائه ، ثقة منه بأنه يعيش آمناً في طاعته شيخ شمّر وتأديته الزكاة له . ولما كان رفيقي في حاجة الى من يحميه في طريقه فقد طلب الى امرأة متزوجة أصلها من جبّة شمّر ومقيمة في الجوف ان ترافقنا مع زوجها فكانت مرافقتها لنا كافية لرد الغزاة من قومها الذين التقيناهم في طريقنا (**) .

قطعنا وادي الجوف باتجاهٍ جنوبيّ شرقي في ثلاثة ارباع الساعة . ثم تسلّقنا جبال « جال الجوف » ، وهي في هذه الناحية منخفضة تغطي الرمال الناعمة جوانبها . وتابعنا السير فوصلنا الى رمال سهل النفود دون ان ننزل من القمة ، وذلك لأن السهل وآخر القمم متساويان في ارتفاع واحد . وهذا الرمل يمتدّ الى قرب سلسلة أجأ في جبل شمّر . وبعد خمس ساعات من السير في هذه البقعة الرملية توقفنا للمبيت .

٣١ من آب — سرنا ثلاث عشرة ساعة وثلاثة أرباع الساعة في اتجاهٍ جنوبي — جنوبي شرقي حتى أتينا الى آبار الشقيق الست ، وهي في سهلٍ تربتهُ مالحة صلبة على عكس الرمل الناعم الذي تتكوّن منه الاراضي المحيطة بهذا السهل . وعمق الآبار من عشرين الى خمسٍ وعشرين قامة ، وقعرها أحواض واسعة تنتهي عند السطح بفتحات . قطر الواحدة منها حوالي الياردة

(*) — لعلها هوازن ، وهو الصواب .

(**) — ليس من عادة العرب ان يطلب غريب الى عربية حمايته في وجود زوجها .

– وهي مبنية بحجارة كبيرة ومهارة وعناية فائقة ، وعلى الفوهة لاحظت رسوماً مختلفة لصلبان ولاشكال قد تكون حروفاً . والرسوم ممحاة غير واضحة . والماء عذب جيد ومتوافر طوال السنة . وهذه هي الآبار الوحيدة بين الجوف ونجد ، تقع في أرض غنية بمراعيها ، حتّى في أواخر فصل الصيف . ولها اهمية كبيرة لأنها صلة الوصل بين سورية ونجد ، ولأن العرب الرحل يقعون فيها على المرعى في جميع الفصول . وطوال الشهرين الاخيرين من هذا الصيف نزلت على الآبار مئات من عائلات الروّلة والشمّر والشرارات اذ وجدت مراعي تكفي ابلها العديدة . ولما بدأت الآبار تشحّ اضطرت هذه العائلات الى مغادرة المكان فرحلت قبل يومين من وصولنا .

والمسافة بين الجوف والشقيق اثنتا عشرة الى اربع عشرة ساعة ، قطعناها في ما يقرب من عشرين ساعة على جمالنا الهزيلة . وقد تكون الآبار الست هي التي ذكرها ياقوت وقال انها « ماء لبني أسيد بن عمرو بن تميم . وشقيق الشيء أحد جزأيه . وقيل : الشقيق جمع شقيقة، وهو كل غلظ بين رملين .» (*) وهذا الوصف ينطبق على طبيعة الارض التي حفرت فيها الآبار الست المذكورة. وقد لاحظت ان جميع الآبار التي مررت بها في ارض النفود هي في تربة شبيهة كل الشبه بهذه التربة .

أول أيلول (سبتمبر) — لم نسر سوى ست ساعات فقط ، فقد قضينا أكثر النهار عند الآبار نملأ قربنا ونسقي جمالنا . ثم سرنا ، كأمس ، في اتجاه جنوبي – جنوبيّ شرقي ، ورأينا الى يميننا طوال الوقت سلسلة منخفضة من الجبال اسمها « الطوال » ، تمتد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، ما لبثت ان اختفت عن انظارنا في اليوم الثاني قبيل الظهر .

٢ من ايلول — سرنا أربع عشرة ساعة ونصف الساعة في الاتجاه

(*) – لم نترجم ، بل نقلنا هذا النص عن « معجم البلدان » .

عينه ، في درب واضح المعالم اسمه « الخل » ، على طول الطريق من الجوف الى جبّة ، تغطيه الرمال التي تذريها الرياح في بعض الاماكن . وهذه الرمال حيّرت دليلنا ولم يعد متأكداً من أننا على الطريق الصواب ، ولكن في الصباح بدت أمامنا في الافق — اي الى الجنوب — الجنوب الشرقي — قمتان منعزلتان ترتفعان فوق هذا المحيط من الرمال كأنهما منارة تهدي الى منتصف الطريق بين الجوف وجبّة .

٣ من ايلول — وصلنا بعد ثلاث ساعات الى الجبلين ، وهما متلاصقان تقريباً . وتبدو قاعدتاهما كأنهما واحدة ترتفع منها القمتان في شكل مخروطي . والقمة الشمالية اسمها « العليم » ، واسم الثانية : « التركي » . وقد تكونان القمتين اللتين اسماهما ياقوت باسمي : « السعد » و « دجوج » وقال إنهما على يوم من دومة الجندل وترتفعان عالياً وتكادان تتلاصقان . ويقول ياقوت أيضاً ان دجوج رمال تمتدّ على مسيرة يومين لتكون على يوم واحد من تيماء التي تبتدىء بعدها الصحراء (الصحراء السورية على الارجح) .

« دجوج : رمل متصل بعلم السعد : جبلان ، من دومة على يومين . ودجوج : رمل مسيرة يومين إلى دون تيماء بيوم ، يخرج إلى الصحراء بينه وبين تيماء » . — ٨ : ٤٤٢ — ط . داري صادر وبيروت .

وعلى يوم من تيماء تبدأ أرض النفود . والمسافة من القمتين الى تيماء تقدر بمسيرة ثلاثة أيام على الارجح . ومسافة اليوم الواحد — التي قال ياقوت انها تفصل بين الجبلين والجوف — لا تتوافق وبعد القمتين عن الجوف .

وللجبلين اهمية العلامة ، وهي أهمية كبيرة في صحراء يسهل فيها ان يتيه المسافر بسبب رتابة مناظرها . ومن الجبلين سرنا في ذلك اليوم اثنتي عشرة ساعة ونصف الساعة .

٤ من أيلول — مشينا ثماني عشرة ساعة وثلاثة أرباع الساعة . وفي الصباح الباكر شاهدنا امامنا في الافق – الى الجنوب الجنوب الشرقي – جبلا آخر اسمه جبل ام سلمان وفي سفحه مدينة جبّة التي نقصدها . فتابعنا السير في اليوم الثاني ثلاث عشرة ساعة حتى وصلنا الى جبّة .

طالت الرحلة من الجوف الى جبّة سبعاً وثمانين ساعة . وكانت جمالنا ضعيفة جداً وهزيلة ، ولا سيما في خلال الايام الاربعة الاخيرة إذ لم تذق فيها الماء . وكثيراً ما بركت تعباً في اليومين الاخيرين بالرغم من الضربات والرفسات التي انهالت عليها لحثها على القيام . واضطررنا لان نترك جملا ملقيّاً في ظل شجيرة . وكانت الجمال ترعى في الطريق ما تلقاه من عشب يابس . وصار بعضها الذي لا يمتطيه احد يبعد أحياناً عن الدرب (طلباً للمرعى) فنضطر ، انا ودليلي وزوجته الحاملة طفلها على صدرها ومعها ولداهما الصغيران ، ان نترجل لنعيده الى الدرب مما سبّب لنا تأخيراً كبيراً . واذا نظرنا ، بالاضافة الى ما تقدم ، الى طبيعة الارض المتموجة ذات التلال والاودية المتتالية ، والتي تغطيها رمال ناعمة كانت حوافر الجمال تغوص فيها أحياناً ، واذا نظرنا أيضاً الى انعطافات الدرب وانحناءاتها لتفادي الارض الوعرة ، قدّرنا ان جميع تلك العوائق زادت ما يقرب ثلث المدة من الوقت عما كنا نحتاج اليه لقطع المسافة عينها في أرض متساوية سهلة . واتجاه طريقنا كان نحو الجنوب – الجنوب الشرقي ، وفاقاً للقاعدة التي ينصح بها سكان المنطقة للمسافر الذي ينوي قطع هذه الصحراء ، وهي : « اتجه بحيث يكون النجم القطبي على عظم لوح الكتف اليسرى . »

تقع جبّة في سهل فسيح اهليلجي ، تربته حجرية صلبة تميز مواضع المياه في هذه المنطقة ، ويحيط بالسهل تلال متصلة منخفضة جداً ومكوّنة من صخور رملية ، يرتفع فوقها الى الغرب – الشمال الغربي جبل « أم سلمان » العالي ، والى الشرق – الجنوب الشرقي قمة أخرى أقل علوّاً اسمها « الغوطة » .

والمسافة بينهما عشرة أميال انكليزية تقريباً . والسهل في الاتجاه الآخر من الشمال الى الجنوب اطول قليلا من هذه المسافة . والتلال التي تحدّ السهل في الطرف الجنوبي منخفضة جداً ، تغطيها الرمال جزئياً ، حتى ليصعب تمييزها عن تلال النفود الرملية المتاخمة لها . اما تلك التي في الشمال فأكثر ارتفاعاً . والى الشمال قرب « ام سلمان » قمة صغيرة اسمها عنيزة تقع في الجزء الشمالي من السهل على مسافة ميل واحد من « ام سلمان » — وتتألف من خمس أسواق هي : الطريف والسلال والحمالة والكلاب والمجعّلات . والمجعّلات منفصلة عن الاسواق الاولى وتمتد في السهل نحو الجنوب ، بينما الاسواق الاربع الاخرى تتلاصق في صفّ واحد من الشرق الى الغرب .

وتبنى منازل جبّة من اللبِن — واللبِن مادة البناء الاولى في الصحراء ، وتكاد تكون الوحيدة — وهذه المنازل فسيحة ورحبة أكثر من منازل الجوف ، وتصميمها الهندسي مختلف . ولواجهات البيوت الكبيرة شكل يحكي مداخل المعابد المصرية القديمة (PROPYLAEUM) وكل منزل له بستان يلاصقه ، وفي الغالب يحيط به ، في حين ان جميع بساتين الجوف بعيدة عن البلدة . وفي كل بستان هنا بئر للري يستقى منها بواسطة الجمال . ويعنى بالبساتين عناية فائقة ، وتنسّق تنسيقاً حسناً . وفوق الآبار عرائش ، وكذلك فوق الممرات التي تمشي عليها الحيوانات وهي تسحب الماء من البئر . والماء يسحب بدلو من الجلد . اما النخيل في جبّة فأقل جودة من بلح الجوف وتيماء . والى التمر الفاكهة الاخرى التي تنتجها هذه البلاد هناك شجرة من فصيلة الصنوبر اسمها « الأثْل » (*) تنبت قليلا جداً في المناطق الشمالية من بلاد العرب ، وهي برية ، واما في نجد فيزرعها الاهلون كثيراً لاجل خشبها الذي يستعملونه دون سواه في البناء .

(*) — الاثل : شجرعظيم يشبه الطرفاء إلا انه اعظم منها وخشبه صلب جيد تصنع منه القصاع والجفان ويعرف حبه عند العطارين بالعذبة . واحدته : أثلة (المنجد ومحيط المحيط) .

وليس في جبّة ينبوع ماء جار ، بل فيها آبار كثيرة جميعها عميقة ، ومياهها ثقيلة مع بعض ملوحة .

عدد العائلات في جبّة يقرب من مئة وسبعين بيتاً جميعهم من قبيلة أرمال التي تعتبر من أشرف بطون شمّر واعظمها شأناً . وهؤلاء الجبّيون يختلفون عن سكان المناطق التي مررت بها . وكذلك تختلف ملامحهم عن ملامح السوريين . فبشرتهم تبدو سقيمة ، وأجسامهم ضعيفة ، وفي بلدتهم أمراض عديدة تتفشى ، وقد يكون هذا سببه ملوحة الماء والتمر غير الجيد الذي هو الغذاء الرئيسي للسكان ، هنا وفي أنحاء نجد جميعاً . وعيش الجبّيين هو عينه عيش البدو الرحّل ، فيما عدا أنهم يقيمون في مضارب ومنازل ثابتة . وأكثرهم يملكون قطعاناً كبيرة من الابل يُوكلون العناية بها الى اخوانهم البدو او يرسلونها مع رعاة منهم الى الرعي في الجوار . ويساعدهم موقع البلدة وعدد رجالهم على درء هجمات الاعداء ، وعلى عدم وقوع اي نزاع بينهم وبين شيوخ البدو والرحّل ، بل انهم يغزون بدون انقطاع الشرارات والقبائل الاخرى في الاجزاء الشمالية من أرض النفود .

وبحجة الحرب المقدسة (*) ضد الكفّار (كذا ...) الذين لا يؤدّون الزكاة ولا يعملون بالتعاليم الاخرى من القرآن الكريم يوالي الجبيّون الاغارة — ويعدّون هذا من واجبهم بوصفهم موحّدين حقيقيين — على جميع القبائل التي لا تذهب مذهب الوهابيين ، ويضطهدونها وينهكونها حتى يرغموها على مخالفة شمّر بتأديتها الزكاة لشيخهم وبموالاتها اياه . وفي هذا الصيف غزت جماعات منهم — واحدتها من مئة مقاتل — الشرارات خمس غزوات وأخذوا منهم ما يفوق ألفي جمل .

قلّ أن يأتي جبّة باعة جوّالون او تجار عابرون ، كالذين نلقاهم في

(*) يريد : الجهاد في سبيل الله

القرى على درب الحج وفي بلدان الصحراء الكبيرة . غير أني لقيت أثناء اقامتي في البلدة تاجراً من المدينة المنورة كان يتذمّر من قلة العمل . والسكان يشترون ملابسهم ولوازمهم من حائل . ويشترون مؤنتهم ، القليلة ، من الارز من العراق بواسطة حلفائهم من البدو . وهم يزرعون بأنفسهم القمح والذرة والشوفان وغالباً ما يفوق المحصول حاجتهم .

ويأتي الى هنا كثيرون من قبائل مختلفة ، ولا سيما في موسم التمر . وفي اثناء اقامتي في جبّة بلغ عدد خيام البدو الرحّل في السهل ، وبين المنازل ، اكثر من مئة وخمسين خيمة جلّهم من الرولة وشمّر ، وكان في العداد ايضا افراد من عنزة، وبشر، وتقراء، ومن الشرارات وهوازم (*) الذين حالفوا شمّر . وحشود الرحّل لا تفارق جبة في جميع الفصول لان في جوارها اخصب مراعي منطقة النفود ، ولانها المحلة الوحيدة التي فيها ماء بين هذه المراعي والشقيق .

ان التقاليد القليلة التي ورثها اهل جبّة عن اجدادهم وعن اصحاب ارضهم القدماء ، هي التقاليد التي يعمل بها الشمّريون . ولا اشير هنا إلاّ الى ما يتعلق منها بجبّة وحدها لاني سأذكرها فيما بعد .

يرتفع جبل ام سلمان حوالي خمسماية قدم عن السهل ، ويشكّل علامة بارزة في المنطقة . ويقال انه في الازمان السالفة كان اسمه القطيفة . وسنحت لي الفرصة مرارا في رحلتي ان اعرف كيف تستبدل باسماء حديثة اسماء المواضع القديمة التي نقلتها الينا التقاليد او الجغرافيون . وهذا التغيير امرٌ طبيعي جدا في بلاد العرب حيث تعاقب الكثيرون على حكم منطقة ما ، او على الاقامة فيها . ومن المحتمل كثيرا ان يكون هذا التغيير قد حصل لجبل ام سلمان . فالكلمة تبدو حديثة . ومثله حصل لقمة التركي التي سبق ذكرها .

(*) — هكذا كتبها . وصوابها في الارجح : هوازن

والسكّان الحاليون يروون ان سلفاءهم في هذه الارض كانوا يقيمون منازلهم وقصورهم في الجبل حيث تشاهد آثارها حتى اليوم . وقد دلّوني الى مواضع اسواق البلدة القديمة والى طرقها الممتدة بين الجُروف (*) وهم يزعمون ان جوانب الجبل العمودية المرتفعة انما هي بقايا جدران القصر الذي بناه الجنّ لايواء الجدود. واكّدوا لي انه يعثر احيانا على قطع ادوات في بعض شقوق الجبل .

اما انا فلم ألحظ في بقايا منازل اجدادهم المزعومة سوى كهوف خربة وشقوق في جبل من صخور رملية لينة . وبفعل الازمان فُتّتت تلك الصخور وصارت مغاور وشقوقا كبيرة فجعلتها مخيّلاتهم الواسعة منازل وقصوراً سكنها جدودهم . وربما كان هؤلاء من ساكني الكهوف . ومن المحتمل ايضا ان تكون تلك الكهوف من صنع زلزال شديد مفاجيء ، فهنالك حجارة ضخمة جدا وصخور كبيرة قد تناثرت في السفح مما يحمل على الظن انها انسلخت من القمة وتدحرجت الى اسفل . وهكذا يبدو السهل من داخله وكأنه وادٍ صغير او قاعة كبيرة بلاطها الجبال وجدرانها الجبال . ويقول السكان ان السهل بكامله — لا جزءاً منه — كان يزرع في القديم وتغطيه حقول الذرة والبساتين ، ويرويها كلها نبع في ام سلمان لا يزالون يشيرون الى رأسه في احد الشقوق . وكان الماء ينقل في اقنية الى السهل المجاور . ويقال ان بعض الاثلام التي نراها في اجزاء من السهل تشير الى مجاري الاقنية . ويقال ايضا ان الآبار في ذلك الزمان كانت غزيرة وعديدة اكثر منها اليوم ، حتى لتتسع فوهة الواحدة منها لستين دولابا تسحب بها جميع الدلاء الجلدية الثقيلة في آن واحد . اما اليوم فالنبع جاف . وجميع محاولات السكان للعثور على طرفه قد ذهبت سدى . وكذلك فشلت التعاويذ والرقى التي يرغمون كل غريب يأتيهم على التلفظ بها لعل الماء يفور من جديد .

(*) — جمع جرف ، بضم الجيم ، وهو المنحدر الصخري الشاهق .

وصاحب «القاموس» هو الكاتب العربي الوحيد الذي ذكر هذا المكان وقال : ان جُبّة لبني طيّء . وياقوت يذكر «قُطيفة» على انها جبل في اعلى طرف وادي مُبْهِل كان لعبدالله بن غطفان . وينقل عن ابي زيد(*)«ان قطيفة ماء لعمرو بن كلاب». ولاثبات هذين القولين روى شعراً لامرىء القيس في الأول ، وشعراً لابي جابر الكلابي في القول الثاني (**) . ويجوز عد القولين صحيحين فيما اذا ذهبنا الى ان امرأ القيس يعني الجبل وان الشاعر الآخر يعني النبع الجاف . ولعل النبع كان ذا مياه في زمانه. واذا كان مُبْهِل اسم السهل الذي فيه البلدة — ولم يطرق هذا الاسم سمعي أبدا — كان جبل ام سلمان في طرف السهل الاعلى ، وذلك لان السهل ينحدر نحو الجنوب — الجنوب الشرقي باتجاه قمة الغوطة المقابلة .

وعلى جوانب ام سلمان ، وعلى الصخور الضخمة الكثيرة في سفحه ، نقوش عديدة مختلفة،بعضها نقش بأداة حديدية حادة ونقش البعض الآخر بألواحٍ حجرية لونها ضارب للحمرة ، وأكثرها من صنع الصغار الذين يمضون الوقت في نقشها وهم يرعون المواشي . ولكن هناك ، ولا ريب ، نقوشا تعود الى الماضي البعيد ، وأكثر أشكالها تمثّل جمالا ، وخيلا ، وخيلا اخرى يمتطيها فرسان حاملين رماحا ، وتمثل كلابا ، وخرفانا وحيوانات برية من الصحراء . ولفت نظري رسم قديم يمثل عجلة صغيرة ذات اربعة دواليب منخفضة جدا يجرها جملان . ومن المشهور ان العجلات ، اليوم ، نادرة جدا في الشرق، ولا سيما في بلاد العرب حيث لم أرَ سوى في تيماء اناساً يستعملون

(*) هو احمد بن سهل البلخي ، رحالة وفيلسوف عربي من علماء القرن العاشر

(**) — في ما نقله ، هنا ، ، الرحالة ثالين عن ياقوت تشويش . فمعجم البلدان لم يشر الى « قطيفة »، بل ذكر « القطيفة » (بتشديد الياء) على انها تصغير لتصغير ، وانها قرية « دون ثنية العقاب للقاصد الى دمشق في طرف البرية من ناحية حمص . »

وقال عن مبهل (وقد ضم الميم وكسر الهاء) انه « ماء في ديار بني تميم . » ثم ذكره الاصمعي انه « واد » لبني عبد الله بن غطفان . وفوقه معده البئر » .

احياناً عجلة صغيرة لها دواليب منخفضة بجرّ الحجارة وهي تشبه بمنظرها وتركيبها العجلة المرسومة على صخرة في سفح ام سلمان .

ان جميع هذه النقوش والرسوم غير متقنة ، صنعتها يد غير مدرّبة ، وتحاكي تلك التي رأيتها في اماكن اخرى من شمالي بلاد العرب ، في جوار تبوك . ووجدت أطولها واوضحها في الجانب الشمالي الشرقي من ام سلمان ، على سطح يخيّل الى الناظر ان قسما منه سوّي لهذه الغاية . والحروف مطموسة في الصخر الرملي الهش وتصعب قراءتها . ولعل هذه الحروف ، او العلائم ، نقشت في الاصل على كامل جزء مسطح في جانب جبل له شكل القطع الناقص (*) . وقد قدرتُ طول اكبر قطريه بحوالي الياردة . وتُرى نقوش اخرى على بعض الصخور الضخمة المنقورة في السهل بسفح الجبل .

وفي اسفل النقوش رسم جمل . وقيل لي ان جوانب السلسلة مغطاة جميعها برسوم ونقوش كهذه ، فنزلت الى السفح متفحّصاً جوانب الجبل والصخور وتبين لي ان النقوش تكاد لا تذكر كلما ابتعدت عن القمة الرئيسية ام سلمان . وعلى الجانب الشمالي الغربي من ام سلمان وجدت نقشاً بالحرف الكوفي يحتوي على البسملة فقط ، ولم أجد نقوشا بالحرف العربي الحديث .

١٨ من ايلول (سبتمبر) — غادرت جُبّة يرافقني دليل من شمّر وسرنا عبر السهل باتجاه قمة الغوطة ووصلنا اليها بعد ساعات ثلاث . وفي الجانب الآخر من القمة ، ومباشرة ، تبدأ ارض النفود مرة اخرى وقد اعترضها سهل جبّة المتموج بالتلال والاودية الرملية .

ومن هنا تُشاهد قممٌ معزولة كثيرة ترتفع فوق المتموجات ويحدّها كلها سلسلة جبال أجأ العظيمة التي بدت لنا من بعيد الى الشرق — الجنوب الشرقي .

(*) — اهليلجي Elliptique

سرنا اليوم ست ساعات اخرى فقط .

١٩ من ايلول (سبتمبر) — وصلنا بعد تسع ساعات في سيرنا نحو الشرق — الجنوب الشرقي الى قرية صغيرة اسمها قَنا ، في سهل ارضه « طباشيرية » شديدة البياض ، وتحيط بالسهل سلسلة من تلال صخور رملية . وسكان القرية خمسون عائلة من قبيلة ارمال ، وفيها ست آبار عميقة ، مياهها غزيرة وعذبة ، وبين الواحدة والاخرى مسافة قصيرة ، وقامت حول كل بئر في السهل قرية صغيرة من ستة منازل الى عشرة ، وتتصل بها بساتينها . وسكان قَنا يجزمون، مثل سكان نجد ، بان بلدتهم مسقط راس ابي زيد بطل بني هلال الشهير في حكايات العرب . وان « السلطان » حسناً ، زعيم بني هلال اقام هنا .

وينقل ياقوت عن ابي زياد (٢٣) ان قَنا ماء لبني قُشَير ، ونقل ايضا عن رجل من طيّءٍ : أن « قَنا جبل في شرقي الحاجر ، وفي شماليه جبلان صغيران يقال لهما صايرتا قَنا ». (انظر ملحق التعقيب والاستدراك، رقم (٢٤) .

وعلى ساعة الى الجنوب من قَنا تنتهي فجأة ارض النفود وتتحول الى ارض مستوية ، صلبة ، تغطيها طبقة رقيقة من الحصى الغرانيتية (*) الخشنة . وهذه الارض الجديدة يتألف منها اكثر نجد ويسميها العرب « قاعا » لاستوائها ، ويسمونها « جَلَدة » لصلابة تربتها . اما الارض المتموجة وذات الجبال او التلال الرملية فيسمونها « وَعْرا » (**).

واسم «النفود » يكاد يكون الاسم الوحيد الذي يطلق اليوم على البقعة الرملية الفسيحة التي جعلناها سبيلنا من الجَوف . وكلمة النفود — مثل اليوم كلمة

(*) — الغرانيتية هي الحجر المانع المحبب .

(**) — جاء في « محيط المحيط » : الجلدة الارض الصلبة المستوية . والقاع الارض السهلة المطمئنة التي انفرجت عنها الجبال والآكام . والوعر ضد السهل .

« البطحاء » ـ تستعمل لتعني الرمل الناعم المتفكك ، وتطلق على كل منطقة او سهل او وادٍ تربته من هذا الرمل . وفي اللغة القديمة كانت تعني القحط وعدم وجود المؤنة والماء . ومن المحتمل انها اطلقت في البدء على كل بقعة صحراوية فسيحة يتعرض فيها المسافرون وجمالهم للهلاك بسبب طول الدرب ونقص المؤنة والماء . وهكذا استعملت كلمة « مهلكة » وكلمة « بيداء » للمعنى عينه . والاراضي التي تنطبق عليها هذه التسمية قليلة ، ولعل اجدرها بها هي هذه البقعة المعروفة اليوم باسم النفود . وقليلا ما يسميها السكان الحاليون باسمها القديم « الدهناء » الذي عرفها به كتّاب العرب . واذا ما استعملوا كلمة « الدهناء » فللدلالة على رمل ناعم وكثير . وهم يقولون الدَّهَناء (بفتح الهاء وليس بتسكينها). ولم تطرق سمعي لفظة « ضحي » سوى مرة او مرتين . ويستعملون كلمة « طاووس » لتسمية التلال الرملية التي تكثر في النفود .

ان النفود من اعظم بقاع بلاد العرب ومن اوسعها . تغطي نصف الجزء الشمالي بكامله من البلاد العربية . واذا عددنا وادي السرحان جزءا منها كان بدء حدودها الغربية من جبل حلوان المنعزل ، وهو على مسيرة ثماني ساعات الى الشرق من تيماء ، الى وادي اويسط ومنه الى محلة تبعد يومين الى الجنوب او الجنوب الشرقي من دمشق . والحدود الجنوبية تمتد من حلوان بشكلٍ نصف دائري ، وعلى طول الطريق الذي اتبعته من تيماء الى جبل شمّر ، وتقترب هذه الحدود كثيراً من جبل أجأ ، حتى لتكون منه احيانا على ساعات قليلة .

والحدود الشرقية غير (منتظمة) بسبب التلال الرملية التي تمتد بغير تساوٍ فمنها ما يصل تقريباً الى الخليج الفارسي (٢٥) ومنهـــا ما ينتهي بسرعة في السهل الحجري بين النفود وساحل البحر . واعظم هذه التلال واطولها سلسلةٌ اسمها الدهناء ، وقال لي بدو شمّر ان اولها قرب الجوف وتتتابع نحو الجنوب الشرقي محاذية مقاطعة الاحساء التي تشكل حدودها ، حتى تنتهي في راس الخيمة . ومن المحتمل كثيرا انها تتصل برمال يَبرين (٢٦) الفسيحة .

أما الحدود الشمالية والشمالية الشرقية لأرض النفود فلم استطع معرفتها معرفة اكيدة ، وقد تكون من تكملة سلسلة الدهناء الشمالية التي تنعطف الى الشمال الغربي حول ارض الجوف وتتصل بوادي السرحان . والاجزاء الغربية من النفود مرتفعة وغير سوية . وهي سلاسل تلال واودية رملية تتتالى في جميع الاتجاهات .

اما الاجزاء التي بين الجَوف وجُبّة وبين حلوان واويسط فهي متوسط النفود . والحدود الغربية تتمثل جليّا بسلسلة النفود التي بدت لي ، من المكان الذي شاهدتها فيه ، انها ترتفع ما يقرب منماية او مايتي قدم عن سطح الصحراء السورية المتاخمة ، وتتلاصق تلالاً رملية وكأنها اسناد جبال تحدّ ذلك السهل الحجري الماحل . وفي ناحية الحدود الجنوبية ، في الارض المنحدرة نحو أجأ ، تتسع الاودية لتصير سهولا مجوّفة ويقل ارتفاعها ، وتعترضها هنا وهناك تلالٌ من صخور رملية . والى الشرق ، والجنوب الشرقي ، تنحدر الارض في تلال رملية منخفضة تتفرع من الاجزاء الغربية المرتفعة . ويحيط كلّ تلّين منها بوادٍ مسطّح وطويل ينحدر على مسافة قد تطول او تقصر نحو الخليج الفارسي (٢٥) .

وما رأيته من وادي السرحان له الميزات عينها . على ان تموجات السطح فيه أقل بروزا منها في هذه البقاع . وبين وادي السرحان والنفود — وهما الجزآن الرئيسيان من هذه الصحراء الرملية الفسيحة — ترتفع عالية سلسلة « جبال الجوف » والارض الجبلية المتاخمة لها ، وتطلّ على هذين الجزءين ، وتمتدّ على جانبيها تلالٌ من الرمال .

ان أرض النفود من اغنى مراعي بلاد العرب ، لكن العرب لا يرورونها إلاّ في فصل الربيع فقط ، طلباً لمياه الامطار التي تتجمع في برك واحواض . والماء قليل جدا في اجزائها الوسطى ، لذا يندر ان تشاهد مضارب للبدو بين

الشقيق وجبّة . اما الاجزاء الشمالية من وادي السرحان ومنحدرات النفود الجنوبية المتاخمة لجبل شمّر فيزورها العديد من البدو طوال السنة .

وينزل الشرارات والرولة في الاجزاء الشمالية من وادي السرحان ، ويضرب بشر والشمّر في المنحدرات . وفي المنحدرات الشرقية يتنقل الشمّر والضفير والمنتفق في الشتاء والربيع . اما في الصيف فيتجه البدو جميعا الى الاراضي المزروعة : فالشمّر الى اراضيهم والآخرون نحو الفرات ودجلة . وفي هذه الآونة يصادف القليل من البدو في الدهناء إلا عائلات من سلابة ، اوضع عشائر هتّيم .

وقرب آبار « لينة » الغزيرة تنزل احيانا احدى القبائل الكبيرة وترعى قطعانها في الارض المجاورة . واقامتهم هناك خطرة لانهم يتعرّضون لجماعات البدو الغازية التي تمر بالمكان كثيرا لتموين الماء . وفي هذه النواحي من المنطقة تكثر الآبار والصهاريج ، غير ان كمية المياه ومدة وجودها ترتبطان بهطول المطر . وقال لي البدو ان الماء العذب متوافر طوال ايام السنة في طريق الحج العراقي ، عبر منحدرات صحراء الدهناء الشرقية والمعروفة الى يومنا باسم « درب زبيدة ». وقالوا لي ايضا ان الآبار هنا عميقة ولكنها لا يفوق عمقها عمق الآبار المحفورة داخل المنطقة .

وفي مؤلف ياقوت الجغرافي (معجم البلدان) مقال طويل عن هذه البقعة ساحاول ان اقتطف بعضه على رغم من ان في المخطوطة التي استطعت مراجعتها اخطاء كثيرة ، واعترف باني لم افهم المعنى في كثير من المواضع . فبعد ان ذكر ياقوت اشتقاق الكلمة قال (*) : «... ولعل الدهناء سميت بذلك لاختلاف

(*) — رجعنا الى ياقوت فوجدنا ان الرحالة فالين قد استطاع فهم نص المخطوطة ، وانه ترجمه ترجمة تكاد تكون صحيحة . فاخترنا النص العربي الاصيل ، دون الترجمة ، كما جاء في طبعة دار صادر ودار بيروت .

النبت والازهار في عراضها (.....) قال ابو منصور : الدَّهْناء من ديار بني تميم معروفة . تقصر وتمدّ ، والنسبة اليها دهناوي (...) وهي سبعة أجبل من الرمل في عرضها ، بين كل جبلين شقيقة . وطولها من حَزْن يَنْسُوعة الى رمل يَبْرين ، وهي من اكثر بلاد الله كلأً مع قلة أعْذاء (*) ومياه . واذا أخصبت الدهناء ربّعت العرب جمعا لسعتها وكثرة شجرها ، وهي عَذاة مكرمة نزهة ، من سكنها لا يعرف الحمى لطيب تربتها وهوائها . (**)

ويتابع ياقوت : وقال غيره : اذا كان المصعد باليَنْسوعة — وهو منزل بطريق مكة من البصرة — صبحت به اقماع الدهناء من جانبه الأيسر واتصلت أقماعها بعُجْمتها وتفرّعت جبالها من عجمتها . وقد جعلوا رمل الدهناء بمنزلة بعير وجعلوا أقماعها التي شخصت من عُجْمتها نحو اليَنْسوعة ثفناً كثفن البعير . وهي خمسة اجبل على عدد الثفنات ، فالجبل الاعلى منها الادنى الى حفر بني سعد واسمه خشاخش لكثرة ما يُسمع من خشخشة اموالهم فيه ؛ والجبل الثاني يسمى حَمَاطان ، والثالث جبل الرمث ، والرابع مُعَبّر ، والخامس جبل حُزْوَى . قال الهيثم بن عديّ (٢٩) : الوادي الذي فيه بلاد بني تميم ببادية البصرة في ارض بني سعد يسمونه الدهناء ، يمر في بلاد بني أسَد فيسمونه منعج ثم في غطفان فيسمّونه الرُّمّة — وهو بطن الرمة الذي في طريق فَيْد الى المدينة — وهو وادي الحاجر (***)، ثم يمر في بلاد طيّء فيسمونه حائل، ثم يمر في بلاد كلب فيسمونه قراقر ، ثم يمر في بلاد تغلب فيسمونه سُوَى ، واذا انتهى اليهم

(*) — الحزن ما غلظ من الارض ، خلاف السهل . وأعذاء : جمع عذي (بكسر العين) وسكون الذال) : الزرع لا يسقيه المطر . وكل مكان لا حمض فيه . والعذاة الارض الطيبة البعيدة من الماء والوخم (محيط المحيط) .

(**) — الحمى منتشرة كثيراً في ساحل الخليج الفارسي — ڤالين

(***) — كتبها ڤالين بالزاي فقال : الحاجز .

عطف الى بلاد كلب فيصير الى النيل (*) . ولا يمر في بلاد قوم الا انصبّ اليهم كلها »

ويورد ياقوت ايضا ، على عادته ، شعرا في وصف المنطقة ، ولن انقله لانه لا يهم الجغرافية .

وذكر ريتّر على لسان HAMAKER الفقرة التي تضم كلمة (الهيثم) ويبدو ان هاماكر استعمل مخطوطة فيها من الاخطاء اكثر مما في مخطوطة المتحف الاسيوي في سان بترسبورغ . (**)

ونرى في ما تقدم ان الجغرافيين العرب لا يتفقون على عدد الجبال التي تتفرع من الدهناء ، فالبعض يقولون انها سبعة ، وسواهم يجعلونها خمسة . واعتقد ان العدد الاخير (الخمسة) هو الاصح ، ذلك لان حائل وبطن الرُمّة اللتين ذكرهما الهيثم يجب عدّهما في المنطقة التي الى الجنوب من أجأ حيث تختفي ميزات ارض النفود . وحائل هي الشقيقة (***) المسماة «البَطِين» والممتدة بين جبلي طيّءٍ ، أجأ وسلمى . اما الحاجز فيجوز القول انه الارض التي الى الجنوب من سلمى .

واذا صح ان الجزء من صحراء الدهناء الذي قال الهيثم بن عدي فيه «انه يمر في بلاد كَلْب فيسمونه قُراقِر» وهو البقعة من خرائطنا التي تظهر فيها آبار قُراقِر القريبة من الجَوف والى الشمال منه ، فمن الواضح ان اسم البقعة القديم الذي اطلقه الجغرافيون العرب كان يشمل وادي سرحان ، وان جميع المؤلفين ، وحتى ياقوت نفسه ، تجاهلوا اسم الوادي الخاص الذي يعرف به في يومنا هذا . واذا حسبنا ان حَمَاطان هو الاجبل التي تحد من الشمال الشرقي الوادي المسمّى حالياً

(*) — النيل في جوار الكوفة (فالين) .

(**) — فالين يشير هنا إلى المخطوطة التي استعملها هو .

(***) — الشقيقة هي الأرض الصلبة بين رياض . وهي ، هنا ، بمعنى الأرض — الوادي .

بوادي الحَمَاطية ، استطعنا ان نحدد بالضبط الاجبل الاربعة الاخرى . هذا واقول : اني لم اسمع السكان هنا يلفظون اي اسم من تلك الاسماء القديمة .

راجعتُ وصف رحلتي من جبل شمّر في صيف ١٨٤٨ الى مشهد علي فتبيّن لي ان الحَماطية واد ارضه مسطحة (شقيقة) وتربته اقسى من تربة النفود المتاخمة ، وتحدّه من الشمال الشرقي الاجبل الرملية المسمّاة اليوم بالدهناء ، ومن الجنوب الغربي تلال اخرى رملية متواصلة هي طرف منطقة النفود على ما قاله لي رفقائي من البدو . ويخيّل اليّ ان هذه التلال التي لا اذكر ان احداً من هؤلاء الرفقاء اطلق عليها اسماً خاصا إنما هي اجبل الرمث التي ذكرها الجغرافيون العرب . وجبال صَيْلة المنخفضة هي من الصخر الرملي ، والارجح انها جزء من اجبل الرمث . اما «الشقيقة» التي بين أجبل النفودين فتَتُعْبَر في ثلاث عشرة ساعة ونصف الساعة ، وفيها ماء بئر اسمه حَزِل .

وكذلك عبرنا في ثلاث عشرة ساعة ونصف الساعة وادياً مماثلا الى الجنوب الغربي من صَيْلة تتتابع على طوله تلال رملية من النفود اظن انها جبل مُعَبّر القديم . وفي هذه البقعة آبار عميقة اسمها «الاطواء».

والى الجنوب الغربي من الجبل يترامى سهل الخطّى الذي تحدّه من الجانب الآخر سلسلة تلال رملية من النفود تمر بمنحدرات سلسلة أجأ الشمالية الشرقية وجبال قيسي المنخفضة .

وفي هذا السهل بئر التيم . وقطعنا السهل عرضا في سبع ساعات . والنفود التي تحدّه من الجنوب الغربي هي على الارجح جبل حُزْوَى واوله خشاخش . ويقول الجغرافيون العرب انه الى الشمال ، بالقرب من الارض المنخفضة حيث ديار بني سعد ، ويجب ان يكون في شمالي الدهناء او جبل حَمَاطان في المنطقة التي نسميها اليوم «الحجارة». واذكر اني في عبوري الماضي هذه الارض مررت بتلال من النفود لم استطع يومها تحديد اتجاهها على الرغم من ان ارض النفود تنتهي في

الشمال الشرقي ، بعد جبل حَمَاطان ، وتتحول التربة هناك من رملية الى حصوية وجبلية ، وربما جاز لنا القول ان سلسلة من التلال الرملية المنخفضة توازي تلال الدهناء عبر ارض الحجارة التي يظن انها خشاخش القديمة ، وتؤلف الحدود الشمالية الشرقية للمنطقة المسماة «المُشَيقق». والمشيقق والشقيقة مسميان من اصل واحد يدل ان لهما ميزات وادٍ بين نفودين . واذا حسبنا ان هذه السلسلة تمتد بعيداً فامتدادها يكون نحو الجنوب الشرقي ، عبر الصحراء التي هي الى الجنوب الغربي من البصرة وعلى مسافة بضعة ايام منها .

لا مشاحة في أن اليَنْسوعة القديمة كانت في هذا المكان . وقيل ان في جوارها يبدأ اخر تلال دهناء النفود . قال ياقوت على لسان ابي منصور :

« ينسوعة القف (بضم القاف) منهلة من مناهل طريق مكة على جادة البصرة ، بها ركايا عذبة الماء عند منقطع رمال الدهناء بين ماوية والرياح ، وقد شربت من مائها » .

ونقلا عن ابي عبد الله السكوني يقول ياقوت ايضا :

« الينسوعة موضع في طريق البصرة ، بينها وبين النباج مرحلتان نحو البصرة ، بينهما الخبراء . ويصبح القاصد منها إلى مكة الاقماع اقماع الدهناء من جانبه الأيسر » .

ويقال ان احدى النباج (*) العديدة التي ذكرها ياقوت محلة في البصرة . فاذا حسبنا الموضع الذي يجتمع فيه الحجاج قرب البصرة نَبَاجا جاز لنا القول ان آخر مرتفعات الدهناء الشرقية هي على ثلاثة ايام الى الجنوب الغربي من البصرة . وفي هذا الاتجاه درب الحجاج من البصرة الى مكة .

ان كلمتي «القُف» و «حَزْن» اضيفتا الى كلمة يَنْسوعة للدلالة ، في

(*) – جمع نبجة ، وهي الاكمة وقد تكون عالية .

الارجح ، على الارض الجبلية والحجرية التي تحيط بها ، والتي يشير الى طبيعتها اسم «ارض الحجارة» ، وهو الاسم الذي يطلقه عليها السكان الحاليون .

والجغرافيون العرب يميّزون بين الأجْبُل والأقماع (*) التي تتألف منها منحدرات صحراء الدهناء الشرقية . ويقولون ان الاقماع على يسار درب الحج من البصرة الى مكة . ولما كانت رحلاتي محصورة في القسم الغربي من الدهناء فلم يتح لي ان اعرف ميزات آخر منحدرات الدهناء نحو الخليج الفارسي (٢٥) .

ولكني استدل من اقوال المؤلفين العرب الى ان الجزء الشرقي من هذه الارض الرملية الفسيحة — من اليَنْسوعة الى يَبْرين (٢٦) — تعترضها بقعة ضيقة تربتها اكثر صلابة ، تفصل بين الاجبل والاقماع ، واكثر مياه المنطقة هي في هذه البقعة التي من نوع الشقيقة بسبب موقعها ، ولهذا تمر فيها درب الحج من البصرة الى مكة (المكرمة) ، ويمر فيها ايضا جزء من درب زبيدة .

وباستطاعتنا القول ان الاراضي التي الى الشرق من هذه البقعة تتألف من تلال رملية لها ميزات تلال وادي السرحان في الطرف الآخر من النفود . والبدو الذين رافقوني الى بلاد ما بين النهرين (العراق) لم يذكروا امامي اية مرة ارض تلال النفود هذه ، وكذلك لم أجد عند المؤلفين العرب اي دليل لتحديد مدى امتداد هذه التلال الى الخليج الفارسي .

وفي رأيي الشخصي ان نفود الدهناء قد تشبه بعض الشبه ارض الرمال اليمانية الفسيحة المسماة بالاحقاف ، وبهذا يكون ما في داخل بلاد العرب مؤلفا من هضبتين واسعتين من الرمال تفصل بينهما ارض نجد التي في وسط شبه الجزيرة .

وسلسلة أجأ تردّ عن نجد رمالَ الدهناء في الشمال ، وجبالُ العارض تردّ عنه رمالَ الاحقاف في الجنوب . اما في الغرب فتقف رمال الهضبتين المذكورتين

(*) — أورد فالين كلمتي الاجبل والاقماع بالعربية وبالحرف اللاتيني معاً .

امام جبال الحجاز المنيعة الممتدة على طول ساحل البحر الاحمر ، وتقف ايضا عند الاراضي الجبلية العالية (السروات) المتفرعة من جبال الحجاز ، في حين ان الهضبتين تنتهيان في الشرق ، نحو الخليج الفارسي في ارض ساحلية منخفضة : الدهناء في وادي الأحسا والاحقاف في وادي مَهْرَة ، وتصل بينهما من هذه الناحية تلال الدهناء الممتدة بين اليَنْسوعة ويَبْرين .

وان استطيع تأكيد ما اذا كانت الهضبة الجنوبية ارضاً فسيحة من الرمال تملأ البقعة كلها ، من جبال العارض الى جبال اليمن ، وتشمل الاحقاف والرُبعَ الخالي الذي يشار اليه في خرائطنا بانه قفر بلاد العرب الخالي من السكان ، ام هي مقسومة قسمين بواسطة أجبل تمتد من جبال عُمان الى ارض نجران في اليمن . وهناك بتاع لم يطأها سوى قليل من شجعان البدو ، ولم يذكر المؤلفون اية معلومات عنها .

وبعد ، فيستنتج من وصفي للدهناء وللتلال الرملية الممتدة من اجزائها الغربية المرتفعة نحو الخليج الفارسي ان الارض تنحدر في اتجاه جنوبيّ – شرقي . ورأيي ان شبه جزيرة العرب بكاملها ينحدر نحو الجنوب او الجنوب الشرقي ، خلافا لما قاله ريتر وبعض المؤلفين العرب عن ان هذه البلاد تزداد ارتفاعا كلما سرنا نحو الجنوب . واني أعدّ سورية والصحراء المتاخمة ومَهْرة اوطاها ، رغم ان جبال اليمن قد تعلو اكثر من ارتفاع اجبل نجد . وأنّى ذهبتَ في الداخل ، الى الشرق من حاجز الجبال ، وجدتَ الاودية والسيول تنحدر كلها الى الجنوب او الى الشرق .

ويظهر ان المناخ ايضا يثبت انحدار بلاد العرب نحو الجنوب الشرقي ، فالاجزاء الغربية من شبه الجزيرة مناخها جيد صحي ، وجميع السكان يقولون ان المدينة (المنورة) وجبل شمّر والجوف مناطق صحية جداً في حين يشكى من سوء المناخ في الرياض والمحلات الشرقية بنجد . وتتفشّى الحمّيات اكثر ايام

السنة في ساحل الخليج الفارسي . ويذكر المؤلفون العرب ان جو يَبْرِين ممرض . والناس لا تقرب المستنقعات في البصرة والاهوار في العراق لشدة الحرارة والرطوبة فيهما . ويصح قول هذا ، الى حدّ ، في سواحل البحر الاحمر : فمناخ جُدّة مثلا ، وحتى مكة ، يعدّ غير صحي بالنسبة لمناخ المناطق المرتفعة في داخل البلاد ، الا انه في السواحل المذكورة وفي الاجزاء الشمالية خاصة احسن كثيرا منه في سواحل الخليج الفارسي (٢٥) فهو صحي والامراض فيها قليلة نسبيا . وهذا رأي المؤلفين العرب ايضا .

ويعبّر السكان عن انحدار بلادهم نحو الجنوب او الجنوب الغربي بقولهم انهم «ينزلون» اليها من سورية ، او «يصعدون» منها الى سورية ومصر . والمقيمون في جبل شَمّر « يصعدون » الى المدينة و « ينزلون » الى ديار ابن سعود والى البصرة والعراق . ومن المحتمل ان يكون العراق أوطى بلاد آسية . ويخيّل الي ان تسمية نجد باسمه هذا نتج عن مقابلة ارضه المرتفعة بأراضي اليمن وجنوبي الحجاز التي انطلقت منها الهجرات الكبيرة منذ الأيام الأولى الى اجزاء شبه الجزيرة الداخلية والشمالية . واما من الشمال الى الجنوب فالهجرات كانت قليلة جدا .

ويعتقد النجديون اعتقادا قديما ان الريح من القوى الطبيعية التي ساهمت ، في طورٍ من الاطوار المختلفة ، بإحداث بعض التبديل والتعديل . ويقولون ان الله تعالى أمرَ باعصارٍ شماليّ قويّ طال مدة بعيدة وعصف بالارض وبما فيها من رمال كثيرة فأمالها الى الجنوب .

ويختلف المؤلفون العرب في الرأي حول اتجاه ميل شبه الجزيرة ، فيقول بعضهم ان اليمن وتهامة هما من نجد العالي ، وان سورية والعراق من نجد السَفْليّ . ويقول سواهم ، ومنهم صاحب «الصَّحَاح» (*) — وانا معهم — ان نجدا هو الارض

(*) — هو ابو نصر اسمعيل الجوهري . أنظر رقم (٢٧) في ملحق الاستدراك والتعقيب .

التي ترتفع من تهامة الى العراق .

لنعد الى رحلتنا :

بعد ساعتين وثلاثة ارباع الساعة من مغادرتنا قرية «قَنَا» دخلنا سلسلة أجأ المعروف ايضا بجبال حائل . وطال سيرنا خمس ساعات في منبسط بين الجبال حتى وصلنا الى قرية لَقَيطة وهي في المنبسط عينه وتقطنها ماية وعشرون عائلة تقريبا اصلها جميعا من الشمّر . ويذكر ياقوت هذه القرية بانها ماء في طرف أجأ تعرف ايضا بالبئر الصغيرة (*) . وعلى ساعة من لَقَيطة مررنا بالوقيد وهي قرية صغيرة تقطنها ثلاثون عائلة . وعلى ساعتين منها نفذنا من الجبال الى سهل مفتوح يمتدّ على طول سفح أجأ الجنوبي الشرقي . ووصلنا بعد ساعة اخرى الى حائل حاضرة جبل شمّر ومقر زعيمها وشيخ شيوخها .

(*) – قرأنا في « معجم البلدان » كلاما آخر فنقلناه في ملحق الاستدراك والتعقيب تحت رقم (٢٨)

في جبل شمّر

أجـأ وسلمى او جـبـلا طيّء

ان ابرز معالم هذه الارض سلسلتان من الجبال الغرانيتية، تحملان الى اليوم اسميهما القديمين «أجأ وسلمى». اما تسميتهما الحالية بجبل شمـّر فتعود الى اسم القبيلة التي تملكها منذ عدة قرون . وفي السالف كان اسماهما جـبـلـي طيّء باسم القبيلة التي عاشت آنئذ هنا .

وأجأ اكبر الجبلين ، يمتد من الشمال ــ الشمال الشرقي الى الجنوب ــ الجنوب الشرقي ويبلغ طوله خمسة ايام وعرضه من ثمان الى عشر ساعات ، على ما قدّرتُه اثناء عبوري في اودية مختلفة من السلسلة التي قطعتها في مكانين مختلفين . وقدّرتُ ارتفاع السلسلة بحوالي الف قدم عن سطح السهل المجاور. وارتفاعها هذا ثابت على طولها .

وسلمى ، الجبل الآخر ، يوازي أجأ ويفصله عنه سهل البطين ويبلغ عرضه مسيرة اثنتي عشرة ساعة . وهو مماثل أجأ وله الارتفاع عينه وان اختلف عنه حجما . واعتقد ان محيط هذا الجبل لا يتجاوز رحلة ثلاثة ايام . والجبلان من صخور «غرانيتية» رمادية اللون ، وتغطيهما ــ على عكس الجبال الجرد الاخرى في داخل الصحراء ــ شجيرات برية لا تختلف كثيرا عن شجيرات الجبال السورية ، وتقطع بينهما اوديةٌ وسهول ، ولا سيما في الجزء الشمالي ــ الشمالي الشرقي من أجأ .

وجبل سلمى يمتدّ نحو الجنوب ــ الجنوب الغربي حيث تليه جبال الحجاز ، مكّوناً الحدود الطبيعية لنجد من الشمال الغربي وينتهي فجأة في الشمـــال ــ الشمال الشرقي ، قرب قمة قيسي على يوم من حائل .

والبقعة الفسيحة الممتدة على ثمانية ايام شرقا الى الخليج الفارسي (٢٥)، وعشرة ايام الى العراق ، ليس فيها جبال بلا تلال من الصخور الرملية تبرز هنا وهناك فوق الرمال .

اما في الجانب الشمالي الغربي فلا يتصل أجأ بأي جبل بل يرتفع وحيدا وينتهي بانحدار شديد على عكس ما ذكره ريتر من انه ينحدر تدريجا من جهة الجوف .

وتفصل الجبال عن النفود ارض حجرية يبلغ عرضها ساعتين . ولم أرَ أبداً رمال النفود تصل الى الجبلين في احد المواضع .

ويمتد في الناحية الاخرى سهل البطين . وارضه من حجارة غرانيتية كاكثر ارض نجد . غير اني لم اشاهد في شقوق الحجارة والصخور رمالاً ناعمة على ما هو الحال في الجبال الاخرى التي هي داخل بلاد العرب . ولا استطيع الجزم بما اذا كان الجبلان عاليين في اطرافهما .

اما الاودية العديدة فتنحدر ناحية الجنوب الشرقي رغم ان أسناد الجبال في هذه الناحية لا يزيد ارتفاع جوانبها عند الشمال الغربي . وكذلك يرتفع جبل سلمى وحيداً ولا يتصل على حد معرفتي باي جبل آخر .

وهناك بالاضافة الى أجأ وسلمى ، اجبلٌ اكثر انخفاضا في هذه الديار ، واكمات معزولة من الصخور الرملية، اتجاهها معاكس اتجاه الجبال الغرانيتية . وأهم هذه الاجبل جبل مخروطيُّ الشكل ، داكن اللون اسمه «سمراء حائل» ، يرتفع قرب البلدة من الشرق ويكاد علّوه يستوي وارتفاعَ الجبال المانعة. وقد يكون «سمراء حائل» قمة العوجاء، التي قال ياقوت انها «حَدَبَةٌ» بين أجأ وسلمى .

ويروي ياقوت اسطورة ، عن «العلماء باخبار العرب» ، ان رجلا من العماليق اسمه أجأ بن عبد الحي عشق امرأة من قبيلته اسمها سلمى ، صار يلتقيها في منزل حاضنتها واسمها العوجاء ، وعرف اقرباؤهما خبرهما وقرروا الانتقام منهما فاتفق زوجها — واسمه غير مذكور — واخوتها الخمسة ، وهم : الغميم ، والمُضِلّ ، وفَدَك ، وفايد ، والحِدْثان ، على التربص بالمحبّين ، فعرفت العوجاء وانذرت أجأ وسلمى وفرّ الثلاثة فلحق بهم الستة وقتلوهم ، كلاً على جبل سُمّي باسمه . وانف المنتقمون ان يرجعوا الى قومهم فسار كل واحد الى مكان وأقام به فسمّي ذلك المكان باسمه ...

في جبَلي أجأ وسلمى آبار وينابيع عديدة تنمو حولها مزارع نخيل وذرة ويعتني بها البدو . اما في الانحاء الاخرى من المنطقة فالجداول نادرة ومياهها فاترة تشوبها ملوحة . وعلى عكسها مياه الآبار فهي عذبة وخفيفة تسهل الهضم . وسكان حائل يقولون : يستطيع الرجل ان يأكل خروفاً مشويا كاملا فيما اذا شرب قصعة من مائهم مع الاكل . ويخرج الماء من الآبار العميقة فاترا ويبرّد في جلود . وهذه الجلود يستعملها العرب للتبريد بدلا من الجرار الفخّارية التي يستعملها المصريون وسواهم من سكان الشرق .

والآبار المحفورة دائرية الشكل تحاط فوهاتها بحائط من الحجارة ويبلغ متوسط عمقها عشرين الى خمس وعشرين قامة . والعثور على الجدول الجوفي — وهو البحر عند العرب — الذي تجري فيه المياه المتجمعة في الجبال يتطلب مهارة فائقة . وشاهدت آباراً عميقة جدا حفرت في هذه المنطقة ، وفي مناطق اخرى ، ولم يخرج منها ماء . والقاعدة الاساسية المتبعة هي انه كلما اقترب من الجبال الغرانيتية ازداد الامل بالعثور على جدول الماء الجوفي .

يُستخرج الماء بآلة خاصة لا تستعمل إلا في نجد وبلاد ما بين النهرين (العراق) وهي دولابان نُصبا عمودياً : دولاب كبير فوق وسط البئر ، اسمه المَحَالة ،

يحيط به حبل غليظ اسمه الرِشاء (*)، مربوط بدلو كبير من جلد الجمال ، والدولاب الآخر صغير اسطواني الشكل عند فوهة البئر بالضبط ، اسمه الدرّاج ، يحيط به حبل مربوط بفوهة الدلو المصنوعة من بلعوم طويل . وطرفا هذين الحبلين — أغلظهما مجدول من جلد جمل صغير ، والآخر مجدول من ورق النخل — مربوطان بسرج صغير مصنوع لهذه الغاية ، يثبت على سنام جمل ويساق الجمل نزولاً في منحدر فيرتفع الدلو الثقيل ، وما ان يعلو بواسطة الحبل الملتف حول المَحَالة حتى ينصب الماء من البلعوم الضيق المنحني فوق الاسطوانة ، في حوض مسطح ومنخفض مبْني بحجارة قرب البئر . وبواسطة جذوع نخل مجوفة تجرّ المياه من هذا الحوض الى بركة تشكّل خزّانا كبيرا في وسط الحديقة ، توزّع المياه منه في اقنية على اشجار البستان ومزروعاته وفاقاً لرغبة المالك . وهذا الخزّان يمُلأ دائما وتستخدم النساء ماءه للغسل ، ويستخدمه الرجال للوضوء الذي فرضه الاسلام . وتحيط به الكروم والاشجار المثمرة على اختلاف انواعها فتجعل منه مكاناً رطباً منعشاً يزيد في جمال البساتين وراحتها . والبساتين تكاد تكون المصدر الوحيد لعيش الاهلين فيعنون بها كثيرا .

وبالاضافة الى النخيل الذي يتوافق وتربة الصحراء يزرع السكان الاشجار المثمرة التي تنبت في المناطق ذات المناخ المشابه ، ولكنها تزرع بكميات قليلة بسبب قلة المياه وصعوبة استخراجها من الآبار العميقة وكثرة تكاليفها . وهذه الثمار لا تنضج عادة بل تؤكل فجّة لان العرب مولعون بالفاكهة الفجة وقليلو الصبر على انتظار نضجها (!)

وزراعة الخضار هنا تتفوق كثيرا على زراعتها التي شاهدتها في القرى الاخرى من الصحراء ، واخصّ بالذكر منها اليقطين الكبير الحجم ، والقرع والبطيخ بمختلف انواعه . وهم يحتفظون بكميات كبيرة لايام الشتاء . وكذلك يزرع في

(*) — الرشاء : جمعها أرشية، هي حبل الدلو ويقال أيضاً التّرشاء .

هذه البساتين القمح والذرة . والاغنياء يزرعون ايضا البرسيم علفاً لخيلهم . وتزرع الذرة في السهول المفتوحة خارج البلدة وتسقى بمياه الري ، وبالمطر احيانا .

وفي السنين الجيدة يكاد المحصول يسدّ حاجة المقيمين في البلدة وحاجة بدو الجوار . واذا قحط الموسم جلبوا مؤنهم من العراق ، من مشهد علي وكربلاء والانبار ، ومنها تستورد نجد اكثر حاجتها من الارز . والذرة المزروعة هنا تُفضَّل على المجلوبة من العراق بسبب جودتها وامتلائها . واسعارها تفوق اسعار الذرة المستوردة . والشعير هنا صنفه ممتاز يستعمل غالباً ، كما في نجد ، لصنع الخبز .

ان بني تمَيم المقيمين في هذه الديار معروفون بنشاطهم ومهارتهم في الزراعة . ولا يتعاطون سواها إلاّ ما ندر . والشمّر قوم نشيطون جدّا يميلون للتجارة والغزو ، ويُنظر اليهم بعكس ما يُنظر الى سواهم من الحَضر ، اي انهم يفوقون اخوانهم البدو شجاعةً ومهارة في فن استعمال السلاح . ولا ريب في ان ابن الرشيد يدين لهم بجميع انتصاراته على جيرانهم اكثر مما يدين بها للبدو .

عندما يقرر الشيخ غزوَ قبيلةٍ ما يدعو اليه اولا ابناء القرى فرداً فردا ، وهؤلاء مضطرون في غالب الاحيان للانضمام اليه . وهم يستخدمون خيولهم ، او جمالهم الخاصة ، وطوال مدة الحملة يقدمون المؤن والذخائر مما يملكون (*). وهم يؤلفون القوة الاساسية في الجيش . وبعدهم يدعو الشيخُ البدَو للتجمع في زمان ومكان يحددهما لهم كي يشتركوا في الغزوة . ويلبّي هؤلاء عديدين ، لعدم انشغالهم في اكثر الاوقات بامور اخرى . ويكونون احتياطيين لا يعتمد عليهم في المعارك إلاّ قليلا .

وبعد انتهاء الغزوة ينال كلٌّ من اشترك فيها ما يقرره الشيخ له من مال او

(*) — هذه العادة كانت سارية في كثير من البلدان ، نذكر منها لبنان في العهدين المعني والشهابي ، لقاء حماية الأمير للناس .

غنائم . الا ّ انهم يتذمرون من ان شيوخهم يهملون في هذه الحالات العمل بتعاليم القرآن (الكريم) والعادات والتقاليد .

ان ابناء المدن يُفَضَّلون على البدو حتى في المشاريع السلمية : فقوافل الحجّاج العراقيين والفرس التي تسير من مشهد علي الى مكة وتعود منها بعد اداء فريضة الحج يرئسها احد ابناء عائلة الشيخ ، ويقودها ابناء مدن شمّر ، في حين ان البدو الذين يلتحقون بها عددهم قليل جدا .

غير أن سكان المدن يرون من مصلحتهم الحفاظ على علائق طيبة بجيرانهم البدو لان بعضهم يحتاج الى عدد كبير من الابل في أعمالهم ، ولكنهم لا يستطيعون الابقاء على هذا العدد الكبير من الماشية في قراهم الصحراوية الفقيرة فيكلفون البدو بها في المدة التي لا يستخدمونها فيها . ولما كان الجملُ الحيوان الوحيد الذي يستخدمونه في ريّ مزارعهم وجب عليهم الاحتفاظ دائما بجمل او اكثر بحسب مساحة البساتين ، ويبدلون به جملاً آخر بعد انقضاء ثلاثة اشهر على استخدامه لانه لا يقوى على العمل المتعب الذي يقوم به في الري اكثر من هذه المدة .

والقرويون الذين لا طاقة لهم بشراء جمل للري يستأجرونه من البدو لثلاثة اشهر ، والبدو يقبضون بدل ايجار الجمال مقابل عنايتهم بها ورعيها مع قطعانهم مبلغاً من المال . وفي كثير من الاحيان يأخذون كمية من الذرة والتمر . وبهذا يدوم الاتصال والعلائق الوثيقة القائمة على النفع المتبادل بين فئتي ابناء جبل شَمّر ، مما ساعد كثيرا على تنمية قوة هذه القبيلة .

ولا ريب عندي في ان شمّر من اعظم وأشدّ القبائل في بلاد العرب . ونفوذهم يزداد سنة بعد سنة ، فمن القصيم الى حوران ، ومن ديار ابن سعود في الشرق من نجد ، الى جبال الحجاز ، خضع العرب الرحل لابن الرشيد وأطاعوه ، وأدّوا له ، لا لسواه ، الزكاة . ومن بعيد وقريب يأتي البدو وشيوخهم الى محكمته

متقاضين اليه في نزاعاتهم فيفضها لهم هو وقاضيه ، وأثناء اقامتي هنا كان عبد الله (ابن الرشيد) الامير الاريحي يستضيف مايتي شخص تقريبا جاؤوه من جميع الانحاء محتكمين اليه وهم ينتظرون صدور الحكم في قضاياهم ، او لقضاء حاجات اخرى .

وحاشية ابن الرشيد مايتا شخص اكثرهم من الزنوج المُعْتَقين ومن المصريين الذين تخلّفوا من جيش ابرهيم باشا (٣٠)،وهم ذوو اجساد قوية يتقنون استخدام السلاح ، ولهم خبرة بالحرب ، ويطيعون سيّدهم طاعة عمياء . وبهذه الحاشية التي هي حرس عبد الله بن الرشيد ، وبنفوذه الشخصي ، صارت لهذا الزعيم قوته اللازمة لتنفيذ اوامره واحكامه ، ولمعاقبة من لا يمتثل نواهيه . ولقد رأيت بعض شيوخ البدو مسجونين في قصره لرفضهم تأدية الزكاة . ورأيت واحدا من حائل قطعت يداه اذ شُكَّ فيه بانه يتآمر على آل الرشيد . وكذلك شاهدتُ مراراً الشيخ القاضي يعاقب رعاياه بضرب العصا على اخطاء ارتكبوها . وأروي هذا لاظهر الفارق الكبير بين سلطة شيخ شمّر على قومه وسلطة شيوخ القبائل الاخرى على رعاياهم . فهؤلاء الشيوخ لا سلطان لهم على اوضع من في القبيلة ، ولا يستطيعون تنفيذ ما يقررونه بسوى فصاحتهم وقوة إقناعهم وبما اوجدته لهم صفاتهم الشخصية وأفضالهم من نفوذ .

قال لي ابناء حائل إن عبد الله بن الرشيد حكم قبيلة الشمّر عشر سنوات تقريبا وكان صالح بن علي ، سلفه وابن عمه ، قد نفاه خوفا من نفوذه واعتبار الناس له ، فلجأ عبد الله الى الرياض ، التي صارت عاصمة نجد بعد تدمير الدرّعية (٣١) وأقام فيها الامراء الوهابيون من آل سعود، وحاكمهم آنذاك الامير العاثر الحظ تركي بن سعود والد فيصل حاكم نجد الحالي ، فانضم عبد الله الى حملة قام بها فيصل على ضواحي الأحساء ، وفيما هم في الغزو جاءهم نبأ بمقتل الامير تركي ، قتله ابن عمه مشاري وأعلن نفسه حاكما بعده على نجد ، واحتل قصره وطرد زوجاته ونساءه وجميع من فيه . فكتّم الرجلان (فيصل السعود وعبد الله

الرشيد) النبأ وأسرعا في العودة الى الرياض فاحتلاّها بعد معركة قصيرة بخدعة استنبطها عبد الله ، وأُخِذ مشاري اسيرا وأعدم ، ونودي من على مئذنة الجامع بفيصل آل سعود حاكما على نجد ، وبايعه السكان .

وبعد استيلائه على الحكم خلع فيصلٌ صالحاً بن علي وأرجع عبد الله شيخاً على شمّر ، تقديرا منه لبراعته وحكمته في إنجاح العملية كلها . ولما لم يكن لدى فيصل قوى كافية لدعم هذا التعيين فان عبد الله رجع الى بلده وحيدا ، متكلا على مؤهلاته الشخصية وعلى تقدير مواطنيه له، لينازل صالحاً ابن عمه وينتصر عليه. ولقد عانى عبد الله مصاعب جمّة في ذلك ووصف بعضها في شعرٍ جميل نظمه فيها ، فانه اختبأ نهارا في سلسلة أجأ ونزل ليلا الى بلدتي حائل وقفار ، الى منازل اصدقائه وانصاره الذين كانوا قد أعدّوا جماعاتهم للثورة . وما أن تجمّع معه عدد كاف من الرجال حتى جابه خصمه وقهره ، فانفضّت القبيلة عن صالح وفرّ هذا مع اخوته الثلاثة الى المدينة (المنورة) لعله يلقى مساعدة واليها التركي ، غير ان عُبَيْداً اخا عبد الله ، لحق بهم الى قرية صغيرة تدعى قصر السُلَيمى وقتلهم ولم ينجُ منه الا احدهم عيسى فتابع هربه الى المدينة حيث استقبله واليها التركي ولاطفه ووعده بجنود اتراك لاستعادة ارضه .

وفي تلك الاثناء عينها اوفد عبد الله بن الرشيد اخاه عبيداً لمفاوضة الوالي ومعه عرض يفوق عرض مناوئه فأقرّه الوالي شيخاً على جبل شَمّر . وقيل لي ان العرض يومها كان ألفين من الابل ومبلغاً من المال وهدايا اخرى . واحتفظ الاتراك بعيسى «ضيفا» رهينة حتى ينجز عبد الله وعده . ومنذ ذلك اليوم استقرّ عبد الله حاكما على بلاده دون منازع حتى وافاه اجله في صيف ١٨٤٧ (*)

وخلف عبدَالله في الحكم ولداه طلال ومتعب. وهما اليوم(**) الحاكمان معا.

(*) توفي عبد الله آل الرشيد في شهر جمادى الاولى ١٢٦٣ هـ . اي نوار (مايو) ١٨٤٧ .
(**) – كتب فالين وصف رحلته هذه التي قام بها سنة ١٨٤٥ ، بعد أن رحل رحلته الأخرى سنة=

ويعترفان ، وإن اسميّا ، بزعامة آل سعود المقيمين في الرياض، ويقولان انهما يواليانهم ، ولكنهما لا يقيمان اي دليل على ذلك إلاّ بارسالهما احيانا متطوعين لمساعدتهم في حروبهم ، وبعض الجزية التي يجزيها الشمّر من الحجّاج الفرس البائسين الطارقين ديارهم وهم في سبيلهم الى مكة . وفي اوقات اخرى يرسل الشمّر الى آل سعود جزءا من غنائم غزواتهم المتتابعة للقبائل والقرى التي لم تدخل اتحادهم(٣٢)

وقد فقد آخر الامراء السعوديين كثيرا من الهمة والحزم اللذين تميز بهما امراؤهم الاولون . ففيصل، شيخ نجد الحالي وإمام الوهابيين جميعا ، يحترمه الجميع لتقيّده الوثيق بدينه ، ويحبونه لطبعه السمح الرحيم . الا ان الكثيرين يعدّون عبد الله الحاكم الفعلي لنجد .

والواقع ان فطانة عبد الله ونشاطه ، وبسالة اخيه واقدامه ، اعطت الشمّر المكانة التي لهم الآن حتى استطاعوا ، على قلة عددهم نسبيا ، ان يتغلبوا على البدو والقرى في الجوار . وبالاسلاب التي غنموها من غزواتهم ، مضافة الى أملاك صالح بن علي واعوانه التي صادروها ، صارت قبيلتهم من أعظم القبائل ومن أشدّها نفوذا .

لكن القوة والغنى لم يكونا ، وحدهما ، سببا في نفوذ عبد الله بين العرب ، بل كان ذلك لصفاته الشخصية الفريدة وشجاعته ورجولته وعدله ، وعلى قساوته احيانا ، ولمحافظته على وعده وعهده — لم يعرف عنه انه نكث وعدا اعطاه — ولحسن ضيافته وكرمه على الفقير حتى صار معروفا عنه انه لا يطرق سائل بابه الا ساعده . وهذه الفضائل — وهي رأس فضائل البدو — كان عبد الله يتحلّى بها . وعلى الرغم من هذا كله كان له خصوم كثرٌ من الذين نجوا من عائلة سلَفه صالح ابن علي ، ومن الجعافرة . وقد سمعتهم يشكون من حكمه المستبد ومن قساوة اخيه عُبَيْد وظلمه .

= ١٨٤٨ ، فقوله « وهما اليوم » يعني يوم كتابته وصف الرحلة لا يوم قيامه بها .

ويمدح العرب الحاكمَين الحاليين(*)، طلالاً ومتعبا، بانهما يتحليان بصفات والدهما وشمائله ، على ان طباعهما انعم والطف . واني لاخشى ان يعجزا بعد وفاة عمهما عبيد عن وقف حركة عدم الرضى الآخذة بالغليان ضدّهما .

ومهما تكن النتيجة فمن المؤكد انه قبل عهد عبد الله لم يستتب أمر للافراد ولا للاملاك ، ولا يزال بعض المعمّرين يذكرون اياماً لم يكن احد يجرؤ فيها على السفر من حائل الى قفار ان لم يرافقه عشرة او عشرون مسلّحا . وقفار على ثلاث ساعات فقط من حائل مشيتُ اليها وحيدا . والسائد بين السكان الآن ان ايَّ فرد يستطيع السفر في هذه الارض من طرف الى آخر حاملا ذهبه فوق رأسه دون ان يعترضه معترض . وقيل لي ايضا ان القرويين كانوا منشقين في السابق جماعات متنازعة يسلب بعضها بعضا وينهبون في اية مناسبة .

ومنذ بدء الدعوة الوهابية والشمّر ابطالها وأتباعها المخلصون الغيارى ، عملوا الكثير لنشرها في شبه الجزيرة ، وعملوا لدعمها ايام خفّت حمية المنتمين اليها . عملوا مقاتلين اشداء في جيوش السعوديين ، ومحاربين لحسابهم الخاص . ومع ان الحماسة الصاخبة، الى الصرامة القاسية التي اعتمدها اوائل المبشّرين بالدعوة ، وحماتها في نشر تعاليمها الدقيقة ، تراخت بعض الشيء ، وازال مرور الزمان الاندفاع والتطرف اللذين يرافقان نشر مذهب جديد ، فالسكان هنا — في المنطقة التي ظهرت الوهابية فيها — لا يزالون يتمسكون بالدعوة بدقة، ولا سيما في الشرق من نجد حيث ديار آل سعود .

وقيل لي ان الشعب مخلص لعقائد الدين وتعاليمه، يتقيد بها ويؤمن بصحتها ايماناً لا نكوص عنه ، وان الافراد يمتثلون لفرائضه الصارمة المتعلقة بالطقوس الظاهرة ، وبالحياة والعادات البسيطة التي نصت عليها هذه الفرائض .

في ايام الوهابيين الاولين كان تدخين التبغ ، مثلاً ، ممنوعا منعا باتا بحجة انه

(*) — أنظر الحاشية الثانية في الصفحة ١٠٢ .

نبت ينمو ببول ابليس (كذا !) ، وكـــان لبس الحرير محرّما على الرجال ولا يسمح للنساء بارتدائه إلاّ في حالات قليلة . وكان الشعر والموسيقى واللهو من المحرّمات . وكانوا يقولون ببعض موانع في اكل الارز بحجة انه لم يكن من طعام العرب في ايام الرسول (صلعم) وان الرسول لم يأكله . وهم ينصحون باكل الشعير تفضيلا على القمح ، وبانه افضل غذاء للوهابي الصادق . وكانت اتصالات الصداقة بالمسلمين الاخرين تعد غير مشروعة . وكان واجباً دينيا على الوهابيين ان يحاربوا كل من يرفض جحود عبادة الاولياء الخ ... واخبرني اهل حائل وهم يتهكمون بان اتباع ابن سعود لا يزالون يخضعون لهذه القيود ، ولموانع اخرى ، في حين انها زالت او عدّلت عند عرب شمّر الذين عادت عليهم علائقهم المتواصلة بالعراق والحجاز ومصر والغرباء ممن زاروا ارضهم بحرية اكثر ، فصار احدهم يؤدّي العبادة بثوب نصف حريري ، او يرتدي في ساعات اخرى ثوبا حريريا ، إلاّ ان صلواته وهو يرتدي الحرير غير مقبولة . وصار ايضا يغض النظر عن تدخين التبغ ، وقد اخذ هذا التدخين بالشيوع تدريجاً ، إلاّ أنّ مدخّنه مكروه ولا يسمح له بان يقوم بدور الإمام في المصلين . واكثر الاهلين يحرّمون تدخين التبغ . واذكر ان شمّريّاً قال لي انه لا يحمّل جمله نبتة من التبغ الكريه وإنْ أُعطي حِملاً من الذهب .

ان العقيدتين الرئيسيتين في المذهب الوهابي ، اللتين يعمل بهما عرب الشمّر ، هما عدم الاعتراف بوساطة (يريد شفاعة) الاولياء ، وحتى بوساطة الرسول ، بين الله والانسان ، ووجوب الصلاة علناً في المسجد مع الجماعة ، لا بمعزل عن الناس في المنزل كما هي العادة عند المسلمين الآخرين . ولهذا تجد في كل حي من الاحياء مسجدا صغيرا يجتمع فيه الناس للعبادة الجماعية في الصلوات الخمس . وان في حائل — بالاضافة الى تلك المساجد — جامعاً كبيرا في قصر ابن الرشيد يلتقي فيه المصلون كلهم لتأدية صلاة الجمعة ولسماع خطبتها .

والنساء يؤدين صلاة الجمعة مصطفّات خلف المصلين . ومن اللائق ان

يؤدين صلاة الجمعة وحدهن في المنازل . والمرأة الوهابية دقيقة في تأدية فرائض الدين . وعرفتُ ان اكثر النساء في جبل شمّر والجوف يصلين الصلوات الخمس في مواقيتها بانضباط شديد ، ولكنني لم أر في المناطق العربية الاخرى امرأة تصلي في البيت او المسجد .

والامراء الوهابيون شديدو العناية بجمع الناس لصلاة الجمعة . وحدث مرارا في حائل ان عبد الله بن الرشيد عاقب كثيرين تخلفوا عن هذه الصلاة عقابا أليما .

وفي الجامع الكبير بحائل يتلو الصلاة إمامٌ يعينه الامير ويؤدّي له مرتبا . وهو في الغالب رجل تلقّى ثقافته في المدينة (المنورة) أو في القاهرة أو في الرياض — وتشمل هذه الثقافة حفظ القرآن (الكريم) بكامله ، او حفظ جزء منه ، ومعرفة شعائر الاسلام وطرق القيام بها وهي قليلة . هذا بالاضافة الى بعض المواضيع الدينية في الشرع والاحاديث النبوية التي وضعها احمد الحنبلي في قوانين ، وهو المؤسس الاول للوهابية . ويجب على الامام ايضا ان يكون متعمّقاً حَذِقاً في المواضيع الدينية التي تثير الجدل بين الوهابيين وسواهم من المسلمين ، وقد رأينا ان عددها اخذ يقل . وما ذكرته هو ثقافة الامام كلها . وعبثاً حاولت البحث معه في مواضيع اخرى تتعلق بالادب العربي والصرف والنحو وتفسير بعض التعابير الغامضة التي يستعملها البدو فلم انل منه جوابا .

ان القاضي في هذه الديار هو الممثل الآخر للثقافة الاسلامية ، ويعيّنه الامير ايضا في منصبه . ويتلقى علومه في احدى المدن الكبيرة المجاورة ، على علماء يدرّسونه فقه المذهب الحنبلي ، الا انه كزميله الإمام يجهل المواضيع الخارجة عن مهامه .

وذكرت في موضع آخر ان الواعظ يسمى خطيبا . اما الأمامة فوقفٌ على آل سعود ، بوصفهم امراء الوهابيين روحيا وزمنيا . ولقب «الشيخ» الذي يطلق في جميع الاراضي العربية على علماء الدين ورجاله لا يستعمل بمعناه بين الوهابيين والعرب

هنا . فهؤلاء يُسمّون بـ «المتعبدين». (ناصري الدين).

وندر ان ترى غير الخطيب والقاضي رجال علم في جبل شمّر . والاهاون في الغالب اقل علما بالدين واصوله من ابناء البلاد التركية - العربية والفارسية ، ولكن كثيرين منهم يعرفون القراءة والكتابة .

وليس في البلاد مدارس عامة او خاصة . ولا تلقى في المساجد اية خطبة ذات اهمية . والابناء يأخذون عن آبائهم مبادىء اصول الدين . ويتعلمون في السنوات الاولى قراءة القرآن (الكريم) وتلاوة الصلوات . واكثر معلوماتهم الاخرى يحصلون عليها شفويا من المعمّرين الذين لا يُبعَد الصغار عنهم .

وفي بدء عيشي بين العرب الرحّل دهشت كثيرا لرؤيتي الصغار الذين تتراوح اعمارهم بين ثلاث واثنتي عشرة سنة يرافقون المسنين ، ويسمح لهم بمبادلتهم الحديث ، ويُستشارون احيانا في مواضيع تفوق مستواهم فيُصغَى الى اقوالهم . ويعيش الصغار مع اهلهم في محبة والفة . ولم أر في الصحراء تلك المشاهد الكريهة المألوفة بمصر ، مشهد والد حانق يضرب ابنه ، ولا رأيت الاستعباد الذي يلقاه صغار الاتراك اذ لا يسمح لهم بالجلوس او الكلام في حضرة آبائهم المتعجرفين . ولم أر في العالم كله اولادا اكثر تعقلا واحسن خلقا واكثر طاعة لابيهم من ابناء البدوي .

وعلى تحامل المسلمين ، والوهابيين خاصة ، على الشعر ، فالشعر في جبل شمّر هو في بيته . والناس رجالا ونساء ترتجله ، ويحفظ الصغير والكبير قصائد كثيرة . وامراء آل الرشيد شعراء كامرىء القيس ، الشاعر الشهير الذي كان ملكا على هذه الارض في القديم .

والكتب - باستثناء القرآن (الكريم)- قليلة جدا هنا ، مثل قلتها في الصحراء ، ولا يملكها سوى القاضي وعدد ضئيل من الناس . وكتب القاضي تتعلق كلها بالفقه ، وهو حريص عليها . وقد أكّد لي انه اشتراها من مشهد علي . ولم اقع

بينها على اي كتاب في التاريخ . وبالاضافة الى القرآن (الكريم) صادفت احيانا في بلاد الوهابيين مؤلفات وضعها علماء من سلالة مؤسس الوهابية في مواضيع دينية عن مذهبهم . وهؤلاء الرجال يعرفهم اتباعهم باسم «اولاد الشيخ» ويعيش اكثرهم في الرياض حيث يلقون الخطب في المساجد بمختلف المواضيع الدينية .

ورُوي لي ان محمدا بن عبد الوهاب وضع كثيرا من المؤلفات . من اهمها : «كتاب التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد» و «كتاب الكبائر» «كتاب كشف الشبهات» و «كتاب بساتين الاتقياء» و «كتاب مجموع الحديث على ابواب الفقه»(٣٣)ولكني لم استطع الحصول على سوى «كتاب كشف الشبهات» وظهر لي منه ان ليس في كتب العلماء الوهابيين آراء جديدة (؟) او أن فيها افكارا قليلة . والكتاب المذكور الذي اطلعت عليه وردت فيه آيات من القرآن الكريم — في عشرين الى اربعين صفحة — للاثبات ان شفاعة الاولياء التي ادخلت مع الزمان في الاسلام — والاسلام في اصله توحيدي — انما هي مخالفة للشرع الشريف ومكروهة .

ولمحمد بن عبد الوهاب (رحمه الله) اربعة ابناء هم : حسين وعلي وعبد الرحمن وعبد الله . وقد ارسل عبد الرحمن في صغره مع عبد اللطيف ابن اخيه الى القاهرة لتلقي العلم في الجامع الازهر . وكان لا يزال فيها سنة ١٨٤٩ يخطب في الناس في الفقه على المذهب الحنبلي . وفي تلك السنة أذن لعبد اللطيف بالعودة الى وطنه ثم عين قاضيا على منطقة الاحساء . وقيل لي ان واحدا من احفاد علي اسمه عبد الرحمن بن حسن هو اليوم قاضي الرياض .

ان اهم قبائل شمّر ، وأشدها بأسا ، اثنتان : العبدة والجعفر . وشيوخ آل الرشيد من الاولى . وقيل لي ان اكثر هذه القبيلة يقطنون في مقاطعة عسير واسمهم هناك عَبيدة . ومنهم «السويد» يقطنون المنطقة الجبلية ومشهورون بسمنهم. ومنهم «سنجارة» و «أَسْلَم» و «تومان» و «ارمال» الذين قلنا ان اكثر سكان

جُبّة منهم . وهناك ايضا كثيرون من «مُطَيّر» و «سُبَيع» وقبائل اخرى في نجد الشرقية يعيشون مختلطين بالشمّر . ويؤكد بعضهم ان الشمّر الذين يسكنون منطقة الجبلين هم من سلالة القبيلة وان «الصفوق» الضاربين في العراق هم اشرف افخاذها وأشدهم بأسا . والى «الصفوق» ينتمي اشهر ابطال الازمنة الحديثة ، وهم «الجرباء» تتغنى بوقائعهم الحربية وفروسيتهم الشعراء، والقصائد فيهم حية في ذاكرة الناس . ورُوي لي ان «الصفوق» هاجروا في اول ايام الوهابية الى العراق وألّفوا قبيلة شديدة البأس يخشاها والي بغداد التركي خشية كبرى .

والزكاريط عشيرة اخرى من الشمّر قوية وعظيمة ، هاجرت هي ايضا ديارها الى جوار كربلاء . ولا اعرف غير هاتين العشيرتين غادرتا بكاملهما ارض نجد .

اما الافراد والاسر فيهاجرون يوميا من هنا الى العراق ويلتحقون بانسبائهم ويشاركونهم عيش البداوة على دجلة والفرات ، وقد يستوطنون القرى . ومن الغريب ان هؤلاء الذين يهاجرون لا يذهبون الى سورية او مصر . ولم يطرق سمعي ان عربا من شمّر نزحوا اليهما .

ان ما بين النهرين (العراق) له موقع جغرافي يميزه عن الاراضي الزراعية المحيطة ببلاد العرب ، ويجعل التبادل التجاري والاتصال بينه وبين سكان الجبلين (أجأ وسلمى) امرا طبيعيا . فالبدو مضطرون لرعي قطعانهم الكثيرة في الدهناء ، ولا غنى لهم عن انتجاعها ، ويسيرون شمالا في مراعيها الخصبة متنقلين من مكان الى آخر حتى يصلوا تدريجا الى ما بين النهرين ، البلاد الكثيرة الكلأ والتي تستهويهم ، فيضربون خيامهم ولا يعودون يفكرون بالعود الى اراضيهم الفقيرة في نجد .

ان العراق اقرب سوق لشمّر للغذاء والمؤن ، وارخص الاسواق في سني الجفاف . وفيه يستطيع البدو بيع جمالهم التي يستغنون عنها والاستبدال بها سلعا

وكماليات قد يحتاجون اليها . والعادة ان تسير الى ما بين النهرين قوافل كبيرة من الشمّر اربع مرات في السنة ولكن جماعات صغيرة منهم تسافر كل يوم تقريبا .

وفي وصفي الرحلة التي قمت بها من جبل شمّر الى مشهد علي اشرت الى الدربين المطروقين ، وهما على صعوبتهما وقلة الامن فيهما اقصر واسلك من الطرق المؤدية الى سورية ومصر .

اما الحجاز والنواحي الشرقية من نجد — وهي اقرب واسهل سفرا — ففقيرة جدا ولا تستهوي المهاجرين على الرغم من ان الاماكن المقدسة في الحجاز كانت ، ولا تزال ، تستدرج الناس لزيارتها سنويا . ولكننا نرى عبر التاريخ القديم ان مختلف الذين تعاقبوا على نزول هذه الارض او على تملكها ، أتوا دائما بطريق الحجاز ، وبعد ان مكثوا مدة ، طويلة او قصيرة ، في الجبلين تابعوا سيرهم الى الشمال . ونرى ايضا ان القبائل القحطانية اتجهت الى ما بين النهرين ، وتوجهت العدنانية الى سورية ومصر .

ولو ان العرب شعب ملاّح لسهلت عليه المحافظة على اتصال بحري دائم بالبلدين الغنيين ، مصر والهند ، بواسطة مرفأين ، اولهما «الوّجه» ذو الميناء الجيد على البحر الاحمر ، والآخر «القطيف» على الخليج الفارسي(٢٥) . واذا تمّ في المستقبل شق مضيق السويس ، وأريد فتح طريق من الهند الى اوروبة عبر بلاد العرب ، فالطريق الطبيعي يكون بمد سكة حديدية بين الميناءين المذكورين ، عبر ارض مسطحة كأرض الحجرة ، تقطعها الجمال في ثمانية عشر يوما .

وعلى رغم من عجز الملاحة العربية فهناك اتصال بحري ضعيف لم يتوقف بين الهند ومصر والبصرة وجُدّة .

ويكاد عرب الشمّر لا يتصلون بسورية . وليس بين سكان حائل الذين اتوها من الخارج سوري واحد .

ان العلائق التي بدأت مؤخرا بين هذه المنطقة ومصر كان من اسبابها الحملات

التي شنها محمد علي (باشا) على الوهابيين (٣٤) وولع والي مصر الحالي عباس باشا بخيول شمر . وفي رأيي ان هذه الخيول تستحق ان توصف بأنها اجمل الخيول العربية الاصيلة ، واسرعها . وهي هنا اكثر منها في اية منطقة اخرى زرتها من بلاد العرب . واكثر الاثرياء يملكون عددا ، صغيرا او كبيرا ، منها ، وقيل لي ان عبد الله (ابن الرشيد) يملك وحده مايتي حصان موزعة في مختلف قرى امارته . ومن عادته ان يرسل اثنين منها الى المدينة (المنورة) سنويا مع قافلة الحجاج هدية الى واليها التركي ، ويرسل حصانين آخرين الى والي مكة (المكرمة). وقد يهدي والي بغداد حصانين ايضا .

وكان عباس (٣٥) يوفد في الاعوام الاخيرة بعثة سنوية تقريبا لشراء الخيل لاسطبله الكبير في القاهرة . وهناك عدد من الخيول تهدى الى امراء آل سعود ، او تُباع من بدو الجوار . وفيما عدا هذا العدد الضئيل من الخيل التي تستوردها البلدان المجاورة لم اسمع بأن غيرها خرج من المنطقة .

أما الابل في الشمر فمن نسل جيد . ورغم ان ابل عُمان وشرقي نجد تفوقها جودة ، فهي تباع بكثرة في أسواق مكة والمدينة بموسم الحج . وثمن الجمل الواحد منها يتراوح بين عشرة واربعين دولارا اسبانيا . والحصان سعره من عشرين دولارا الى ثلاثة آلاف دولار .

ومع الخيول والابل تستخدم جماعة الشمر الحمير في رحلاتها القصيرة بين القرى . ولم أر بغلا واحدا . والثيران نادرة ، وان وجدت كانت هزيلة مثل ثيران الجوف . والخراف كثيرة وقد تختلط الغزلان بقطعانها وترعى معها فتألفها تدريجا وتتبعها وتعايشها .

أما الكلاب فمبغوضة هنا ، ويُشمأز منها اكثر من اي بلد اسلامي آخر زرته . ولا اذكر اني صادفت كلبا في احدى قرى المنطقة . وهي تهيم هزيلة ، خائفة ، ولها شكل الحيوانات البرية في الصحراء المحيطة بالاماكن المأهولة ،

وكأنها تريد مرافقة الانسان وتحس انها ستُقذَف بالحجارة وتُطرد فيما اذا اقتربت منه . وقد يكون المذهب الحنبلي اساسا في هذه الكراهية للكلاب فهو يحرّم حتى رؤية (؟) الكلب لنجاسته .

ان الطيور الداجنة نادرة في القرى . ومثلها تندر الطيور البرية في الصحراء . ومن الدواجن لم اشاهد سوى الدجاج ، وهو من نوع جيد بعض الجودة . اما في القرى الاخرى من الصحراء فلا اذكر اني رأيت اي نوع من الدواجن .

وتكثر الطريدة في الجبال الغرانيتية ، ولا سيما الماعز البري وحيوان صغير اسمه «وبر» ، (*) ، يصطادهما الاهلون ويأكلونهما. والحيوانات البرية الاخرى هي الضبع ونوعان من الذئاب هما الذئب والفهد ، والثعلب وابن آوى ، والاخيران نادران .

ان الاسُود لا تصل الى هنا. وقيل لي انها قد تُصادَف على ضفاف الفرات . وانا صادفتُ اسداً في الصحراء على يومين الى الجنوب من مشهد علي .

والصُلَبة والشرارات تصطاد النعام في صحراء الدهناء ولا سيما في ضواحي الجوف . وتكثر الارانب في جميع انحاء هذه البقعة الرملية الفسيحة ، وكذلك تكثر الغزلان وبقر الوحش ، وجراذين ضخمة ونوع من السحالى الكبيرة . والبدو يأكلون جميع هذه الحيوانات .

ان السكان الحاليين من مختلف القبائل التي نزلت هذه الديار يذكرون بني تَعْمَر ، وبني سعاده ، او السعادة ، وبني فَرير أو الفرير ، بأنها أقدم القبائل الرئيسية ولكنهم لا يعلمون اية منها سبقت الاخرى ، ولا متى وصلت ، وكم اقامت هنا . والاحاديث المنقولة لا تعلمنا عنها اية حقيقة تاريخية ، ولا ما اذا كانت اسماؤها هي اسماء قبائل ام اسماء افخاذ رئيسية منها مرت بالمنطقة ، كما هو الحال عند عشيرتي العبدة وآل الرشيد .

WEBAR – (*)

وبالاضافة الى هذه القبائل يعتقد الشمّر الحاليون ان بني طيّء وبني قيس وبني تميم وبني هلال هم من قدماء السكان . وبالرغم من قلة اشارة الكتّاب العرب الى منطقة الجبلين ، وتضارب الآراء في ما نقلوه عنها ، وكون الاحاديث غير مرضية وغير كافية للكشف عن تاريخها القديم ، فاني محاول هنا ان اوجز الحقائق الرئيسية التي توصلت اليها :

ان بني تَعْمَرَ الذين يُعتبرون اقدم سكان المنطقة – وقد رُويت عنهم احاديث كثيرة – هم بدون شك ذلك الشعب الذي ذكره ريتر عن بوركهاردت باسم تمور TAMOUR وقال انهم قبيلة قديمة عظيمة في سورية ونجد، يصح ان تنسب اليهم آثار الآبار العميقة القديمة ، والابنية القديمة الاخرى المنتشرة ، هنا وهناك ، في بلاد العرب الشمالية والوسطى . واول مرة سمعت باسم هذه القبيلة في جُبّة .

وابناء جُبّة يعتقدون ان بلدتهم كانت ملك تَعْمَر قديما ، ويقولون انهم كانوا ينزلون في جبل ام سلمان . غير ان اهل جُبّة واهل جبل الشمر لم يعتبروهم عمالقة مردة او اصحاب الآثار التي نجدها هنا .

ولم اجد لدى المؤلفين العرب ذكرا لاسم تَعمر . وكذلك لم يرد في كتاب العلاّمة كوسان دي پرسيڤال (٢١) وهو الذي بحث وتعمّق اكثر من سواه في تاريخ العرب القديم . والتقاليد لم تذكر عن بني تعمر سوى اسمي شيخين من شيوخهم هما خضرا وتونس . ويبدو ان القصة التي بسطناها سابقا عن ياقوت في كلامه على جبال طيء وسلمى والعوجاء، تشير الى هجرة اولئك العمالقة الى هذه الديار ، خصوصا وانه قيل ان اخوة سلمى وزوجها لم يرجعوا الى بلادهم – وهي الحجاز في الارجح – بعد ثأرهم الدامي ، وانما ضربوا خيامهم في محلة ، هي ولا ريب في جوار الجبلين . (انظر ص ٩٧)

ولا يصدق ان قوماً قدماء وشديدي البأس مثل هؤلاء ، نجدهم – في ما

اشار اليهم به الكتّاب العرب اشارات شحيحة – نازلين البحرين وعُمان وسورية والحجاز وقرب جبل الشمّر في تيماء وخيبر والمدينة (المنورة)– قلت : لا يصدق انهم لم يكونوا يملكون الجبلين ايضا . ومن العماليق كان «الجبابرة» (*) الذين يُعتبرون Enaukim الكتاب المقدس .

وسواء ، اكان بنو تَعمر عمالقة ام ان السوريين الذين استقى منهم بوركهادت معلوماته قد ظنوهم كذلك – او ان التقاليد قالت انهم اقدم السكان الاصليين في هذه الديار– فباستطاعتنا الترجيح انهمهم اولئك العماليق، او انهم من نسلهم، وان لم ترد كلمة « العماليق » بين اسماء القبائل القليلة في المؤلفات العربية .

وفيما يعرض تاريخ هؤلاء القوم ناقصاً ومحرّفاً ، مثل تاريخ بلاد العرب في القديم ، نجد ايضاً ان الكتب العربية لا تشير اية اشارة إلى منطقة الجبلين في الزمان الذي سبق الميلاد ، حين بدأ العدنانيون بالهجرة من الحجاز إلى نجد ، ويحسب كوسان دي پرسيڤال ان جدّهم عدنان ولد حوالي سنة ١٣٠ ق.م.

ويقول الكتّاب العرب ان جميع العدنانيين – باستثناء قريش في مكة – عاشوا عيش بداوة وظلوا وحدهم يملكون نجداً إلى حين اخذت القبائل القحطانية بالهجرة من اليمن إلى هذه الديار واستطاعت دفع العدنانيين تدريجاً شمالا إلى ما بين النهرين وسورية .

وفي منتصف القرن الثالث نلقى بني أسد العدنانيين – ويظن ان جدهم هو أسد بن خزيمة المولود سنة ١٠١م.– يقيمون في هذه المنطقة . ولا يذكر الشمّريون بني أسد بين الذين سكنوا ديارهم في القديم . غير ان قبائل كثيرة كبني ربيع – وسمعت عرباً يقولون انهم يرجعون بنسبهم اليهم – وكبني قيس وتميم وهلال الذين عرف عنهم انهم نزلوا الجبلين وتعاقبوا على امتلاك المنطقة ، كانوا من انسباء بني أسد العدنانيين . والمؤلفون العرب يجمعون على ان بني اسد

(*) – كتبها فالين بالعربية .

ملكوا هذه الديار ايام هجرة بني طيّء ، اول قبيلة قحطانية غادرت الجرف في اليمن ، بعد قليل من هجرة انسبائهم بني أزد ، وقد يكون سبب هجرتهم مجاعة عضّتهم فأتوا الجبلين بين سنتي ٢٤٥م و ٢٥٠م . واول محلة نزلوها كانت « سميرة » في الجنوب الغربي من سلمى وأعلنوا الحرب على سكانها من بني أسد وغلبوهم واستولوا على الجبال المانعة المحببة وهي يومها اغنى ارض زراعية في المنطقة ، وافضلها في الارجح.

وعشيرة الفَرير من طيّء . والشمرّ يميلون إلى نسْب جدودهم اليهم . واني استند على ياقوت بان الفرير من بني طيء . ولم اجد غيره قال هذا سوى ريتر في كتابه « تاريخ الارض » نقلا عن « المشترك » ، الذي قال ان الفَرير قوم اقاموا في أجأ .

ويقول ياقوت: ان الحُفَير «ماء بأجأ ، وهو لبني فَرير من طيّء»(*). واذا لم يكن ثمة من اخطاء في المخطوطة التي رجعت اليها ، فاننا لا نستطيع اعطاء بني فَرير نسباً يزعمه لهم الشمَّر ، ولكن جلّ ما نستطيع قوله هو انهم ربما كانوا اول قبيلة من طيّء سيطرت على هذه البلاد وسادت على سكانها السابقين .

وتكاثر المهاجرون القحطانيون تدريجاً وانتشروا في طول المنطقة وعرضها ، ويظهر انهم تمكنوا في آن وجيز من السيطرة على القبائل العدنانية التي التقوها في وصولهم ، فأخذ اسم بنيّ أسَد يندثر مع الايام في هذه الديار واضمحلّت قبيلتهم ، وملكت طيّء — او : ورثت طيّء على حد تعبير العرب — اراضي نجد المحيطة بالكرخ . وموضع الكرخ غير محقق . غير ان قبائل اخرى من سلالة العدنانيين واصلت العيش مطمئنة في اراضيها ، مقيمة علائق الصداقة ببني طيّء . واعتقد ان الامر لا يصح ان يكون على غير هذا الوجه لان الاجزاء الرئيسية الاخرى من نجد كانت ما تزال مقاماً للعدنانيين ، وكان بنو طيّء اليمانيون

(*) — يقول فيه شاعرهم : ان الحفير ماؤه زلال آجره تراوح الرجال

مهاجرين اغراباً ينزلون بينهم .

ولمّا تزايد السكان واضطرت القبائل المتخالطة لان تنزح عن الديار كان العدنانيون اوائل الراحلين . وهكذا نجد بني تميم قبل الاسلام يتنقلون في الدهناء التي هي بين الكوفة والبصرة واليمامة . ثم تتالت الهجرات فانتقلوا إلى داخل ما بين النهرين (العراق) حيث تابع بعضهم عيش البداوة ، وانتهى اكثرهم إلى القرى . ولا نزال اليوم نصادف من تبقّى من سلالتهم .

ولمّا غادر بنو تميم مراعي الدهناء خلفهم فيها بنو طيّء .

وامتد بنو طيّء من الجهة الاخرى إلى وادي القرى وملكوا ارض غطفان . وهكذا ملكوا في صدر الاسلام الاراضي التي يملكها اليوم الشمرّ .

ان المنطقة الوحيدة في هذا الجوار ، التي لم يملكها بنو طيّء والقبائل الاخرى في الجبلين هي الجَوف . ويبدو ان الجميع تفادوا منها وربما كان ان العشائر والعائلات المهاجرة إلى سورية ذهبت اليها بطريق الحيرة وما بين النهرين، وصارت طريق بني عقيل اليوم في اسفارهم وهجراتهم من القَصيم إلى سورية. اما الذين نزحوا من هذه الاراضي إلى مصر فطرقوا درب « حجر » و « تبوك » على طول السفوح الشرقية من الجبال التي تفصل المنطقة عن البحر .

وكان بنو ساعدة من آخر عشائر طيّء التي سادت المنطقة قبل انتشار الدين الجديد . ويقول القلقشندي ان بني ساعدة بطن من غزّية من عشيرة هاني من طيّء ، ذكرهم الحمداني في حلفاء آل الامير السوري « فضل » الذي نعلم ان نسبه يعود إلى هاني نفسه . ويقول كوسان دي پرسيڤال ان عشيرة « حيا » من انسباء غَزِيّة كانت في صدر الاسلام ترئس جميع بني طيّء . ولما بدأ المتحمسون نشر تعاليم الدين الجديد في البلاد التي تجاوزت حدود صحرائهم انضمت إلى جيوشهم قبائل من طيّء ومن البدو الآخرين وتفرقوا في اماكن مختلفة . ويظهر ان قسماً كبيراً من طيّء بقوا في شمالي بلاد العرب لانه يروى عنهم انهم سادوا في

القرنين السادس والسابع الهجريين على بدو سورية والعراق . ولا نزال نصادف في العراق بعض بقايا سلالتهم . ولعل قسماً صغيراً منهم بقي في ارض الجبلين ، فالتقاليد تقول ان الشمرّ لما جاؤوا هذه الديار التقوا بني طيّء وبني قيس . ويروي الشمرّ انهم نزحوا من منازلهم في « عسير » ، باليمن ، بسبب مجاعة وسلكوا الدرب عينها التي سارت عليها طيّء والبدو اليمانيون ، وانهم وصلوا إلى هذه الديار في منتصف القرن الثاني للهجرة . ولما كان سكان الجبلين آنئذ قد ضعفوا بسبب نزوح الكثيرين منهم فانهم عجزوا عن ردّ غزوات الشمرّ ، ويؤكد هؤلاء (الشمرّ) انهم حاربوا سكان الجبلين واثبتوا انهم أندادهم بأساً ، فأجيز لهم النزول بينهم وأقاموا ثلاثين سنة اصدقاء معهم، ولكن النزاعات ما لبثت ان نشبت بينهم واستحالت إلى حرب انتصر فيها الشمرّ ، فطُرد بنو طيّء وقيس ، او انهم اضطروا مثل تميم للنزوح إلى الدهناء وما بين النهرين ، وبقي الشمرّ وحدهم في الجبلين .

هذا ما تقوله التقاليد الحالية . اما الجغرافي العربي ابن سعيد (المتوفى سنة ٦٨٥هـ) فيروي ان في زمانه كانت قبائل عديدة مختلفة تسكن هذه الديار ، وتنتشر بعيداً « في السهل وفي الجبال ، وفي الحجاز وسورية والعراق » . ومع ان ابن سعيد لا يذكر اسماء هذه القبائل فنحن نعتقد ان الشمرّ كانوا في عدادها . ولا تعرف القبيلة التي كانت سائدة يومها. والتقاليد والتواريخ لا تقول متى تسلّم الشمرّ السلطة وسادوا الآخرين . واستطيع الجزم — كما جزم ريتر في كتابه « تاريخ الارض » ، في الجزء الثالث عشر — بأن الشمرّ متصلون بالملك الحميْري القديم شمّر بن العملوق . والكتاب العربي الوحيد الذي وجدت لهم فيه ذكراً هو « كتاب الانساب » للقلقشندي ، وفيه ان بني شمرّ بطن من العرب مسكنهم جبلا طيّء ، أجأ وسلمى ، . ولم ينسبهم القلقشندي إلى اية قبيلة معروفة ، ولا بسط اية معلومات اخرى عنهم .

والمرجح ان تاريخ الشمرّ لا يختلف كثيراً عن تاريخ القبائل الاخرى التي

سكنت هذه الديار ، ولا عن تاريخ البدو جميعاً . ولا بد ، بالرغم من التقلبات المتواصلة التي تسود حياة البدو ، من أن تبرز في تاريخهم احداث تتشابه وتتكرر باستمرار . مثلاً : لما ضعف ، على مرّ الزمان ، ما اوجده لهم الاسلام من باعث لحياة سياسية جديدة ، ونزوح جماعي ، واخذ يتراخى تدريجاً ذلك الوثاق الذي جمع بينهم ووحّدهم – للمرة الاولى ، على الارجح ، في تاريخهم –عاد البدو والاهلون إلى سابق حالهم من التفسخ القبلي الذي كان يسود علائقهم ، ورجعوا إلى عادات البداوة القديمة ونزاعاتها ، التي تنشأ احياناً لاسباب تافهة ، بعد ان كان الجهاد الديني قد وضع حداً لها في سني الاسلام الاولى . وكان هذا في الارجح حال القبائل الكثيرة التي خلفت بني طيّء في هذه المقاطعة . وعندما اعتنقت الاسلام امم اخرى من غير العرب ، وانتقلت الحروب الاسلامية إلى اراضٍ بعيدة ، بقي ابناء الصحراء والجبلين بمنأى عن التاريخ فلم يشتركوا في الفتوح الاسلامية الاخيرة .

ومن المحتمل ان هؤلاء السكان تحوّلوا تدريجاً ، في الآونة الممتدة من القرن السابع للهجرة إلى القرن الثاني عشر . من حياة البداوة إلى الاستقرار ونزلوا اماكن معيّنة ليبنوا القرى المنتشرة اليوم في مختلف انحاء هذه البقاع . ولكن يتراءى لي ان اكثر هذه القرى بنيت حديثاً ، ولم يذكر منها في كتب الجغرافيين العرب سوى اثنتين : « فَيْد » و« مَوْقَق » ، واما الاخرى ، وفيها قرى كثيرة وكبيرة ، فلم تذكر . واذا جيء على ذكرها فلكونها عيون ماء لاحدى القبائل .

وليس كذلك من اشارات ثابتة ، اكيدة ، إلى الشمرّ وديارهم إلاّ بعد قيام الدعوة الوهابية (الاصلاحية) التي وحّدت بين سكان نجد ودفعتهم إلى حروب دينية ضد جيرانهم من الرّحل وضد البلاد الغنية المتاخمة لصحرائهم . ومن المحتمل ان الشمرّ لم تكن لهم سلطة ، ولا سيادة ، قبل ذلك التاريخ ، وهي السيادة التي ما يزالون يتمتعون بها منذ ذلك الوقت في الاجزاء الغربية من شبه جزيرة العرب.(*)

(*) وضع فالين دراسته هذه في منتصف القرن التاسع عشر .

ونستطيع ان نتتبع الخطوط الرئيسية لتاريخ المنطقة القديم فيما اذا ألقينا نظرة على وضعها السياسي الراهن ، ونظرنا إلى العلائق المتبادلة بين مختلف القبائل التي تسكن الصحارى المحيطة بها : فالشمرّ اليمانيون يهيمنون — كأسلافهم ، بني طيّء — ويمتلكون اكثر القرى التي فيها اربع ، على الاقل ، من اكبرها . يسكنها بنو تميم العدنانيون . وسكان القرى مختلطون بالنازحين من النازلين عليهم من شتى الانحاء العربية . ولقلة عددهم وعدم استطاعتهم تأمين استقلالهم تلاشوا في احدى القبيلتين الرئيسيتين ، ولا سيما شمرّ .

اما المراعي الفسيحة والسهول الصحراوية الكبيرة التي تحيط بالمنطقة فتسكنها عنزة العدنانية وتربطها اواصر الاخوة الحميمة بالشمرّ ، بدوهم وحضرهم على السواء . ومع انهم يؤدون الزكاة لكبير شيوخ شمرّ ، معترفين بسيادته ، فانهم من ناحية اخرى يحتفظون دائماً بحريتهم على انهم بدو مستقلون .

وفيما قبيلة الروّلة العظيمة في حوران تهاجر عشائرها الواحدة بعد اختها إلى سورية ، ونرى من جهة اخرى « الصفوق » و « الزكاريط » من شمرّ — وقد اضطرتهم المنازعات الدينية للنزوح من ديارهم — يستعدون لان يبدلوا بحياة البداوة الحياة القروية ، فان انسباء الرولة والصفوق والزكاريط لا يزالون مقيمين في الجبَلين وفي جوارهما .

وهكذا تبدو لنا منطقة الجبلين انها كانت منذ اقدم العصور العربية ممراً لمختلف القبائل التي نزحت اليها من اطراف شبه الجزيرة ونزلتها زمناً حتى اضطرها تزايد السكان ، او حاجة ملحة ، او الرغبة بالغنائم ، او تفكير ما جديد ، كي تنزح منها ، او كي تغزو البلدان الغنية التي تحيط بالصحراء .

ففي نجد ، وفي الدرجة الاولى في هذه المنطقة عينها ، اجتمع فرعا الامة العربية الرئيسيان : القحطانيون والعدنانيون — وربما جاز لنا القول : القبائل اليمانية والقبائل السورية — واندمج الجميع في شعب قوي اخذ يعيد الحياة إلى جزء

كبير من آسية . ونعلم ان الاسلام قد أُنزل في مكة ، ولكن اول شعب اعتنقه وذاد عنه كان اهل المدينة الذين تصلهم طباعهم وعاداتهم بانسبائهم من العرب الرّحل . ولما طُرد الرسول (صلعم) من مسقط رأسه لجأ إلى بلدتهم في طرف نجد وكان بنو طيّء والقبائل الاخرى المقيمة في الجبلين من اوائل الذين آمنوا بدعوته وأدّوا له الطاعة .

ان طبيعة الارض التي يسكنها العرب اليمانيون ، والتي تعترضها سلسلة كبيرة من الجبال ، واودية مياهها غزيرة ، جعلت منهم مزارعين اكثر منهم رعاة . ويؤكد هذا انتشار قراهم وحياتهم الاجتماعية في ظل حاكم عام في جميع المناطق التي يقيمون فيها . اما القبائل العدنانية التي تطوف في سهول نجد الفسيحة والاجزاء الشمالية من بلاد العرب فجلّهم رّحل ورعاة .

ان تربة نجد تلائم اساليب حياة متعددة . فهي باكثرها مراعٍ تتخللها واحات قابلة الزراعة والاستيطان . وبما انها في وسط شبه جزيرة العرب فقد اختلطت فيها الزراعة بتربية المواشي — وهما ميزتا الحياة العربية — وتأثرت الواحدة منهما بالاخرى : فالبدوي ، هذا المالك الاول للارض ، تعلّم من المزارع الغريب الذي شقّ طريقه إلى الصحراء كيف يتغلّب على الكراهية التي اوجدتها الطبيعة في نفسه ضد الحياة الحضرية . كما ان المزارع الخانع وصاحب العقل الضيق تشبّع بروح الحرية والشهامة التي تزين دائماً ابن الصحراء . وفي منطقة الجبلين — اكثر من أية منطقة اخرى من نجد ، وباندماج العدنانيين بالقحطانيين — رأت النور قبائل عظيمة وشهيرة ، وولد فيها رجال عظماء كثيرون وتزوّد الجوار بالعديد من مهاجريهم .

وكل ما يذكره العرب الحاليون ويتمجّدون به من شهامة اجدادهم وشجاعتهم وكرمهم وشعرهم وبطولتهم يرجع إلى قبائل اصلها من منطقة الجبلين او انها اقامت

فيها في الحقبة الاولى من تاريخها . وفيما نجد ان القبائل التي نزحت من اماكن أخرى في نجد ، او من اليمن ، ولم تمر في مسيرها بمنطقة الجبلين ، كبني قذاعة القحطانيين ، مثلاً ، قد طمس ذكرها بعد مدة ، او قلّ ان بلغت نفوذاً وسطوة ، نجد ان بني طيّء وتميم وهلال ، الذين أتوا جميعاً من هذه المنطقة ، ما زالت لهم في ديار الغربة ، وبعد مغادرتهم ارضهم مدة طويلة ، سلطة وشأن خطير حتى في يومنا هذا ، وانهم يُنظر لمن بقي منهم بعين الاعتبار ويُكنّ لهم الاحترام بوصفهم شعباً متفوقاً .

وامتداد الهجرات هذه عظيم ، وعظمته تظهر من وجود بقية من هذه القبائل الثلاث (طيّء وتميم وهلال) في تونس ومدن اخرى من افريقية الشمالية . واذا صح ما اخبرنيه بعض الدراويش من بخارى فان هنالك جاليات عربية تقيم في ضواحي سمرقند حافظت طوال العصور على لغة اجدادها . وباستطاعتنا اعتبار وسط الجزيرة ينبوع المهاجرين الذين يمموا شطر ما بين النهرين وسورية ومصر وشمالي افريقية (المغرب) . فسكان هذه البلدان معرّضون بسبب طبيعة ارضهم ، وغناها ، لانحطاط في عرقهم او لاستعباد يفرضه عليهم طغاة غرباء ، فهم في حاجة من وقت إلى آخر إلى تنشيط يأتيهم من وفود جماعات من البادية ذات عقول لامعة وحرة . ولهذا أحسب نجداً ، وبلاد الجبلين خاصة ، عظيمة الاهمية في تاريخ هذه الرقعة من العالم .

ويلفت ريتر نظرنا في كتابه (تاريخ الارض – ج١٣) إلى اهمية موقع منطقة الجبلين بالنسبة إلى شبه الجزيرة ، بوصفه ممراً للتجارة والمواصلات في عصور مختلفة : عصر المعينيين MINAEAN وعصر الجرهائيين GERRHAEAN وعصر الانباط NABATEAN ، وبوصفه اليوم درب المسافرين والحجاج الذي يجتازه اكثرهم ، على قول بوركهاردت ، في طريقهم إلى دمشق والجوف والدرعيّة والمدينة (المنورة) . غير اني حصلت في هذه المحلات على معلومات لا تؤيد اقوال بوركهاردت فيما يتعلق بوقتنا الحالي. فالقافلة المهمة الوحيدة التي تمر من هنا

هي قافلة الحجاج العراقيين والفرس بعد ان صارت تنطلق من مشهد علي ، وكانت تنطلق من الكوفة في السابق . فهذه القافلة تستريح في حائل ، كما كانت تستريح قبلاً في فَيْد، يوماً او يومين، ثم تتبع الطريق الرئيسي إلى المدينة او مكّة ، والطريقان سهلان وفيهما مياه غزيرة .

اما الحجاج الآتون من البصرة والدِرعية فيمرون بالقَصيم دون ان يقتربوا من الجبلين الا فيما اذا دفعتهم بعض الاسباب . والحجاج الآتون من الجوف يفضّلون الذهاب إلى تيماء فالحجر لينضموا إلى قافلة الحجاج السوريين ويرافقوها إلى المدينة (المنورة). وفي طريقهم إلى تيماء صهاريج يتموّهون منها مؤنتهم للسفرة. ورغم وعورة الطريق فهم يفضّلونه على الدرب المباشر من الجوف إلى جُبّة ، وقد يكون اصعب الطرق واشقّها في هذه النواحي من بلاد العرب بسبب النفود ورماله وفقدان الماء فيه .

والطريق من تيماء إلى خيبر والمدينة (المنورة) سهل ، ومياهه كثيرة . وهو يخترق بقعة يصادف فيها في اكثر الاوقات بدو « الفقراء » و « بشر » . وليس هنالك على حد علمي بين سورية والاماكن الشرقية من نجد اي اتصال مباشر . والطريق المعقول سلوكه بينهما قد يكون من الدِرعية عبر القصيم وجبل شمرّ والجوف ، ولكنه لا يطرقه سوى من اضطرته إلى ذلك ظروف استثنائية .

ويأتي احياناً عرب الروَلة من حوران إلى نجد في طلب المرعى فيمرون بالجوف أو بصحراء الدهناء ، إلى الشرق من سكاكة ، متجهين إلى القصيم . والطريق من الدرعية إلى مصر تمرّ عادة عبر القصيم إلى جبل شمرّ وتنعطف منه إلى الاخضر او تبوك في طريق الحج السوري .

ومع هذا كله يصعب الكلام على الطرق في بلاد العرب ، ويصعب تحديد اتجاهاتها . فباستثناء دروب الحجاج الرئيسية ليس هناك طرق ثابتة في الصحراء .

والجمل يستطيع السير على جميع الاتربة . والبدوي الجسور الذي يعرف ارضه وآبارها ، والذي تعوّد مكاره العطش والجوع ينتقي طريقه من حيث شاء .

ولا استطيع سوى القول ان موقع هذه المنطقة من افضل مواقع بلاد العرب . فهي في وسط القسمين الشمالي والاوسط من البلاد المذكورة ومتاخمة لهما . وعلى المسافة عينها تقريباً من دمشق وبغداد ومكة (المكرمة) ، وفي منتصف المسافة بين البحر الاحمر والخليج الفارسي (٢٥) فهي افضل منطقة تصلح للسيطرة على البلدان المجاورة . وتربتها زراعية خصبة لا تحتاج لسوى الماء لانتاج افضل المحاصيل . ثم ان مناخها الصحي ، والجبال الغرانيتية التي فيها – وقد تكون الوحيدة في الصحراء – والسهول الفسيحة ، وحياة سكانها الزراعية الرعوية ، هذه العناصر كلها تجتمع لينبثق من نجد رجال اصحاء اقوياء ذوو عقول حرة . وليس لديّ ايّ شك بان هذه المنطقة افضل مقام لرئيس الحكومة لو أن بدو نجد والصحارى السورية وسكان البلدان والقرى القليلة المنتشرة في هذه الارض توحّدوا في ظل حكومة واحدة (*) .

وبفعل الروابط القوية والعلائق الوثقى التي تربط بين الشمرّ بطبقتيهم ، البدوية والحضرية ، نجد قرويّيهم (الحضر) ما يزالون يتمسكون بعض الشيء بتقاليد البداوة ، إلا انهم يتعاطون اموراً او مهناً ليست في نظر البدو لائقة . وفي فصل الربيع ينتقل جمهور كبير من هؤلاء القرويين ومعهم خيولهم وإبلهم ومواشيهم إلى الصحراء يجولون فيها ، فيضربون الخيام كالبدو ويقيمون اوقاتاً تطول أو تقصر ، بينما البدو يذهبون إلى مزارع نخيل وحقول يملكونها في جبلي أجأ وسلمى ليعتنوا بها . وهذه المزارع تتوافر دائماً فيها مياه الآبار والينابيع على ما هو الحال في سميرة والحُفَيّر والحفنة وسواها .

وفي رأيي ان هذه القرى نشأت بالاصل في محلات كهذه قد كثر ماؤها .

(*) – هذا الرأي الصواب ، الذي كان امنية ، قد حققه عبد العزيز آل سعود بعد سبعين سنة .

ولنا في قرية « عُقْدَة » مثل صارخ على القرية الصحراوية النامية . وعُقْدة بلدة صغيرة بأجأ ، على اربع ساعات من حائل ، فيها ينابيع قليلة وتحيط بها مزارع نخيل تملكها بعض عشائر البدو ، تأتي اليها عندما ينضج التمر لجمع المحصول في نهاية الصيف . ويزرعون احياناً بعض الاشجار الجديدة ويسقون النبتات الصغيرة التي نمت وحدها .

وهم يزورون المزارع ايضاًمرتين وثلاثاً في السنة لتفقد الاشجار ، او انهم يذهبون اليها في حالة سقوط امطار غزيرة لتحويل الجداول إلى البساتين لاشباعها ريّاً ، اذ ان ماءها يكون قد شحّ بالنسبة لمساحتها . ويغامرون بزراعة بعض الحنطة والشعير معلقين املهم على السماء لعلها تمطر . فاذا نجح الموسم زادوا في مساحة ما سيزرعونه من حقولهم في السنة التالية .

وتحتاج هذه الحقول لعناية خاصة فيبقى فيها معمّران او ثلاثة مدة طويلة لتنظيم الريّ فيها ، فيبنون كوخاً صغيراً من سعف النخل وخوصه ولا يلبث ان يتبعهم في ذلك آخرون في السنين التالية ويعملون عملهم . وفي قليل من السنين — وقد تكون عشراً — ترتفع الاكواخ لتصير بين عشرين واربعين كوخاً من الخوص .

وفي سنة انحباس المطر تنزل المجاعة بالمقيمين في تلك الحقول فيدركون انهم لا يكفيهم الاعتماد على السماء وحدها بل ان على الانسان ان يعتمد ايضاً على كدّه ، فينشطون إلى حفر الآبار ويستبدلون باكواخ الخوص التي لا تردّ المطر عنهم اكواخاً من الطين ، ويستنبطون وسائل جديدة للعيش وتأمين الرزق ، فيحتطبون من الجبال ويحشّون الاعشاب من الاودية ويبيعونها في القرى المجاورة.

وفي الوقت عينه يطوف اخوانهم من البدو بماشيتهم في الصحراء ثم يعودون إلى المزارع ايام الحصاد . وفي كل سنة تُغري القرية الحديثة المزدهرة وحياتها الهادئة بعض البدو بالبقاء فيها يوم تغادرها القبيلة الى الصحراء فيبقون مضاربهم . وقد يبقى ايضاً سواهم لاسباب اخرى . فتقوم اكواخ جديدة ، وتحفر آبار ،

وتمتد المزارع بازدياد عدد السكان . وهكذا تنشأ القرية تدريجاً في الوادي بعد ان بدأت مجموعة اكواخ مؤقتة ، ولا يلبث ان يرتادها البدو المتجولون وتصير ملاذاً للفقراء الذين فقدوا قطعانهم ومواشيهم ، وملاذاً للذين لا يستطيعون الاستمرار في عيش البداوة . وكذلك يلجأ اليها البدو الذين « على رأسهم دم » وأكرهوا على مغادرة ربعهم وديارهم فراراً من انتقام ذوي ضحيتهم .

وهكذا يتزايد سكان القرية ، ويتمازجون ، وتكثر حاجاتهم . ولما كان بطبع البدوي ان يكره الاعمال اليدوية — وإنْ هو أقام في مضارب ثابتة — فان الحِرفيين الذين اخفقوا في قراهم المجاورة يأتون إلى هذه القرية طلباً للعمل ، وغالباً يجدون ما يطلبون فيقيمون فيها .

ويزور القرية ايضاً تجار متجولون يطلبون الربح . ويعودون اليها مرة او مرتين في السنة ليأخذوا التمر والصوف والزبدة وغيرها من محصول الصحراء لقاء حاجات اخرى يحملونها اليها . ويتعلم بعضهم تدريجاً عادات السكان وينتقون زوجات من فتيات الصحراء اليانعات ، وينتهي بهم المطاف بالاقامة في هذه القرية طوال العمر .

ونستطيع القول انه من الطبيعي ان ينزح الحِرفيون والتجار إلى القرى المستجدة حيث الاغنياء اكثر عدداً . ونتيجة لمثل هذا النزوح صارت حائل تُعَدّ عاصمة المنطقة ، وسكانها من مختلف الفئات ، وهي في الارجح من آخر القرى التي نشأت في هذه الارض وقد قامت في الاصل لانها مسقط رأس عائلة الشيخ الحالي ، والشيخ الذي سبقه .

وليس في كتب الجغرافية العربية اشارة إلى قرية اسمها حائل ، بل هناك اشارة إلى محلة في جبل أجأ . وتقوم حائل في وادٍ مسطّح ومنخفض يمتد تقريباً من الشرق إلى الغرب في سفح جبل « سمراحائل » وفي طَرَفه الشرقي نبع وحيد ماؤه فاتر ضارب إلى الملوحة . ويبدو ان الاكواخ الطينية الاولى بنيت حوله .

وهنالك آثار منازل مهدمة احدث منها عهداً. اما اليوم فالبئر مهجورة بعد ان انتقل السكان تدريجاً إلى محلة اعلى باتجاه الغرب حيث سهل « البطين » الفسيح الذي تكثر فيه الجداول الداخلية .

واهم شيء يجب ان يفكر به المواطن الجديد بادىء ذي بدء هو تأمين ماء الري . وحال اكتشافه الماء يحفر بئراً . وسرعان ما تنمو حوله بساتين النخل والاشجار المثمرة الاخرى . ثم تُبنى في وسط البساتين منازل من المواد المستعملة في الصحراء — كاللبن وقطعه اصغر حجماً من الاجرّ الذي يصنعه السوريون — ومن جذوع شجر النخل او الاثل تُعمل الابواب وحافة السقف ، وهو دائماً مسطح . واكثر البيوت من طبقتين ، غرفهما قليلة ولكنها فسيحة ومريحة ولا يدخلها النور إلا من الباب ومن كوّات صغيرة في الجدران تحت السقف مباشرة . وفي كل بيت ، دون استثناء ، مقهى منفصل عن المبنى ويواجه البستان ، او هو في وسطه ، لاستقبال الضيوف . وفيه تجتمع الرجال لتبادل الاحاديث وللنظر في الاعمال . ويحيط بارض كل بيت سور ، غير ان مساحة القرية الفسيحة تجعل احاطة الارض بالاسوار امرا مستحيلاً على اكثر السكان . ولا يمتاز مقر ابن الرشيد عن سواه بسوى انه اكبر حجماً واوسع ارضاً ليأوي عائلته الكبيرة واتباعه وضيوفه الكثيرين طوال السنة ، فكل غريب يأتي إلى حائل وليس له فيها انسباء او اصدقاء يحل ضيفاً في قصره ، واثقاً بأنه يُستقبل ويستضاف طوال المدة التي يريدها . وينيخ المسافرون جمالهم في ساحة فسيحة تسمى مُناخا ، تحيط بها مبانٍ صغيرة وغرف هي زرائب تشبه بعض الشبه « الخانات » الفارسية . وينام الغرباء فيها وفي المقهى والجامع . والضيوف الاقل شأناً يفترشون ارض الساحة قرب جمالهم .

وتلتصق بجدران المباني المحيطة بالساحة ارائك ومقاعد من الطين . وبين تلك الجدران يعقد الرئيس محكمته مرتين في اليوم ، مرة صباحاً والاخرى بعد الظهر .

وفي القرية ساحات كثيرة مكشوفة واسواق تباع فيها اللحوم والخضار والمؤن ،

على عكس ما هو في الجوف والقرى الشمالية حيث يُعَدّ عرض الاغذية للبيع في الساحات العامة عملا شائناً .

والطرق في حائل عريضة مريحة ، مع انها غير معبّدة . وفي الطريق الرئيسية المسماة لُبْدَة عدد من الحوانيت المكشوفة اصحابها تجار متجولون يأتون من العراق والمدينة (المنورة) والقصيم . وفي حائل اليوم ٢١٠ منازل و ٢١٠ عائلات. واذا استمر اتساع البلدة اتصلت قريباً بقرية صغيرة اسمها « الوسيطة » يسكنها عشر عائلات وتبعد عن حائل ثلاثة ارباع الساعة في السهل الاقرب إلى سفح أجأ .

وبالاضافة إلى القرى التي ذكرتها يوجد في المنطقة القرى الآتية :

قفار ، على ثلاث ساعات سيراً حثيثاً من حائل في اتجاه غربيّ — جنوبي غربي إلى جنوبيّ ، ولا تبعد عن أجأ كثيراً . وهي اكبر قرى المقاطعة ، وقد تكون اغناها ، لا يسكنها سوى بني تميم وحدهم ويُعَدّون حوالي خمسماية عائلة . والعجيب في اسم قفار انه لم يذكر في الكتب التي استطعت الوصول اليها .

وفي الطَرَف الشرقي في القرية آثار خراب من بيوت واسوار طين تثبت ان السكان تحركوا مع الزمان غرباً ، مقتربين من الجبل . وقد احتفظ بنو تميم ببعض الميّزات اللغوية وبملامح في وجوههم تميّزهم بسهولة عن الشمرّ . وفي تجوالي بين بدو الجهات الغربية من شبه الجزيرة كان هؤلاء يسألونني دائماً — ومثلهم المصريون والسوريون — عن بني تميم وعن عاداتهم ولغتهم وقاماتهم وميزاتهم الاخرى . وهم يبدأون بالسؤال عن حجم بني تميم وعما اذا كانت قامتهم اطول من قامة سواهم من العرب ، وما اذا كانت لحاهم اكثف واطول . ويبدو لي ان هذه الملاحظة تعود لمعنى كلمة « تميم » ، وكانت تطلق في الاصل القديم على رجل قوي البنية صحيح البدن . وهذه الملاحظة تصدق في القبيلة المذكورة . (*)

(*) – التميم في محيط المحيط : هو التام الخلق (بفتح الخاء) ، الشديد .

والسكان الحاليون مزارعون فقط . جدودهم في الاصل بَدْوٌ لا يتعاطون في النادر سوى التجارة ، ولا يشاركون الشمرّ حروبهم وغزواتهم . وأظن ايضاً ان ليس هنا بين البدو فرد منهم يعيش عيش البداوة . وفي زمن الحصاد يجتمع حول قريتهم بدوٌ من الشمرّ وعنزة لبيع ماشيتهم ومنتوجها ، او للمقايضة بالتمر والذرة ، ذلك لان في « قفار » اكبر مخازن التمر والذرة في المنطقة .

والتجار المتجولون لا يزورون « قفار » لان ابناءها يبتاعون مترفاتهم ، كالبن والتوابل والعطور ، من سوق حائل – وهم ارستوقراطيو الشمرّ ويميلون إلى التباهي والزهو – والعطور مرغوبة ومستعملة بكثرة في نجد عملاً بسنّة الرسول .

وبنو تميم احرص من الوهابيين على تأدية الواجبات الدينية . وتقواهم ، في الارجح ، سبب حجّهم مراراً كثيرة في جماعات غفيرة إلى مكة . ومع انهم يعودون منها بما يستطيعون حمله من البضائع فهم يحجّون في سبيل الدين لا في سبيل الكسب كما هي غاية الشمرّ في الغالب . وهناك قسم كبير من هؤلاء البدو ذوي الماضي العريق يعيشون في ما بين النهرين . غير ان اكثر القبيلة – على ما يقال هنا – تنزل مع انسبائها من بني هلال شمالي افريقية ، وفي تونس خاصة .

وهناك ثلاث قرى اخرى في منطقة الجَبَلين (أجأ وسلمى) يسكنها ايضاً بنو تميم ، بالاضافة إلى قفار ، هي : مستجدّة ، والروضة ، وفَيْد . فالاولى على يومين إلى الجنوب الغربي من قفار ، والثانية على نصف يوم إلى الشمال من مستجدّة . ويبلغ عدد السكان في كل من القريتين ما يقرب من مايتي عائلة. وقد تكون « الروضة » هي المراعي التي ذكرها ياقوت باسم « روضة قُراقِر » في الجَبَلين (*) .

(*) – قال ياقوت : روضة قراقر ، بضم أوله وتكرير القاف والراء : رياض الجبلين . قال عمرو بن شاس الاسدي :

وانت تحل الروض روض قراقر كعيناء مرباع على جؤذر طفل

اما فَيْد فلا يسكنها بنو تميم وحدهم كما هو حالهم في القرى الثلاث الاول، وعددهم هنا نصف السكان تقريباً . وهؤلاء جميعاً لا يتجاوزون مابة وخمسين عائلة . وفَيْد على يومين قصيرين إلى الجنوب الشرقي من حائل، على الجانب الجنوبي الشرقي من جبل سلمى وعلى مسافة يوم منه . وهي اقدم قرية من المقاطعة . ذكرها جميع الجغرافيين بقولهم انها بُليدة في نصف الطريق إلى مكة (المكرمة) من الكوفة كانت تمر فيها قوافل الحجاج . وان من العادة ان « يودع الحاج فيها ازوادهم وما يثقل من امتعتهم عند اهلها، فاذا رجعوا اخذوا ازوادهم ووهبوا لمن اودعوها شيئاً من ذلك . وهم مغوثة للحاج في مثل ذلك الموضع المنقطع، ومعيشة اهلها من ادّخار العلوفة طول العام إلى ان يقدم الحاج فيبيعونه عليهم» .(*)

يستنتج من هذا الكلام ان سكان فَيْد في ذلك الزمان كانوا اقلّ عدداً منهم اليوم . وان الزراعة كانت ضئيلة على خلافها الآن . وبيعهم العلوفة ما يزال حال اكثر القرى التي في دروب الحاج كمعان وتبوك ومويلح ونخيل وسواها من القرى التي يعود الفضل في وجودها وبقائها إلى الحجّاج الذين يمرّون بها في طريقهم إلى الاماكن المقدسة .

ويضيف ياقوت : « قال الزجاجي : سُمّيت فَيْد بفَيد بن حام وهو اول من نزلها » . وقد يكون لاسم فَيْد علاقة بفايد احد اشقاء سلمى من العماليق ، وقد قيل انه نزل في هذا الجوار . والزجاجي يعتقد ان للكلمة ولفايد جذراً واحداً(**) . وينقل ياقوت ايضاً ما قاله السكوني : « هي أثلاث : ثلثٌ للعُمَريين ، وثلثٌ لآل ابي سلامة من همَدان، وثلث لبني نبهان من طيّء » . وقال ريتر في « تاريخ الارض » : « ان بني نبهان ، هؤلاء ، من بني طيّء وينزلون محلة اسمها المغيرة . »

(*) – ياقوت : ج ١٥ ، ص ٢٨٢ .

(**) – هذا ما قاله الزجاجي بالحرف : « الفيد ورد الزعفران . ويجوز أن يكون من قولهم : استفاد الرجل فائدة ، وقل ما يقولون فاد فائدة » .

وانهم من اقوى عشائر طيّء من فند غوث. » (ج١٣ ، ص ٣٧٢) .

اما آل ابي سلامة فهم ، في الارجح ، من سلالة سلامان من الازد الذي من جدوده همدان. اما العُمَريون فاظن انهم ينتسبون إلى بطن من البطون اليمانية من كهلان .

ويقول ياقوت ايضاً عن السكوني : « وبين فَيْد ووادي القرى ست ليال على العزيمة — وهذه المسافة تطابق المعلومات التي أعطانيها السكان هنا — وليس من دون فَيْد طريق إلى الشام ، وبتلك المواضع رمال لا تسلك حتى تنتهي إلى زُبالة او العَقَبة على الحزن ، فربما وُجد به ماء ، وربما لم يوجد فيجنب سلوكه . » (ربما كانت العَقَبة هذه هي العقبة الشامية) . وقد مرّ بنا ان الطريق من هنا إلى سورية تمرّ بتيماء وتبوك ثم تتبع درب الحج . وقد تكون هي التي اشار اليها السكوني .

الماء شحيح جداً في الأرض الممتدّة من جبل شمرّ إلى تبوك . وما وجد منه كان في صهاريج لا يعوّل عليها . إلاّ ان رمال النفود تقف عند تيماء وتصير الصحراء السورية بعدها سهلة ومسطحة . وهذا كله — بالاضافة إلى ملاحظات ريتر — يُظهر لنا ان فَيْد كانت في القديم اعظم قرية في هذه البقاع . اما اليوم فقوافل الحج تمر بحائل ، مقر الشيخ الحاكم ، وأُهملت فَيد وتقهقرت . ويقال ان فيها آثار قنوات قديمة جداً . ولم تتح لي الفرصة لان ازورها ، فلا استطيع التأكيد .

وبالاضافة إلى القرى الاربع التي ذكرتها من قرى جبل شمرّ ، هنالك بلدة خامسة اسمها الحوطة في نجد العريض يسكنها بنو تميم ، ولم اسمع بمحلة اخرى من بلاد العرب ينزلها او يصادف فيها عرب انحدروا من هذه القبيلة الشهيرة .

وبين فَيْد وحائل ، في منتصف الطريق ، بلدة السَبُعَان في سفح جبل سلمى ، وهي قرية صغيرة فيها مياه جارية ، وتنزلها احياناً — كما تنزل عُقْدة —

عائلات البدو وتقطنها لزرع البلح والذرة . ويذكر ياقوت انها موضع معروف في ديار قيس ، وضبطها بفتح السين وضم الباء قائلاً انه لا يُعرف سواها في كلام العرب اسم على صيغة فَعُلان .

وفي نصف الطريق بين فَيْد والسَّبُعان قرية صغيرة اسمها « طابة » ذكر ياقوت انها موضع في ارض طيّء . وعلى مسيرة يوم إلى الجنوب ، فالى الشرق ، من فَيد قرية الكهفة وهي في طرف ديار الشمّر من هذا الجانب . واظن ان سكان القريتين لا يتجاوزون خمسين عائلة في كل قرية . والطريق من حائل إلى القصيم على تلك القرى . ومبيت الليلة الاولى في السَّبُعان ، والثانية في فَيد، والثالثة في الكهفة . وتبعد كلّ من هذه المحطات الثلاث عن التي تليها مسيرة ثماني ساعات . وتبعد اخيرتها عن القصيبة ، اولى قرى القصيم ، مسيرة يوم طويل . ومن القصيبة إلى « العيون » مسيرة يوم طويل آخر ، ومن العيون إلى البريدة — اهم بلدان القصيم — مسيرة نصف يوم . والبريدة على مسيرة بضع ساعات من عنيزة ، البلدة الثانية في القصيم .

وفي جوار المستجدّة والروضة قرية الغزالة احدى اكبر قرى الاقليم ، وفيها ما يقرب من مايتي عائلة شمّرية . يحيط بها سور من اللبن . وفي طريقي من حائل إلى المدينة اتيتها على جمل في تسع عشرة ساعة سيراً حثيثاً في اتجاهٍ جنوبي غربي .

وعلى مسيرة ثلاثة ايام إلى الجنوب الغربي من الغزالة وخمسة ايام من حائل وثلاثة ايام من المدينة (المنورة) ، على حدود المقاطعة في اتجاه ديار بني حرب ، قرية صغيرة اسمها قصر السليمي تسكنها عشر عائلات تقريباً . وعرب نجد يطلقون اسم « القصر » على المحلات الصغيرة التي على حدود المقاطعات . وسكان هذه القرى مستباحون لغزو القبائل المجاورة فيحيطون « قصرهم » — محلتهم — بسور ويبنون فوق بيوتهم ابراجاً صغيرة تسهّل لهم الدفاع ، وبسبب هذا السور

وهذه الابراج يطلق على قراهم اسم « القصر » . ويبدو ان كلمة « قلعة » التي شاع استعمالها في الازمنة المتأخرة عند عرب مصر وسورية لها المعنى عينه . وكلمة « قصر » وتصغيرها « قُصَير » يكثر استعمالها في الجغرافية القديمة ، وفي الصحراء، كأنها صفة تضاف إلى اسماء القرى الصغيرة . وهنالك قرية مماثلة في هذه المنطقة اسمها « قصر عَشَرَواء » على مسيرة ثماني ساعات إلى الغرب من قفار ، فيها تقريباً ما في قصر السليمي من السكان .

وعلى مسيرة اثنتي عشرة ساعة على متن جمل بطيء إلى الشرق فالجنوب من حائل ، وعلى سبع ساعات من السَبُعان ، قرية صغيرة اسمها « العُدْوة » يزرع بدو الشمرّ فيها الذرة — كما في عُقْدة — وسميرة قرية مماثلة في الطرف الجنوبي الغربي من جبل سلمى قال الجغرافيون العرب انها كانت اول منازل طيّء في هذه المنطقة . والقرى الصغيرة الاخرى المماثلة هي « العُظيْم » و« المكحول » و « الحُفْنة » . ولم استطع تحديد مواقعها .

والى الشمال الغربي من جبل أجأ تقع ايضا بلدة مَوْقَق احدى اكبر بلدان المقاطعة، وعدد سكانها ٢٢٠ عائلة ونيّف . وريتر (٢٠) أخطأ فلم يفرق بينها وبين قُفارفي كتابه «تاريخ الارض» — ج ١٣، ص ٣٥٦— وهي (مَوْقَق) في سفح قمة عالية تتشعّب من سلسلة أجأ الرئيسية ، تقريبا في طَرَف وادٍ يقطع السلسلة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، ومن طرفٍ لآخر ، في مسيرة تبلغ قِراب عشر ساعات. روى ياقوت عن عبيد الله السكوني ان مَوْقَق — وهو لا يدري مصدر اسمها — قرية فيها مزارع نخيل وحقول ذرة في سفح جبل متفرع من أجأ . ويقول آخرون ان مَوْقَق ماء كان لبني عمرو بن الغوث ثم صار لقبيلة شَمَجَى . وعمرو بن الغوث هوفي الارجح جدّ العمريين الذين مرّ ذكرهم(*)

(*) — العمريون الذين يشير فالين اليهم هنا بأنهم قد مر ذكرهم ، هم الذين آتى عليهم ياقوت عن السكوني . وقد ضبط ياقوت اسمهم بضم العين وفتح الميم . وفالين يشير هنا إلى عمرو (بفتح العين وتسكين الميم) ابن غوث .

بانهم يشكلون جزءاً من فَيْد . اما قبيلة «الشمجى» (*) فلم اجد ذكراً لها . والى الشمال الغربي من موقق ، على مسافة قصيرة منها ، تقع الحفير التي مرّ ذكرها وهي صغيرة كالسبعان .

وفي جوار « اللقيطة » في داخل الجبال قرية اخرى صغيرة مماثلة هي « طوية » وعلى مسيرة ست ساعات الى الشرق من « قنا » قرية صغيرة جديدة اسمها ام قبلان تسكنها عشر عائلات تقريباً ، وأطلق هذا الاسم عليها في الارجح لكثرة الآبار فيها ، ومن المنتظر ان يزداد عدد سكانها قريبا . وعلى مسيرة ست ساعات الى الشمال — الشمال الشرقي من حائل ، في السفح الجنوبي الشرقي من أجأ ، قرية « الجثامية » وهي الاخيرة في طرَف المقاطعة من هذه الجهات ، فيها عشرون عائلة تقريباً . وارض الشمّر من هذه المحلة ، بل من الطرف الشمالي الشرقي الذي يبعد خمس ساعات عنها إلى قصر السليمي ، هي اطول ما تكون عليه في اتجاه جنوبي غربي إلى شمالي شرقي تقطعه الجمال السريعة في ستة ايام تقريباً .

وعرض هذه الارض ، من جُبّة إلى الكهفة شرقي فَيْد ، يماثل المسافة عينها تقريباً . ورغم ثقتي بان هذه المنطقة هي اكثر مناطق نجد سكاناً فان الشمّر وبني تميم المقيمين فيها لا يقدّر عددهم باكثر من الفي عائلة . غير اني لا استطيع معرفة عدد اولئك الافراد والعائلات من القبيلة الذين يعيشون عيش بداوة . واذا استثنينا البدو النازلين ما بين النهرين (العراق) ، فاني اعتقد ان الشمّر المتنقلين في هذه الديار والصحارى المجاورة لا يتجاوزون الف عائلة .

ومن حائل ذهبتُ مع قافلة الحجاج العراقيين والفرس إلى المدينة ومكة وأتممتُ فريضة الحج . ويؤسفني القول انه ليس عندي تفاصيل جغرافية عن

(*) — انظرها في ملحق الاستدراك والتعقيب ، في الذيل ، رقم ٦٢

رحلتي هذه ، فقد عاقني عن طرح الاسئلة وتدوين الملاحظات وضعي الخطر بين الحجّاج ، والسيرُ السريع المتعب ، وما شعرت به لاول مرة من تحفّظٍ عند العرب اظن ان سببه القلق والمحن التي تلحق بالحاج المنفرد ، ووجود الفرس المزعجين (كذا) المتعبين الذين لا تُستحب رفقتهم في الرحلات الصحراوية ، يضاف إلى ذلك كله ظروف اخرى غير مؤاتية .

ان الحجّاج يطرقون في اكثر الاحيان الدرب المباشر إلى مكة — فيما اذا لم يكن لديهم متسع من الوقت — فيصلون اليها في اثني عشر يوماً ، غير انهم اتبعوا في هذه السنة طريقاً غير مباشر يمر بالمدينة . وبلغت رحلتنا من حائل إلى قبر الرسول (صلعم) خمساً وثمانين ساعة من السير السريع جداً على متن الجمال ، في اتجاهٍ جنوبي غربي ، او غربي جنوبي .

وفي مسيرة تسع وثلاثين ساعة من حائل عبرنا سهلاً فسيحاً انتهت فيه سلسلة أجأ التي كانت إلى يميننا طوال سيرنا . وبدأ السهل يمتدّ نحو الشمال الغربي . وقيل لي ان هذا السهل يتصل بالبحر الاحمر دون ان تعترضه جبال او تموّجات . وربما كان جزءاً من وادي القرى القديم الممتد من حجر إلى داخل الصحراء من جهة ، وعبر وادي نجد الحالي من جهة اخرى إلى مرفأ الوجه .

وفي وسط السهل ، إلى يسارنا ، قرية صغيرة اسمها « الحليفة » فيها ثمانية منازل وبعض بساتين فقيرة من النخيل يملكها عرب عنزة . وفي الجهة الاخرى من السهل بدأنا نرى جبالاً تبدو وكأنها امتداد لأجأ ، إلاّ ان صخورها رملية وكلسية ، وذلك حتى أتينا ديار بني حرب والاجزاء الداخلية من الحجاز ، حيث سلسلة جبال غرانيتية تشكل جدراناً للاودية التي فيها طريقنا .

(انتهت الرحلة الاولى)

رحلة ١٨٤٨

انطلقت من القاهرة في اواخر سنة ١٨٤٧ ، في الطريق التي تمرّ بقرب بلدة السويس عبر منبسطات الشاطىء ، وهي مديجزريات رملية تترامى على الطرف الاقصى لخليج السويس وعلى طول الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء .

وبعد سفر طال ثمانية ايام وصلتُ الى الطور ، وهو مرفأ قلّ ان لا تتوقف فيه المراكب التي تمخر هذا الخليج ، وقدّرت اني مستطيع تأمين نقلي بسرعة ، بحراً ، عبر الخليج ، الى محلةٍ ما على ساحل بلاد العرب المقابل .

ووافق ذلك وقت عودة الحجّاج المصريين من مكة ، فعرفت ان السفن التجارية التي من عادتها العمل بين مصر والحجاز ، والمنتظرة في الطور ، ستصل من الجنوب ، وأن عدةً من اسابيع قد تنقضي قبل ان تغادر احداها السويس نحو الشاطىء العربي .

وبعد ايام قضيتها هناك بدون جدوى ، قررت السفر الى الشَرْم وسبيلي طول ساحل شبه الجزيرة الجنوبي ، اذ اكّد لي البدو الضاربون في ضواحي الطور أن الشَرْم وبلاد العرب على اتصال بحري مستمر . وبعد مسيرة يومين ونصف اليوم وصلت الى الشَرْم وعرفت من الصيادين فيها ان جميع مراكب الصيد في هذه الضفة قد اقلعت الى المويلح في الضفة الاخرى ، حيث وصلت قوافل الحج المصري العائدة ، إلاّ مركباً يتوقع وصوله من الضفة المصرية ناقلاً مؤنا للحجاج .

وحول منتصف الليل . وصل المركب المنتظر ولم يـَرس ُ سوى دقائق معدودات تابع بعدها رحلته لان رُبـّانه خشي التأخر في الوصول الى المويلح لملاقاة القافلة ولم أدر بذلك الا في اليوم الثاني صباحا .

وإذ خبتُ املاً مرة اخرى ، ولم يكن في نفسي ميل للسفر برّا في رحلة طويلة حول خليج العقبة ، اضطررت مذعناً لما تفرضه الحاجة الى انتظار اول مركب يمر هنا . وأقمت في العراء مع بدويين صيادين من عرب 'مُزَيْنَة ، لا منزل يُؤْويني ، ولا خيمة تظللني .

ان العرب هنا يطلقون اسم «الشَرْم» على كامل بقعة الشاطىء الممتدة من راس محمد الى محلة غير محكمة التحديد في الشمال من وادي مُراري ، تقريبا على خط العرض الذي يمر بجبل موسى . ومن المحتمل ان اطلاق هذا الاسم على البقعة سببه تضاريس الساحل العديدة لان كلمة الشَرْم تعني الشق ، ومن ثمّ تطلق على خليج أو ساقية في شاطىء البحر(*)، اما هنا فتطلق ، حصراً، على سهل قاحل صغير رماله مالحة جافة (سبخة)، يجاور ميناءين يُعْتَمدان غالبا في تحديد البقعة . وينتهي السهل، في الشمال، بسلسلة منخفضة من صخور رملية، ويحدّه جنوبا الشاطىء الصخري . وفي سفح تلك التلال بئر يضرب ماؤها الى الملوحة ؛ اما الميناءان فحوضان تكتنفهما الارض ويدخلهما ماء البحر من منافذ ضيقة ، وينشىء الميناء الغربي ملاذاً لاكبر انواع السفن العربية ، بينما الشرقي يستوعب قوارب البدو الصغيرة .

وعلى الضفة الشرقية من اول الميناءين مقام لاحد الاولياء ، وفي السهل بيت صغير منفرد مبني بالحجر ، قيل لي ان رجلا من الطور يقيم فيه أحياناً ليتاجر(**)

(*) — الشرم ، بفتح الشين ، هو الخليج ، ولجة البحر ، وهو أيضاً شجر . جمعه : شروم (اقرب الموارد) .

(**) — تاجر السفن : باع منها واشترى

السفن التي تقف في هذا المكان . وفي وسط السهل ، تقريبا ، وبين الميناءين ، نخلة وحيدة تتظلل احياناً بظلتها الضئيلة جماعات من البدو او من البحارة العرب لإعداد طعامهم القليل ، او للاستراحة بعض الوقت هربا من قيظ الظهيرة .

ويتردد الكثيرون على الشرم لعذوبة مائه وأمن مرفأيه ، وتعتمده السفن للارساء في الليل ، ولا سيما تلك المسافرة الى الشمال . وما ان يلوح شراع في عرض البحر حتى يسرع احد الصيادين المقيمين هناك بنقل الخبر الى جماعته في قبيلة مُزَينة . ومن عادة هؤلاء انهم يضربون خيامهم في وادي العاط ، على خمس ساعات من الشاطئ . وفور ورود النبأ يقوم احدهم بتحضير الجمال ويتجهون نحو الشرم «للنزول ورؤية ما أرسله الله لهم» — على حد تعبيرهم . وهم يتقاضون كلّ سفينة ترسو جزية قليلة قد تكون حبوباً وارزاً ، ويأملون ، بالاضافة اليها ، بان يقعوا على حاجٍ او مسافر ضناه سفر البحر طوال اربعين او خمسين يوما فيحاولون إغراءه بايجاره جمالهم ليتابع رحلته برّا الى السويس او الى القاهرة .

ان الصيادين المقيمين في الميناء فقراء الحال من اصل بدوي ، فقدوا ماشيتهم وإبلهم في احدى الحوادث التي تمر بهم في حياة البداوة ، فاضطروا لهجر الصحراء واللجوء الى البحر في طلب العيش . والسمك طعامهم في اكثر الاحيان ، وقد ينوّعون هذا الطعام بما تعطيهم اياه جماعاتهم من ذرة او طحين أجراً للرحلات القصيرة التي يقومون بها الى وادي العاط ، او بما يحصلون عليه من جماعات السفن من خبز وأرز مقايضة باسماكهم . وهم يستعملون الخيط والصنّارة في الصيد . ويصنعون الصنانير من المسامير او من قراضة الحديد التي يعثرون عليها ، ويحصلون على الخيوط بمقايضة البحّارة المارين . وان وفرة الاسماك في البحر المجاور ومهارة الصيادين تخفّفان الكثير من حاجتهم الى أدوات افضل .

وكثيرون من اخوانهم الرحّل في جبل سيناء ومن قبيلة هتيم التي انتقل بعض بطونها هذا العام الى جزيرة تيران ، يملكون هم ايضا قوارب يتجرون بواسطتها

في نطاق ضيق بين شبه جزيرة سيناء وسواحل بلاد العرب ومصر . وهم يعرفون ساحل مصر باسم «بر العجم»— ومن المحتمل انهم اطلقوه هكذا لانهم يعدّون مصر ارض شعب من اصل غير عربي ، وبالتالي بربري (*) ويجلبون منه القمح والذرة والدُخْن فيسدّون ببعضها حاجات عائلاتهم ويمونون بالجزء الاكبر منها المدن الصغيرة والبدو المنتشرين على طول الساحل العربي حتى «الوجه» الذي ندر ما تجاوزوه الى الجنوب .

وفي موسم سفر القوافل المصرية الى مكة وعودتها منها تنشط تجارة البدو في الاماكن التي تتوقف فيها تلك القوافل ليلة او بضعة ايام، فيصلون اليها محملين جميع اصناف المؤن يقايضونها بالبن والتوابل والثياب والاسلحة ، وبأية سلعة اخرى قد يتخلى عنها الحاج . لذلك قصد بدو شبه جزيرة سيناء في قواربهم الى المويلح لملاقاة الحجيج العائدين سعيا الى الكسب من هذه المقايضة .

وبعد ستة ايام قضيتها مع الصيادين العشرة الذين يؤلفون سكان الشَرْم — بعضهم عراة والآخرون يرتدون الاسمال — عاد اول مركب من بلاد العرب يملكه بدوي من بني عُقْبة يعيش منذ سنوات مع عرب مُزَيّنة في جبال سيناء . وما ان رسا المركب الصغير حتى جرّه صاحبه الى الشاطىء وأخذ يجرّده من شراعه ليبقيه في عهدة الصيادين ريثما يزور عائلته في وادي العاط . وبعد إلحاحٍ شديد ، وبمبلغ من المال لا بأس به ، استطعت اقناعه كي يرجع زورقه الى البحر وينقلني الى المويلح التي غادرها منذ قليل . وأبحرنا مساء ومررنا ليلا بجزيرة تيران .

في الصباح ادركتنا عاصفة شديدة هبّت من الغرب ودفعتنا الى اللجوء الى مرسى غير أمين بين الصخور المرجانية في جزيرة شوشوه ، فتوقفنا بضع

(*) — بمعنى « غريب » . من اليونانية واللاتينية : أطلق اليونان اسم برباروس على الشعوب غير اليونانية ، وأطلقه الرومان من بعدهم على الشعوب غير اليونانية وغير الرومانية . وعند العرب ترادفه كلمة عجم .

ساعات الى أن مالت الريح الى اتجاه شمالي – شمالي غربي ، وسكن البحر الهائج بعض السكون ، فغادرنا ملجأنا وتابعنا السير الى جزيرة برقان وفيها قضينا ليلنا . وفي غد انطلقنا صباحا فمررنا بجزيرة يَبْعا الصغيرة ووصلنا الى المويلح عند الظهر .

المُوَيلح بلدة من اعمال حكومة مصر ، ومن أهم الاماكن على طريق حجّاجها الى الحجاز ، وفيها ، كما في سواها من المحطات الرئيسية في طريق الحج ، قلعة وبعض منازل من حجر . يحرس القلعة جنود مصريون ويسكن المنازل ضباط الحامية وأتباعهم . اما السكّان الآخرون ، اي التجار الصغار وعائلات البدو الصغيرة ، فيكتفون باكواخ مؤقتة تدعى بكاكير (من بكّار) مصنوعة من الجريد ومسقوفة بالخوص . ويقدر عدد افراد الحامية باربعين شخصا . والسكان الاخرون يبلغ عددهم سبعين او ثمانين عائلة .

والقلاع المنتشرة في هذا الطريق ، وفي طريق الحج السوري ، متشابهة البناء وان اختلف الحجم ، شادها ، في الارجح ، السلاطين الاتراك لحماية الحجيج ولتموينهم ، ولحراسة الآبار الموجودة في اكثر تلك القلاع . وتذود الحامية أيضا عن المقيمين خارج الاسوار من غزو البدو الذين يعيشون من السلب والنهب . ولمّا كان اواخر الباشاوات (الولاة) قد حدّوا من سطوة العرب وبأسهم ، فان الحكومة التركية المتراخية اهملت ترميم القلاع ، فأخذت هذه تنهار بسرعة على رغم من انها في الاصل منيعة يسهل الدفاع عنها .

والبدو الذين يقصدون المويلح لاقامة مؤقتة ، قد تطول وقد تقصر ، يسكنون الاكواخ او البكاكير التي ذكرتها ، او انهم يعيشون في خيام يجلبونها معهم . وهم فقراء من بطون اكرهتها ظروف السوء على مغادرة الصحراء بعض الزمان على امل العودة ، فصار بعضهم يتعلق بحياة المدينة ويقيم فيها ابدا . ومن تتوافر له الامكانات يعمل في التجارة مع عرب المناطق القريبة على ساحل البحر الاحمر ، مزاحماً

سكان القلعة والمصريين والتجار العابرين .

اذن ، للمويلح اهمية بالغة بالنسبة لبدو الجوار لانها اقرب بلدة اليهم وهي في اكثر الاوقات المحطة الوحيدة التي يحصلون فيها على مؤن بالمقايضة بماشيتهم وبحليبها . واذا لم تتوافر الماشية والحليب تعاملوا «على الحساب» كما حصل لبطن رئيسي من قبيلة معازة ، وانا هناك ، فقد تَمَوَّنَ الارز والذرة بما قيمته الف وخمسماية دولار اسباني (*) ديناً باسم الحكومة المصرية وبواسطة وكيل القلعة .

وليس في المويلح مرسى للسفن سوى فُرضة خطرة ، خلف الصخور المرجانية البعيدة عن الشاطىء بعض الشيء ، وقلما تزورها مراكب اكبر حجما من السفن التي ترسلها حكومة مصر من القصير الى القلعة . والمؤن هنا اغلى كثيرا منها في الوجه . أضف الى ذلك رأي البدو بتفوق الحبوب السورية ، صلابةً ونوعا ، ولهذا يفضلون ان يتمونوا من غزة ، ولا سيما اذا لم تمنعهم من الذهاب اليها حرب في الصحراء ، او صعوبة في اكتشاف المراعي .

ان الكثيرين من سكان المويلح يملكون بساتين وجنائن نخل تتفوق بمساحاتها وبالعناية التي تلقاها على البساتين والجنائن الاخرى على الطريق الى مكة .

اما المياه هنا فليست جيدة دائما ، الا انها غزيرة تأتي من الآبار الضاحلة الكثيرة في البلدة وضواحيها ، كما ان في الساحل وعلى طوله ينابيع سطحية لا تبعد احيانا عن اعلى نَيْـم (**) للموج ، مياهها فاترة تضرب الى الملوحة. ويتساقط المطر في المويلح ، والى حدّ ما في الجزء الشمالي الغربي من بلاد العرب في اوقات متقطعة بين شهري تشرين الاول (اكتوبر) ونيسان (ابريل) ، ويحرّ الطقس ويجف في الاشهر الاخرى .

(*) – يقول تشارلز دوتي ان تداول دولار ماريا تريزا الفضي والريال الاسباني هو الذي كان معمولا به في بلاد العربية .

(**) – أقصى حد من الشاطىء يصل إليه موج البحر .

ولمّا كان في عرف العرب ان كل قرية او بلدة في ارضهم تملكها قبيلة معينة : فبنو عُقْبة الذين من عادتهم النزول في هذه الضواحي يعدّون المويلح ملكاً لهم ، ولذا يطلق عليهم لقب غفراء (*) المكان . ويقولون ان لهم حقاً ممتازا تجاه القبائل الاخرى في مرافقة الحجيج لحمايتهم بين البَدْع — على بضع ساعات الى الجنوب من العقبة — وبين ضبا المعروفة ايضا باسم بير السلطان ؛ وهاتان المحلتان تحدّان ديار بني عُقْبة .

ان العرب هنا — وهم السكان الشرعيون — لا يشتركون في ادارة شؤونهم المحلية — ومثل هذا حالهم في جميع اعمال مصر . اما البلدان التي في الطريق السوري ، فحقوق سكانها محفوظة كما هي في اكثر الانحاء العربية حيث يعمل بالقوانين الفطرية والعرف البدوي والتقاليد الصحراوية . وقد أُنشيء هنا جهاز قضاءٍ اسلامي يديره الضباط الاتراك .

ويخيل اليّ ان المويلح بلدة حديثة ، يعود الفضل بوجودها الى انها على طريق الحج المصري . ولم أجد لها ذكرا في المخطوطات العربية التي اتيح لي الرجوع اليها ، ولا دلائل او تقاليد عند السكان تشير الى قدمها .

يروي بنو عُقْبة انهم كانوا في الماضي البعيد قبيلة كبيرة ذات نفوذ تملك الاراضي الممتدة من شاما الى داما — شاما تعني الصحراء السورية ، وداما تشير الى وادٍ ما يزال يحمل اسمها بين ضبا واسطبل عنتر — ويقولون ان القبيلة انقسمت في صدر الاسلام قسمين كبيرين : مسالمة وبني عمرو ، وجدهما واحدٌ اسمه معروف . وبسبب خلافات عائلية بين شيخ بني عمرو وزوجته (عَيَيْفَة) شقيقة علي بن النجدي زعيم البطن الآخر ، نشبت نزاعات انتهت بان مسالمة طردت بني عمرو من ضواحي المويلح وارغمتهم على اللجوء الى قبيلة الحجّايا في ضواحي

(*) — أو على الأصح « حراس » — فالين .

الطفيلة فاندمجوا بها وصاروا معها منذ ذلك الحين قبيلة واحدة ، ولكنهم ظلوا يَكنّون العداء لانسبائهم المسالمة . وفي الماضي نزحت عائلات عديدة من هذه القبيلة الكبيرة الى شمالي افريقية واختلط آخرون منها بفلاحي مصر حتى تضاءل عددها الى اربعين او خمسين مضربا في ضواحي المويلح . وتملكت الحويطات الحديثة العهد ، والمتزايدة عددا ، اقاصي المناطق الشمالية من هذه البلاد التي كانت لبني عقبة .

وفي القلقشندي اجد هذه الملاحظة : (*) « بنو عقبة بطن من جذام من القحطانية ، قال الحمداني : وهم بنو عقبة بن مجربة (**) بن جذام . قال في «العبر» : وديارهم من الكرك الى الأزْلم في برية الحجاز ، وعليهم درك الطريق ما بين مصر والمدينة النبوية الى حدود غزّة من بلاد الشام. قال في «مسالك الابصار» : وعليهم درك حجيج مصر من العقبة الى الداما . قال : وفرقة منهم بالحجاز من بني واصل بن عقبة . قال في «العبر» : وبافريقية وبلاد المغرب منهم بقية وامة كثيرة النواحي في طرابلس . » ويقول القلقشندي ايضاً : « وبنو واصل الذين موطنهم مصر فرع من بني عقبة من بني مجربة بن جذام من القحطانية . قال الحمداني : ومنهم فرقة بالحجاز نازلون بأجأ وسلمى جبلَي طيّء.»

أما المكان الوحيد الذين التقيت فيه بني واصل ففي الشَرْم في شبه جزيرة سيناء حيث روى لي الصيادان اللذان ذكرتهما ، انهما واصليان ، وقد حدثاني فيما هما يرحّبان بي عن عظمة اجدادهما ، ولم اسمع شيئا عن هذه القبيلة في جبلَي طيّء ولا في جبل شمّر .

ان اراضي هذا الجزء من بلاد العرب تعرف بالساحل . وهي المترامية بين

(*) – نهاية الأرب – ط. بغداد ١٩٥٨ ، ص ٣٣٦ .

(**) – وردت مغربة عند المؤلف استناداً إلى مخطوط في المتحف البريطاني رقمه ٧٣٥٣ . ووردت في « معجم قبائل العرب » لعمر رضا كحالة : عقبه بن مخرمة (٢ : ٧٩٧)

صفحة من خط ڤالين عن حرف الضاد « أصعب الحروف وأشدّها على اللسان » .

البحر وسلسلة جبال غرانيتية موازية للشاطىء وتبعد عنه ثماني ساعات (٢٤ ميلا) ويتخلل المنطقة — باستثناء رقعة الشاطىء — اودية تنحدر من السلسلة الرئيسية في اتجاه جنوبي — غربي، اكبرها وادي السرحان الممتد من جبل شار في السلسلة الرئيسية حتى المويلح ، وفيه بئر عظيم يستقي منه السكان . وهناك وادٍ آخر يقع على مسيرة ست ساعات (١٨ ميلا) الى الشمال من المويلح اسمه وادي تريم فيه الآبار المسماة «العيون»، وفيه يقضي الحجاج ليلتهم الاولى بعد مغادرتهم المويلح الى مصر . والى الجنوب ، بين ضبا واسطبل عنتر (*) يقع وادي داما ، وفي ناحية الوجه يقع وادي الفرا ووادي أزْلم (**) .

وجميع هذه الاودية — بما فيها الصغيرة القريبة من سفح سلسلة الجبال — منبسطات من رمال ناعمة متموجة غير جلية التحديد . اذ لا تفصل التلال بينها فصلا واضحاً . ويطلق اسم جبال الشفا ، او جبال تهامة ، على جزء من السلسلة التي وصفتها بانها الحد الشرقي للساحل . وهذا الجزء يمتد من موضع يقابل «الوجه» وينتهي في وادي اللِّثْم . ووادي اللثم منفرج في سلسلة الجبال ، على ثماني ساعات (٢٤ ميلا) الى الشمال من العقبة . وتكملة هذه السلسلة — من الشمال من وادي اللثم حتى تلتقي جبال سورية — اسمها جبال الشراة . واعلى القمم القريبة من المويلح جبل شار وقد مرّ ذكره . والى الشمال منه أم جُدَيلة ، وجِم ، وصدر ، وحرب .

ان ارض الساحل مجدبة في الاكثر ، والمراعي فيها غير كافية ، إلاّ انها تنبت السَمُر والطَلْح (***) بكثرة. اولهما ينتج صمغاً دون صمغ الحجاز نوعاً ،

(*) — هناك بلدة باسم إسطبل عنتر ، على طريق الحج السوري تقع شمالي المدينة المنورة .

(**) — هنا عقب المؤلف فقال انه يجب الاستعلام عما اذا كان هذان الواديان هما إلى الجنوب من اسطبل عنتر .

(***) — السمر ، كربجل، نبات من فصيلة الاسليات تصنع منه الكراسي والسلال. وشجر من العضاه=

والآخر يعطي خشبا كثيرا يستخدم للوقود ويصنع منه الفحم . والبدو يبيعون الصمغ والحطب في المويلح والسويس ، واحيانا في القاهرة .

وغير بني عُقبة المقيمين في الضواحي الملتصقة بالمويلح، يقطن تلك الديار بكاملها ، تقريبا ، الحويطات احدى اكبر القبائل اليوم ، وهم منتشرون من بطرا (وادي موسى) الى الوجه ، على مد الساحل ، وفي اماكن من الجبال الشرقية وفي مناطق عديدة من مصر . والقبائل الاخرى تتعالى على عرب الحويطات لكونهم مختلطين بفلاحين وليسوا من اصل بدوي قح ، وتحسبهم في مستوى قبيلة هتيم المستضفعة التي يوصف ابناؤها بـ « نطّاطي الحيط » .

وبطون الحويطات الرئيسية المقيمة هنا هي الطُّقَيْقات ، والعُميرات ، والعُمران . ومن القوم من يعدّ الطقيقات اشرف هذه البطون وانها قبيلة مستقلة . وهي تسرح في وادي تريم وضواحيه حتى العقبة في الشمال . ومن الحويطات ايضا : العُبيّات ، والجِرافين ، والسُلميين ، والمُسالمة ، والعُرينات ، والصُغيين ، والشرمان ، تتردّد على مناطق جنوبيّ المويلح باتجاه اسطبل عنتر . ومنها ايضا : المشاهير ، والقُرعان وهما يقيمان في وادي أزْلم عند سفح جبل سُوَيّد وفي جوار الوجه . والحويطات تقول ان جدها كان يدعى رَيْشَة . ولم استطع العثور على اية اشارة اليه او الى سلالته في « انساب العرب » التي اطلعت عليها .

وهناك قبيلة صغيرة تدعى المساعيد ، لا تمتّ الى الحويطات ، تقول انها نزحت في البدء من وادي ليف في اليمن ، ومن عادتها النزول قرب مقنا . ومقنا ، هذه ، مكان قيل لي انه مجموع اكواخ من الخوص (بكاكير) على يومين الى الجنوب من العقبة .

= ليس أجود منه خشباً ، ينقل إلى القرى لتسقف به البيوت - وهو الشوكة المصرية . (والاسل نبات دقيق الاغصان تتخذ منه الغرابيل بالعراق) .

والطلح : شجر لها شوك ترعاه الابل . — « أقرب الموارد »

وقريبا من مقنا تنبسط جنائن نخلٍ فسيحة ، يجاريها جدول ماء ، ويملكها بنو عُقْبة وسواهم من عرب الجوار ، وتعتني بها قبيلة من الفلاحين اسمهم الفَوَيْدَة يشاركون اصحابها في استثمارها — كما هو الحال عند الجبلية في جبال سيناء — لقاء عنايتهم بها . وفي موسم القطاف يجتمع اصحاب الجنائن لجني المحاصيل وتقوم سوق يؤمها عربٌ كثرٌ من مناطق بعيدة للمتاجرة والمقايضة .

٢٠ من شباط (فبراير) ١٨٤٨ غادرت المويلح يرافقني عُقْبي (*) ومشينا ساعة في السهل الرملي القاحل ، بمحاذاة طريق الحج تقريبا ، ثم دخلنا وادياً مسطحا قليل النبات اسمه وادي القامرة . وسرنا فيه نصف ساعة فوصلنا الى اكمات من صخور رملية ، او على الاصح : الى اكمات غير منتظمة ، والى كتل من الرصيص (**) كتلك التي توجد في سفح سلاسل الجبال . وتابعنا السير في اتجاه شمالي — شرقي ، عبر اودية تتعالى تدريجا بين تلال لها الصفات عينها لكن لونها قاتم ، وبعد ست ساعات على مغادرتنا المويلح وصلنا الى مضارب رفيقي ودليلي .

٢١ من شباط (فبراير) تابعنا السير وقد رافقتني جماعة دليلي كلهم بعد ان قرروا امس الانتقال من مكانهم . واجتزنا واديا صغيرا اسمه وَيْوي ، أتينا منه الى وادٍ اكبر اسمه وادي صدر يؤلف من وهادٍ متباينة ومتتابعة ، ومن اوديةٍ صغيرة تنحدر من بين قمم السلسلة الرئيسية . ووادي صدر يتسع تدريجا ليصير سهلا منبسطا عند السفح . والوهاد في الجبال وعرة وشديدة الانحدار ، فيها المياه متوافرة وينمو في بعضها نخل يملكه بنو عقبة . واما السهل فرمال ناعمة نظيفة تسمى «النُفُود» والعربي ينظر اليها دائما منشرح الصدر على انها تمثل له العنصر الذي يميز ارضه وارض اجداده .

(*) — فرد من قبيلة عقبة .

(**) — ما ركمت عليه الحجارة . جمعها : رصائص .

ان وادي صدر من اخصب بقاع الساحل . ومقام محبب الى العرب هنا ، فما ان بدا لنا السهل الاصفر حتّى هتفت نساء القبيلة بارتياح ظاهر : «الحمد لله ، لقد رأينا النفود مرة اخرى!»

اجتزنا سهل صدر في اتجاه شماليّ – شمالي شرقي نحو قمة جبل حرب . وكنا نلبي دعوات المضارب التّي مررنا بها فتأخرنا وغابت الشمس عنا قبل وصولنا الى الجبل . اما مدة سيرنا الفعلي من وَيْنوي فثلاث ساعات .

استقبلتنا العُمَيرات – وهي بطن من الحويطات – بالقهوة والعشاء ، على رغم من ان قبيلة المَعازه كانت قد أغارت عليها قبل يومين . ولم يكن لدى مضيفينا – شأن جميع البدو الفقراء في فصل الربيع – خيام تقينا الرياح الغربية القاسية الباردة، التّي تعصف بجبل حرب عصفا شديدا . قيل لي ان هذه الرياح تهب هنا بانتظام كل سبعة ايام ، فتبدأ بعد المغيب وتستمر طوال الليل، ويعقبها في النهار نسيم من الجنوب ، وهي محلية قلّ ان تمتدّ الى ابعد من الاراضي المترامية في سفح الجبل ، أو ان تصل الى البحر .

٢٢ من شباط (فبراير) – تابعنا السير قليلا في وادي صدر ، في سفح جبل حرب . وهذا الجبل ينعطف جنبه المرتفع والشديد الانحدار في زاوية تميل الى اتجاه شرقي – شماليّ شرقي ، ويشكل فتحة فسيحة في السلسلة الرئيسية . ثم سرنا ساعة وعشر دقائق ، ودخلنا الشعاب الوعرة من السلسلة ، واول وادٍ أتينا اليه هو وادي الكحلة اجتزناه في ساعة وعشرين دقيقة ، ويطلق على امتداده نحو الشمال الشرقي اسم الحُلَيقة . وبعد ساعتين وعشر دقائق اخرى وصلنا الى شعب اسمه نقب الحُلَيقة . وتابعنا السير ساعة وعشرين دقيقة اخرى، عابرين قمة الشعب وهبطنا في سهل دائري مفتوح يدعى السُوَيقة .

٢٥ من شباط (فبراير) اجتزنا وادي السُوَيقة في خمسٍ واربعين دقيقة

الى سلسلة ادنى من التلال ، على الجانب القبلي – الشرقي من الوادي ، ودخلنا وادياً اسمه المُرَيخة اجتزناه في ساعة وخمسٍ واربعين دقيقة . وتابعنا سبيلنا عبر ممر اسمه «ضيّقة السألول» (*) فوصلنا بعد ساعة وعشر دقائق الى «وادي صواوين» وهو وادٍ متناسق ينحدر بسرعة في اتجاهٍ غربيٍ – جنوبيّ غربي . كان اتجاه سيرنا ثابتاً حتّى الآن في اتجاهٍ جنوبيّ – جنوبيّ غربي ، فملنا الى الشمال الشرقي وسرنا على درب عسير في قعر الوادي تعترضه حجارة ضخمة وكسارة صخور . وبتنا في خيام بني تُجَرَاء من قبيلة المعَازه .

٢٦ من شباط (فبراير) سرنا ساعتين ونصف الساعة صعدا في الوادي حتّى وصلنا الى نقب الصواوين ، وهو شِعب شديد الانحدار قضينا ساعة في تسلّقه . والقمة التّي وصلنا اليها ترتكز على الحرف الذي يفصل بين الاودية والسيول الشتوية المنحدرة الى البحر الاحمر وبين تلك التّي تتجه الى داخل الصحراء . وهذه المرتفعات تقوم فاصلا بين جزءين مستقلين من بلاد العرب .

اليك بعض ملاحظات على الارض التّي اجتزناها :

هذه المنطقة هي الجزء الداخلي من سلسلة الجبال ، وتتألف من تلالٍ شديدة الانحدار ومن اودية تتتالى بغير انتظام . ارضها صخور عارية هنا ، ورمالٌ هناك ، ونباتها يماثل نبات الساحل ، إلاّ ان الشجر فيها اكثر من الشجيرات . والاودية تكسوها حصىً وحطام صخور تبعث بمنظر كئيب من الخراب والدمار .

وجبال السلسلة في جهة الشاطىء صخور غرانيتية . وفي الداخل ، نحو الشرق ، صخور رملية بنّية اللون قاتمة. وفي هذه الجبال ينمو السَنْط ، وينمو بينه في بعض الاماكن نخيل ولوز .

على هذه الديار الممتدة من حوافي الجبال المطلة على الشاطىء ، إلى منطقة

(*) – او « السعلول » .

التلال في داخل السلسلة يطلق اسم تَهَامة . ولم أجد لهذه البقعة ذكراً صريحاً في المؤلفات العربية إلاّ في قاموس الفيروزبادي (٣٦) الذي يقول ان التَهَامة (بفتح التاء) تعني : « الارض المنحــدرة المتصوّبة إلى البحر » ، وان هناك فارقاً بينهما وبين الارض المنخفضة المسماة التِهامة (بكسر التاء) التي يعدّها اكثر جغرافيي العرب الجزء الجنوبي من الحجاز . ومن المشهور ان الخطوط الفاصلة التي يتخذها هؤلاء حدوداً لمناطقهم المختلفة هي خطوط غامضة ومتناقضة ، تختلف في حالات كثيرة عن الحدود المعينة لها في يومنا هذا (*) فالمدائني (٣٧) ، مثلاً ، يرى — وقد أخذ برأيه كوسان دي پرسڤال (٢١) في آخر كتبه النفيسة « **بحث في تاريخ العرب قبل الاسلام** »— ان الحجاز اسم شائع يطلق على كامل سلسلة الجبال الممتدة على طول ساحل البحر الاحمر من اليمن إلى سورية. والواقدي (٣٨) يطلق هذا الاسم على الاراضي الممتدة من المدينة إلى تبوك فقط . في حين ان ابن اياس (٣٩) ، يطلق اسم الشراة على كامل سلسلة الجبال . وقال لي عربي من الطائف ان مواطنيه يطلقون اسم تِهامة على ما يسميه العرب الآخرون بالحجاز .

والتهاميون الحاليون يقسمون سلسلة الجبال والاراضي الجبلية المتصلة بها أقساماً ثلاثة : الحجاز وتِهامة والشراة . وحدود الحجاز الشرقية تمتد من الطائف إلى المدينة فالحِجْر (كاد الجغرافيون العرب يجمعون على استثناء الطائف والمدينة من كونهما حجازيتين) ، اما الحدود الشرقية لتَهامة اليوم فمن الحِجر شمالاً على طول القسم الشرقي من جبال الشفا حتى وادي اللّم . — ويطلق اسم التهامة على هذه المنطقة ، في الارجح ، بسبب انطباق معنى لفظها على الجو الوخيم والموحش الذي يعمّ ارضاً منخفضة تحيط بها الجبال ، ومقابلته بنجد المنطقة المفتوحة ذات المناخ الصحي . — هذا ، ولا فرق في عد البحر او الجزء الغربي من السلسلة حدود التهامة من الغرب . وفي يومنا هذا تعرف الارض المحاذية

(*) — كتب فالين رحلته هذه سنة ١٨٤٨ .

للشاطىء في مويلح وضواحيها باسم الساحل فقط . ولم يطرق اذني سوى « جبال الشراة » اسماً للجبال في المنطقة الممتدة من وادي اللَّثْم إلى سورية .

واذا قابلنا ما رواه الكتّاب العرب ، في تقسيم المنطقة، بروايات السكان الحاليين، رأينا ان الحجاز– الذي يفصل بين الارض المرتفعة والبحر – والتهامة والشراة هي في الاصل ألفاظ خاصة تطلق على أجزاء مختلفة من المنطقة ما لبث عدد من الكتّاب ان عمّموا استعمالها في تسمية المنطقة كلها. وتثبت هذا الرأي في نظري ملاحظتان وردتا في كلام بعض كتّاب العرب على المميزات الطبيعية لنجد والحجاز والتهامة ، إذ قالوا ، اولا ، إن « اودية التهامة تنحدر غرباً نحو البحر ، واودية نجد تذهب شرقاً نحو الداخل » ، ثم قالوا ان « الارض التي تنبت السَمُر والطَلحْ والاسل هي تِهامة ، والتي تنبت الغضا (*) هي نجد . والملاحظتان اثبتت صحتهما مشاهداتي – إلاّ ما ندر – وتصلحان على صعيد الطوبوغرافية والنباتات، لتعريف الساحل او الارض الساحلية بأنها الحجاز والتهامة، ولتمييزهما عن نجد .

وفي الجزء الممتدّ من تِهامة – بين مويلح والعقبة – تقيم بطون من الحويطات في المناطق المنخفضة قرب الساحل ، وبطون من المَعازه في المرتفعات ينزحون منها احياناً إلى سهول الداخل .

أعود إلى وصف طريقي من محطّنا على قمة « نقب الصواوين » حيث يبدأ

(*) – الغضا : من شجر البادية ومن أجود الوقود وأبقاه نارا . والغضا ايضا : واد في نجد قال فيه مالك بن الريب :

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة	بجنب الغضا ازجي القلاص النواجيا
وليت الغضا يوم ارتحلنا تقاصرت	بطول الغضا حتى أرى من ورائيا
لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا	مزار ، ولكن الغضا ليس دانيا

(رواه ياقوت في « معجم البلدان »، ص ٢٠٥ من طبعة دار صادر ودار بيروت) .

انحدار الارض إلى داخل الصحراء انحداراً بطيئاً لا يكاد يشعر به . على ما هو الحال في شرقي جبال الشراة ، وعلى عكس السفح الغربي الوعر والشديد التحدر . ولولا آثار السيول الشتوية لما درينا بان هناك منحدراً .

نزلنا في وادٍ اسمه وادي رَوِيان وسلكناه نزولا ساعة نحو الشرق – الجنوب الشرقي، ثم عطفنا إلى اليسار ودخلنا الحِسْمَى(٤١)وهي سهل فسيح من رمل ناعم ومنبت نسبياً ، وأكثر النفود وصحراء نجد من هذا الرمل . وسهل الحِسْمَى يترامى من مَعان في الشمال إلى تَبوك في الجنوب ، ومن تَهامة في الغرب إلى طريق الحج السوري في الشرق . ويمتدّ ايضاً نحو الشمال الشرقي باسماء مختلفة ، وتعترضه هنا وهناك صخورٌ وحجارة حتى يتصل باراضي النُفُود وهي وادي السرحان والضحي او صحراء النفود . وتحد الحِسْمى جنوباً ، ، سلسلة تلال جانبية ، شديدة الانحدار تعرف بجبال الحَرّة تتفرع في زاوية حادة من جبال الشفا مقابل قمة جبل شار ، وتترامى إلى الشمال الشرقي ، وتغوص تدريجاً في اكمات غير منتظمة في جوار تبوك . ومن راس الزاوية الحادة – واسمها : الزاوية – بين جبال الشفا وطرف جبال الحَرّة تمتد أرض الحِسْمى وتفتح تدريجاً في سهل فسيح تبعثرت فيه بعض تلال معزولة يفصل بينها مَمرٌ اتجاهه شماليّ غربي . هذه التلال من صخور رملية لونها احمر كلون الحَرّة ، وتبدو كأنها كتل فصلت منها . ومظهر التربة وإنتاجها يشبهان مظهر تربة نجد وإنتاجها ، في حين ان هذا الاسم لا يطلق عليها بل يقتصر على منطقة النفود الداخلية من بلاد العرب .

يقول صاحب «القاموس»: ان الحسمى « ارض في الصحراء ذات جبال مرتفعة يغلف السديمُ قممها » (*) ولعله يعني جُرُف الواجهة الشمالية لجبال الحرة التي تحد حسمى في الجنوب وقمم الشفا العالية . اما السديم فلم ار منه شيئاً اثناء الايام القليلة التي قضيتها هنا . وقد تمتعنا بسماء صحراوية صافية سامقة .

(*) – السديم : الضباب ، جمعها سدم ،(بضم السين والدال).

ان ارتفاع تلال الحَرّة لا يزيد ، حسب تقديري ، اكثر من خمسمئة قدم عن مستوى السهل ، الا ان الفارق في درجات الحرارة بين هذه المنطقة والمنطقة المنخفضة محسوس : ففي تهامة والساحل كانت درجة الحرارة في الشروق تتراوح بين ١٥ و ١١ درجة مئوية (٥٩ و ٥٢ فهرنهايت) ، بينما هي هنا في الوقت عينه – في أكثر الاوقات – تتراوح بين ٧و٥ درجات مئوية (٣/٥ ٤٤و٤١ فهرنهايت) . والندى يتساقط ليلاً ، مما لم اره في بلاد العرب ، كما يتساقط في الصحارى القريبة من النيل وعلى شواطىء البحر الاحمر . ولاحظت ان هذا الجو الذي فيه بعض الرطوبة يسبّب امراضاً صدرية، وهي امراض نادرة جداً في الداخل .

ويبدو لي ان طبيعة موقع الحِسمى وشكلها العام يطابقان وصف كل ارض اسماها جغرافيو العرب السَرْوة (جمعها سراوات) ، في حين انهم لم يعدّوها كذلك . وسلسلة جبال الشفا تظهر من هنا أكثر انخفاضاً من سطح المنطقة ، ويجوز القول : ان الحسمى تشرف على التهامة .

وسهل الحسمى يقطنه كله ، تقريباً ، المعازه والعطية الذين يملكون جميع الارض ، من بركة المعظم – ثاني محطّة للحجاج إلى الجنوب من تبوك – إلى وادي موسى . واليه ينزلون احياناً من الجبال فيختلطون بانسبائهم التياها . وهم يقولون انهم اصحاب بركة المعظم والاخضر وتبوك وذات الحج ، ومعان ايضاً ، إلى حدٍّ ما ، ولهذا يفرضون على سكانها « خوّة » قليلة مدعين انها لقاء حمايتهم لهم من خطر القبائل الاخرى. وهم كذلك يحرسون الحجاج (وهو الدرك) في المنطقة الممتدة من معان إلى بركة المعظم . وقسماتهم وطباعهم تدل على ان اصلهم سوري . ولم اجد كلاماً صريحاً بهذا المعنى عند نَسّابي العرب . وبطونهم الرئيسية : العطيّات – وهم عائلة الشيخ الرئيس ابن العطية، وانسباؤه – والرُبيلات ، والسبوت او بنو سَبْت ، والضيوفية ، والتُجرَاء ، والسُليمات ، والعليّان ، والحَضَره ، والعَمْريون، والسعدانيون . والبطن الوحيد الذي وجدته في « انساب

العرب » هو السُبوت ، ولعله الذي ذكره القلقشندي بانه « بطن من لبيد ، من سُليم (بضم السين) او سَليم (بفتح السين)، من العدنانية المقيمين في برقة» (*). والمعازه (**) منتشرون في انحاء مصر كلها، وربما اتبعوا من هناك الدرب التي طرقها النازحون في خلال القرون السابقة من بلاد العرب إلى شمالي افريقية آماين العودة إلى تقاليدهم الصحراوية الاصلية التي اضطروا لترك بعضها في حياة نصف فلحية قضوها في وادي النيل .

وكان يظن ان السُبوت(جمع سبت) (٤٠) هم — بسبب اسمهم والطقوس الغريبة التي عزاها اليهم بعض الرّحالين الاوروپيين — من اصل يهودي، وانهم ما يزالون مرتبطين بالدين اليهودي (***) ولذلك راقبت تقاليدهم بعناية وسألتهم عن اصلهم ، فاجابوني جميعاً بان اسم قبيلتهم مشتق من اسم احد اجدادهم « سبيتان » ، وهو اسم ما يزال مستعملاً بكثرة بين البدو ، اما عيشهم وتقاليدهم فلم الاحظ ما يفرقهم فيها عن القبائل المجاورة ، إلاّ في عادة واحدة لم ارها في مكان آخر من الصحراء ، ألا وهي قرع جرس كبير معلق بالعمود الاوسط في الخيمة يدق عند غياب الشمس اذ تعود الماشية والابل من المراعي . وهذه العادة يعمل بها كل مساء في القبيلة كلها ، في خيام الشيوخ وخيام من يسمح لهم دخلهم باقتناء جرس . وبحثت عن اصلها فقيل لي انها عادة قديمة عندهم ابتهاجاً بعودة الماشية وباقبال الساعة المهيبة لليل الساجي .

وليس لحد علمي ان بين العرب الرّحل — او في القرى والمدن داخل البلاد

(*) — نهاية الأرب : ص ٤١١ .

(**) — كتبها: معازي ، وصوابها « معازة»، ويقال انهم وقبيلة عنزه من أصل واحد. واذا صح هذا فهم من ربيعة من العدنانية .

(***) — هذا وهم سمعه المؤلف . وهو نفسه قد نفى بعد اسطر ، أن يكون داخل الجزيرة من يعتنق غير الاسلام دينا .

العربية – اشخصاصاً يعتنقون غير الاسلام دينا . ولم يطرق اذني في هذه البقاع التي زرتها ان قبائل، او افراداً ، يشتبه بهم بانهم يدينون سراً بمذهب آخر ، وهذا ليس سببه تعصباً من السكان الذين وجدتهم اكثر تسامحاً من سواهم من المسلمين ، ولكن الارجح فيه ان الدين الاسلامي يأتلف كل الائتلاف بالبلاد التي نشأ فيها ، ولان فقر الصحراء يثبط من عزيمة الهجرة اليها . وقد يكون ايضاً لان عيش البدو البسيط جداً يصرف ذوي العادات المصقولة بعض الشيء عن مخالطتهم .

ومثل اكثر القبائل التي لم ترغم على اعتناق المذهب الوهابي الاصلاحي اثناء سيادته، ان عرب المعازه عامة يجهلون دينهم جهلاً فاضحاً . واكاد لا اذكر اني اجتمعت بفرد منهم يعمل باية فريضة من فرائض الاسلام ، او ان عنده فكرة عن مبادئه الاساسية (*) في حين قول العكس يصح إلى حدٍ ما على الوهابيين سابقاً وحالا .

بعد ان امضيت عدة ايام في خيمة « الرئيس » ، والشيخ الأكبر ، ابن العطية ، تركت القبيلة وانطلقت مع اثنين من ابنائها من الزاوية حيث ضربت الخيام منذ ايام ، بعد تنقل كاد يكون مستمراً ، وسرنا محاذين جبال الحرّة نحو الشمال – الشمال الشرقي فوصلنا بعد ثماني ساعات إلى وادي عويند . وهو واد صغير ضيق وشديد الانحدار كأنه مجرى سيل قد جف ، ينحدر من القممِ في اتجاه شمالي فشمالي غربي حتى سهل الحِسمى ، بين اكام وقمم تغطيها رمال متفككة . وفي هذا الوادي بئر ماؤها جيد بعض الجودة ، وفيه عشب وآجام . وفي طرفه إلى الشمال مقابر المعازه ، وهي منذ البعيد قبور شيوخ القبيلة ووجوهها . وتعترض مدخله ، الضيق ، من ناحية الحسمى ، حجارة ضخمة يظهر انها انفصلت وتدحرجت من الجبال المشرفة عليها . وقد حفر على بعضها ، بغلاظة ،

(*) – كتب المؤلف هذا سنة ١٨٤٨ ، والحال اليوم ، والحمد لله ، غير الأمس .

صور حيوانات منوعة ، كالجمال والغنم والكلاب . وحفرت على سواها حروف رديئة الخط طمس اكثرها بتأثير الطقس في الصخور الرملية المتفتتة .

ولئن عجزت عن القطع في تلك النقوش فانا اميل إلى انها ، لسذاجتها ، من عمل الرعاة . وتشبه تلك التي شاهدتها في اماكن اخرى من الصحراء . وقد نسخت بعضها عن صخور ثلاثة ولم ألاحظ سواها تصوّر رموزاً متواصلة قد تكون كتابة . وحالت قلة صبر رفيقيّ البدويين دون بحثي عن صخور اخرى قد يكون عليها نقوش . (انظر صورتها على الصفحة التالية)

وسرنا خمس ساعات في منبسط مستويّ السطح يمتدّ من سهل البقّار ، في طرف المضيق شرقاً ، إلى تبوك . (٤)

المسافة بين المويلح وتبوك تقطع في اربعة ايام على الجمال المحمّلة مما يتوافق ومدة رحلتي ، ولولا رداءة الطريق وتعرجها لما طالت اكثر من ثلاثة ايام لاني اتبعت طريقاً مستقيماً اتجاهه شرقيّ فشمالي اشاروا عليّ بسلوكه .

تبوك بلدة من ستين منزلاً تقريباً ، في طريق الحج السوري ، على اربعة ايام من معان ومن الحجر ، في وسط سهل فسيح اسمه همادة تبوك .

خلفنا وادي عوينـد إلى يميننا وتقدمنا سير ساعة نحو الشرق في تلال ، ثم دخلنا مضيقاً بين جرفين عموديين واجتزناه بعد نصف ساعة إلى سهل البقّار الذي تحده غرباً اطراف سلسلة الحرة ، ويتصل شرقاً بسهل « همادة تبوك » في الارض الممتدة من جبال الشفا وتكملتها الشمالية وهي جبال الشراة في الغرب ، إلى تلال النفود وهضاب نجد في الشرق . وجغرافيو العرب لا يتفقون على البلد الذي تنتمي اليه هذه الارض ،فمنهم من يلحقها بسورية ، وآخرون يتبعونها بالحجاز او بنجد . اما ابناؤها الحاليون فعادتهم التعميم ، ولا يطلقون عليها اي اسم شامل بمعنى انهم لا يعدّونها تابعة لاي من البلدان المذكورة وانما يطلقون

Plate.*

1.

2.

3.

* These [illegible]acters, which bear little resemblance to those of [illegible]-l-Mokattab in the pe[illegible] of M[illegible] Sin[illegible], so successfully deciphered by [illegible] in his [illegible] [illegible]adia[illegible] [illegible] the H[illegible]yarit[illegible] alphabet, anciently used in Yemen [illegible] (Journal [illegible], Sept. 18[illegible], seem to correspond, in some de[illegible] with the ancient Ph[illegible] character; but no satisfactory conclusion can be [illegible] from such short lines [illegible], probably, in great haste.—[illegible]

الرموز المتواصلة المنقوشة على الصخور في وادي عويند

على كل جزء منها اسماً خاصاً: فهمادة تبوك تمتد مسيرة خمس ساعات حول البلدة وفي جميع الاتجاهات، وحدودها غير محققة، ولا مميزة بوضوح، وذلك بسبب مساحة السهل وفقدان التلال الضخمة . والتربة حصبة* صلبة يسميها البدو « جَلَدَة » ، وهي قاحلة في معظمها ، وترويها ، على قول البدو، تسعون ساقية شتوية تنحدر من الحسمى في تسعـين وادياً . وحول الرابية القليلة الارتفاع ، والتي بنيت عليها البلدة ، بعض آبار متوسطة العمق . وفي البلدة عين غزيرة تُجرّ مياهها إلى بعض حدائق صغيرة وبساتين نخيل تخص الاهلين . وتزرع الحبوب احياناً في السهل المكشوف . ولكن محصولها غير كاف ، فيضطر السكان إلى التمون من المويلح او من سورية التي يؤثرونها على ما ذكرنا آنفاً ، رغم بعدها الشاسع . وبدا لي ان ابناء تبوك اشد فقراً من سكان القرى التي مررت بها في هذه المرحلة من سفرتي ، فطعامهم في فصل الربيع يقتصر على اعشاب تقتطعها نساؤهم من الصحراء المجاورة ويأكلونها نيئة او مسلوقة ، دون ان يضيفوا اليها اية مادة مغذية .

يقول ابناء تبوك انهم من الحُميْدات ويرجعون بنسبهم إلى بني كعب في البصرة . ويقولون ايضاً أن اجدادهم الكعبيين هم اول الذين امتلكوا عين تبوك . غير انهم — كمعظم سكان قرى البادية — عرقهم خليط من بدو ومن اغراب اضطرتهم احوالهم للنزوح إلى هنا ، او رحلت عنهم القوافل وتركتهم فاقاموا في تبوك . واكثرهم من اصل سوري ومن اغراب آخرين غالبهم عبيد مُعْتَقون هم وعيالهم ، يعرفون بالمتولدين وينتشرون في جميع الانحاء . وهناك قرى تكتظ بهم منها اريحا والجوف وسوق الشيخ ، الخ ... (*) .

ويؤلف ايضاً اولئك المتولدون عشائر كبيرة تعيش بين العرب الرحل عيش الرعي

(*) — مضارب هؤلاء الحميدات الذين أشار اليهم المؤلف كانت، يوم وضع كتابه ، في أرض تتبع ايالة سورية ، وأما اليوم فهي اردنية . والحميدات عشيرة كبيرة تقطن الطفيلة وعجلون وسواهما من المملكة الاردنية ، ونخوتهم : « صبيان الجوابرة » .

والغزو ، اسوة باسيادهم السابقين . وعلى انهم تحرروا فهم ما يزالون مرتبطين باولئك الاسياد عرفاناً واحتراماً ويسمح لهم بالعيش بين العرب الا انهم لا يتزاوجون الا فيما بينهم ، اذ يندر ان يتنزّل عربي قحّ لاخذ حبشية او زنجية زوجة له . وهكذا نرى ان سلالة المتولدين في البداوة تبقى على حالها اجيالا عديدة . اما في المدن والقرى حيث لا يشعرون شعوراً قوياً بالحفاظ على السلالة الخالصة (النقية) فيختلط العرب والمتولدون ويتزاوجون ، وكثيراً ما يصعب تمييز ملامح افريقية في اولادهم . ففي الجوف ، مثلاً ، عرفت زنجية مسنّة ولدت اولاداً سوداً من بعل زنجي ، وكانت في الماضي قد ولدت لعربي اولاداً ذوي ملامح عربية صحيحة .

ويجوز القول ان المتولدين اكثر كدّاً من البدو ، او ان اعتزازهم بانفسهم في الاقل ، لا يصل إلى عدّ الزراعة والعمل الشاق مذلة لهم . ولهذا السبب ، ولانهم يحتاجون إلى بأس البدو كي يدرأوا اخطار البادية عنهم ، يفضلون سكنى القرى حيث يتفقون مع البدو للعناية بالنخيل ، او لتدبير رزقهم بوسيلة اخرى . وقلّ ان بلغ واحدهم جاهاً أو غنى لان اسيادهم الذين يحتقرونهم يجبون منهم جبواً كثيراً ، او لانهم قد يكونون ، هم ، مبذّرين . ولبخس ثمن العبيد في الحجاز تكتظّ بهم المدن والقرى . وسمعت ان الجزء الاكبر من جنائن النخيل الواسعة المثمرة التي يملكها عرب « الفقراء » من قبيلة عنزة ، يزرعه المتولدون ويعنون به ، وثلث سكان تبوك منهم ، يعملون مثل سواهم من السكان في فلاحة الارض ومتاجرة البدو والحجاج الذين يتوقفون هناك يوماً او يومين في طريقهم إلى مكة ورجوعهم منها .

وفي تبوك ، كما في سواها من المدن العربية ، يعمل بالعرف والتقاليد اكثر مما يعمل بالشرع ، والناس يكنّون احتراماً كبيراً لطقوسهم الدينية وتعاليمها ، ويلمّون اكثر من البدو بمبادئها ، غير انهم يميلون إلى التقاليد البدوية التي تلائم طريقة عيشهم . والشيخ والعقيد اللذان يتوليان ارفع السلطات المدنية والعسكرية

صفحة من خط ڤالين عن الفوارق بين اللهجات العربية ومخارج أحرفها .

في القبيلة منصبهما هنا وراثي كما عند البدو . وهما يقومان — بعد استشارة المعمرين والعقلاء ، وكثيراً ما يستشيران الاهلين ايضاً — بادارة القرية وحسم النزاعات والخصومات التي قد تنشأ بين سكانها وجيرانهم . وإدارتهم لا تخضع ، كما في اعمال حكومة مصر ، لتدخلّ الاتراك المقيمين في قلعة البلدة .

ومع ان مظهر القلعة يشير إلى أنها حصن لردّ هجمات القبائل المفاجئة ، فهي تُعَدّ مخزناً لتموين الحجاج والجنود الذين يرافقونهم ، لا مكاناً محصناً للمحافظة على نفوذ السلطان (التركي) في البلدة والجوار .

ان تبوك تخضع ، كما تخضع القرى فيهذا الطريق،لباشا دمشق (اي حاكمها) وهذا يولي السلطة ضابطاً عربياً يطلق عليه لقب « امير القلعة » يختاره من آل قُشير او من قبيلتهم . وهؤلاء متحدرون من بني قُشير البائدين وهم من بطن عامر بن صعصعة بن هوازن من العدنانية على ما يقوله القلقشندي (*) . وهم يزعمون ان السلطان سليماً (٤٢) عهد اليهم بالحكم لما أمر بفتح طريق الحجاج هذه إلى مكة ، وادعوا منذ ذلك الوقت الحق في ولاية الحصون .

ولامير القلعة تسعة أو عشرة من الاتباع المسلحين — ككل انسان في بلاد العرب — بسيوف وبنادق شطف . ولا يشكلون حامية تذكر إلاّ فيما ندر ، ولذلك يستضعفهم البدو ويسطون عليهم اثناء تجوالهم في الصحراء بحثاً عن الوقود ويجردونهم من ثيابهم تحت اسوار حصنهم . وامير كل قلعة يُدعى مع رجاله مدة في السنة إلى دمشق ليقدم بياناً عن نفقاته والحوادث التي جرت ابّان حكمه ، ويخلفه في القلعة التي كان فيها واحد من اسرته ، ويبقى هو في دمشق سنة . وقبل انطلاق قوافل الحج يُعَيّن في محطة جديدة ويرسل اليها محملاً المؤنة السنوية المخصصة للحصون . وهكذا يظل القُشيريون في تنقّل .

(*) نهاية الارب : ص ٣٦٥ .

يقول اهل تبوك ان بلدتهم الحالية ليست في الموقع الذي كانت فيه تبوك القديمة المذكورة في التاريخ . وهناك اطلال بناء عتيق من حجر منحوت ، اسمه قُصَيَر ، او « تبوك العتيقة » ، في سفح سلسلة من تلال منخفضة من صخور وملية تنتأ من جبال الحَرّة ، على اربع ساعات من البلدة الحالية في اتجاه غربيّ — جنوبي غربي . والمظنون ان هذا البناء يشير إلى موقع تبوك القديمة . ويعللّون انتقال البلدة إلى موضعها الحالي بان قوافل الحج إلى مكة قد غيرّت طريقها الذي كان يمرّ إلى الغرب قرب خربة القصير .

ولفت نظري في اماكن عديدة من بلاد العرب ميل الناس اليوم إلى الاقامة في السهول ، أما القدماء فكانوا يختارون جوانب التلال مقاماً لهم ، فعلى المنحدرات الشرقية لجبال الشراة ، ناحية الصحراء ، وعلى طول المسافة بين معان والطفيلة ، تشاهَد اطلال مبعثرة وآثار فلاحة في بقع من الارض يحرثها اليوم ويزرعها الفلاحون من البدو . واخبرني الاهلون بان اهم الاطلال القليلة ، الباقية في جوار تبوك هي في بلدة « القرية » ، أول محطة إلى الشمال وعلى بضع ساعات إلى الغرب من « ذات الحج » . والذين زاروا تلك المحلة اكدوا لي ان فيها اطلال بلدة كبيرة مسورة ، فيها مبانٍ ومغاور تماثل مغاور وادي موسى وتنتشر في جانب تلّة يقال ان ماء غزيراً كان يتدفق من حافتها ويُجَر إلى المزارع والحقول في السهل . وبعد ان جفّت العين لم يبق في البلدة سوى آثارٍ منطمسة لاقنية كانت تنشر الحياة والخصب في ارضٍ صارت اليوم قفراً يبابا . وقيل انه يخيّل إلى الزائر انه يرى كلباً اسود يزعم العرب انه يتردّد إلى المكان ليحرس كنوزاً مخبأة فيه . ولم استطع وانا في تبوك ان ازور « القرية » ولكني لا ارى سبباً للشك في صحة الوصف الذي سمعته ، إذ أنه يتوافق وميزات الاطلال الاخرى التي شاهدتها في بلاد العرب ، في أذرح (*) مثلاً ، قرب مَعَان ، وفي جُبّة (٧) حيث الموقع القديم المزعوم للفريري ، في جبل قطيفي (٤٣) وحيث يقال ان نبعاً غزيراً كان فيه ونضبت مياهه .

(*) — اطلب رقم (٥) في ملحق الاستدراك والتعقيب .

وتطل على التلال المتاخمة لهمادة تبوك قمم عالية ، منها جبل المُخْطَب الذي اشتق اسمه من فعل خَطَبَ . وقيل ان رسول الله (صلعم) القى من على قمته خطبة إلى سكان هذه الديار من اليهود والمسيحيين ليهديهم إلى الدين الجديد. وهذا الجبل على خمس ساعات إلى الشمال — الشمال الشرقي من تبوك الحالية . ويُعَدّ اقصى موضع إلى الشمال بلغه النبي محمد في الغزوات الدينية التي قادها بنفسه ضد الكافرين ، مدفوعاً برسالته السماوية . ومن هذا المكان عينه ارسل علياً (ض) وعمر (ض) ليحاربا الملك أكيدر في الجوف ، وعاد هو إلى المدينة (*) .

وتبوك لبني عطية . وشيوخ القبيلة وعقداؤها ووجوهها يجبون إخاوة من السكان وقيمتها معقولة تدفع قطعاً من الملابس ، او مؤناً ، او سواهما ، ولقاء هذه « الخوة » يلتزم الشيوخ بحماية الاهلين من القبائل التي تعرض لهم بسوء وهم لا يستطيعون ردّها . فسكان معان، مثلاً، يستطيعون تعبئة مايتي بارودة في حين يعجز ابناء تبوك عن ان يجمعوا اكثر من اربعين رجلاً وبتسلح غير كاف .

تقع تبوك في سهل منفتح على طريق تمرّ بها جماعات البدو في غزواتها وحملاتها على الاعداء ، ويمر بها مغامرون كثر يدفعهم فقرهم إلى استسناح الفرص للنهب ولذلك يتعرض التبوكيون كثيراً للغزو والسلب فيضطر حماتهم إلى التدخل واعادة ما يستطيعون استرجاعه من السلع والحيوانات المسروقة او المسلوبة . والسهل المحيط بتبوك يعدّ من الاماكن الاقل أمناً من الصحراء ، وقلما ترك انسان تبوك ، او اتاها ، إلا خفيةً في ظلمة الليل . وهذا ما يمنع من التعامل معها . واذا انتقلت القبيلة الحامية إلى اعالي جبال الحَرّة ، او إلى الحسمى كما هو الحال في هذا الربيع ، فقد تمضي اسابيع قبل ان يغامر البدو بجلب الحليب الماشية إلى سوق تبوك . وبلغ من خوف الناس أنني لم استطع اقناع احدهم ، و

(*) — قول السكان هذا يتعارض وأقوال المؤرخين العرب — فالين .

طوال عشرين يوماً قضيتها بينهم ، ان يرافقني دليلاً إلى « القرية » او إلى خربة القُصير . والقليل من التعامل الذي يتم بين تبوك والقرى القريبة يقوم باكثره فرع مستضعف من بني هتيم من الشرارات يدعون السويفله ، يستخدمهم امير القلعة وسكان البلدة احياناً في اعمال كهذه ، واحياناً في امورٍ اخرى .

ويصف محمد السپاهي (٤٤) تبوك في كتابه « اوضح المسالك » بقوله: « تبوك بين الحجاز والشام ، وبها عين ونخيل . ويقال ان بها كان اصحاب الايكة الذين بعث الله شعيباً اليهم . ولم يكن شعيب منهم بل من اهل مَدْيَن . قال في « القانون » : وتبوك في البر على محاذاة مَدْيَن . أقول : « تبوك في الشرق ومَدْين في الغرب » — انتهى كلام السپاهي (*) .

ولا بدّ لي من الاستنتاج من هذه الملاحظة الاخيرة ، ومن المقطع السابق المنقول عن « القانون » ، ان هذين الجغرافيين يريان ان تبوك إلى الشرق ، داخل الصحراء ، ومَدْيَن إلى الغرب ، قرب الساحل او عليه ، وعلى خط العرض عينه الذي يمر بتبوك .

ويذكر صاحب « اوضح المسالك » (محمد السپاهي) في مكان آخر من كتابه ان مَدْيَن مدينة مندثرة في الحجاز تقع على شاطىء البحر الاحمر حيث لا يتجاوز عرض الخليج عرض مجرى نهر ، مقابل تبوك وعلى ستة ايام منها. وفيها ، بالاضافة إلى عين ماء جار ، البئر التي اعطاها سيدنا موسى في سالف الازمان لقطعان شعيب لتشرب منها . وهذا الوصف قد يشير إلى أن مَدْيَن كانت مكان مقنا اذ اني لم اعرف مكانا آخر على الشاطىء ينطبق عليه هذا الوصف . وهب ان صاحب « القانون » ربما عني ان مَدْين في شبه جزيرة سيناء — وهذا لا

(*) — « أوضح المسالك » : مخطوط رقمه ٧٥٠٥ من مجموعة ريش RICH في المتحف البريطاني . وقد نقل فالين النص العربي ، في الهامش ، فنقلناه بحروفه .

يعارض القول ان تبوك هي في الصحراء قبالتها ـ فاعتقد أن بُعْد تبوك عن الشاطىء لا يقر هذا الرأي .

ويقول أحمد الدمشقي (٤٥) في « اخبار الدول » ان السلطان سليمان خان (٤٦) بنى القلعة في تبوك ووضع فيها حامية من عشرين انكشارياً (٤٧) لحماية العين من البدو .

ويذكر ابن اياس (٣٩) في « نشق الازهار » ان تبوك بلدة غناء فيها نخيل وحقول ذرة وقلعة منيعة . وان النبي (صلعم) غزا سكانها وقهرهم.والغزوة تلك من الغزوات المشهورة التي اشترك فيها النبي (صلعم) بنفسه وساعد في القتال ، وقد وقعت فيها حوادث هامة . والى تبوك تنسب قبائل مختلفة منها لَخْم وجُهَينة وجُذام .

ويذكر ابن الاثير (٤٨) في « تحفة العجائب » ان القبائل المذكورة تقيم بين تبوك ووادي القرى (٤٩) وايلة . وليس هناك الآن ، على حد علمي ، قبيلة تحمل اسم لَخْم ولكني اعتقد ان قبيلة الشرارات المستضعفة المنتشرة في ماكن عديدة يجوز عدها من سلالة لخم .

ومن البطون العديدة من قبيلة الشرارات المقيمة في وادي السرحان وضواحي الجوف ، بوادي السرحان ، لقيت الدعجيين المنتسبين إلى عائلة الشيخ ابن دعجه . ويقول القلقشندي ان هذا البطن فرع من بني صخر ، من طيّء ، يقيم في المناطق التي بين تيماء وخيبر وسورية . ويقول القلقشندي ايضاً ان عربا آخرين يطلق عليهم اسم بني صخر من القحطانية يقيمون في الكرك ، واليوم (١٨٤٨) عددهم كبير وهم يعيشون بصداقة واخوة مع الحجّايا والشرارات .

أما جهينة فقبيلة كبيرة في جبال الحجاز .

أما بنو عُقبة وبنو بَلِيّ فافراد تشتتوا من جُذام اخي لَخْم . وجميع هذه القبائل من القحطانيين الذين نزحوا عن اليمن ، واخذوا تدريجاً يبعدون العدنانية

الاسماعيلية ، السكان الاولين في المنطقة ، وحلّوا محلهم . إلا ان قبائل عنزة العدنانية بدأت الآن تدفع هؤلاء القحطانية إلى النزوح ، بدورهم ، دفعة بعد اخرى إلى داخل الجبال وتخوم الصحراء . وإلاّ فهم مضطرون ان يحذوا حذو معظم عشائر هتيم ويؤدّوا اخاوة لقبيلة أخرى اشدّ بأساً ليسمح لهم بالعيش في الداخل بين البدو الذين يستصغرونهم شأناً .

٥ من نيسان (ابريل) ١٨٤٨ : انطلقت من تبوك يرافقني اثنان من قبيلة بَلِيّ وقد اسعفنا ضباب كثيف بان حجب عنا المراقبة وخلصنا من التلاقي غير المستحب مع اغراب . فاجتزنا السهل في اتجاه جنوبي شرقيّ ، مخلّفين إلى يسارنا ، قرب تبوك ، طريق الحج الممتد في اتجاه جنوبيٍّ شرقيّ ايضاً . والتربة قرب البلدة جدبة بعض الجدوبة ، ولكنها سرعان ما تحيي النظر بقعٌ من روض (*) تتسع قرب اولى تلال جبال الحرّة ، حيث تلي السهل اودية منبسطة فيها شجيرات كثيرة . وبعد السير خمس ساعات وثلاثة ارباع الساعة في السهل دخلنا هذه الاودية وفيها بتنا ليلتنا .

٦ من نيسان (ابريل) : سرنا عبر اودية فسيحة بين جبال الحرة إلى اليمين والتلال المنخفضة إلى اليسار . وفيما نحن نتقدم صار الوادي يضيق ، وبعد ساعتين وجدنا انفسنا في وادٍ ضيق يوازي في اتجاهه الجنوبي الشرقي طريقَ الحج على ثلاث ساعات خلف التلال . وبعد سير سبع ساعات وثلاثة ارباع الساعة من مكان مبيتنا وصلنا إلى شعْب اسمه « نقب درب البكرة » . وبمرورنا في الوادي لحظت صخوراً كبيرة نُقشت كتابات على بعضها تشبه تلك التي وجدتها في وادي عويند ووادي جبة ، الا اني لم استطع نسخ ايّ منها لان رفيقيّ خافا مفاجأة الاعداء لنا وسلبهم اياهما رزم الثياب التي حملاها على الجمال في تبوك . ولم استطع اقناعهما حتى ينتظرا . وهكذا تابعنا سيرنا في الشعب ثلاث

(*) – جمعها رياض – فالين .

ساعات أخرى ثم حططنا الرحال للمبيت .

٧ من نيسان (ابريل) : مررنا بجزء اضيق من الشعب او الوادي ، يسمى « الوادي الاخضر » والبدو يلفظون اسمه « وادي خَضَر » وهو على ثلاث ساعات إلى الغرب من القلعة والمحطة اللتين تحملان هذا الاسم ، وفيهما يبيت الحجّاج اول ليلة بعد مغادرة تبوك . وهذا الوادي ايضاً تعترضه صخور كبيرة وحطام صخور يحمل بعضها كتابات تشبه الكتابات التي لحظتها سابقاً ، ورسوماً بدائية لحيوانات صحراوية مختلفة . وبعد سيرنا ثلاث ساعات وربع الساعة من مدخل هذا الوادي وصلنا إلى صهريج طبيعي في الصخر اسمه « غدير الراشد » فملأنا قِربنا مؤنة جديدة من ماء المطر العذب . والاودية التي مررنا بها حتى الآن منتظمة بعض الشيء ويُطلق على مجموعها اسم « درب البكرة » . وهنا تبدأ الجبال .

بعد تسلّق طال ربع ساعة وصلنا إلى منبسط صخري دائري ذي لون بنّي قاتم اسمه « منزل الحاج » . واخبرني رفيقاي انه سمي بهذا لان الحجيج كانوا في الماضي يتبعون درب البكرة إلى الحج ويحطّون رحالهم في هذا المكان ، وحدث ان قافلة هلكت بكاملها فيه عطشاً فاطلقوا على هذه المحلّة المهلكة اسم منزل الحاج .

في ذلك الزمان كان السفر على البغال . غير ان عدم موافقة مناخ الصحراء لها دفع المسافرين لان يستبدلوا بها الجمال ، ثم اختيرت الطريق الحالية بدلا من درب البكرة الصعبة جداً لندرة الماء فيها . ويمتد وادي البكرة من مكان يبعد ست ساعات إلى الجنوب من تبوك ، وينعطف قليلاً نحو الشرق موازياً الطريق الاخرى حتى الحِجر حيث ينتهي في وادٍ عريض اسمه وادي نجد . وهذا يمتد بدوره في اتجاهٍ جنوبيٍّ شرقي نحو داخل بلاد العرب .

من « منزل الحاج » درنا نحو اليمين نتسلق تدريجاً جبال الحرة عابرين

بقاعاً صخرية منبسطة قاتمة اللون ، تعترضها هنا وهناك كتل صخرية مخروطية وهرمية الاشكال . وعند قاعدة هذه الكتل تنتثر على الارض ، بكثرة، حجارة ناخرة سود ، غريبة في خفة وزنها ، واما الجبال فصخور رملية لونها احمر، تشبه الصخور الموجودة قرب هيدلبرغ (*) ، إلا ان جوانبها وقممها تغطيها الحجارة السود الفاخرة ، حتى ليصعب احمرار لون الصخور بدون تفحّص دقيق .

طريقنا عبر تلك الجبال كانت في اتجاه غربيّ جنوبيّ غربي ، طالت ثماني ساعات وربع الساعة ، اخذنا بعدها ننحدر نحو منطقة «الجو» المنخفضة التي تحيط بها جبال الحَرّة من جميع الجهات . وتابعنا النزول زهاء نصف ساعة في ممرٍّ وعر ومتعرج في جانب الجبل حتى وصلنا الى سهل من تلك السهول التي يسميها العرب «منقع»، ويطلق هذا الاسم على بقاع قاحلة تربتها رملية متحجرة تتجمع فيها مياه السواقي المطرية وتحدث بُحَيرة قليلة العمق لا تلبث الرمال العطشى ان تمتص مياهها او ان تبخرها حرارة الشمس فتتشقّق الارض قطعا من طين جاف لا تنبت ايَّ نبت ، وتفصل بينها فلوع عميقة . وفي بلاد العرب اماكن عديدة كهذه الارض يقال لها «المنتقع» (**)

واجتزنا المنتقع في اتجاه جنوبيٍّ شرقي في ساعة ونصف الساعة، ودخلنا سهلا من الرمال الناعمة اسمه «المَحير»، فيه من المراعي الخصبة ما في ذلك المنقع من محل وجدوبة ، فبدا وكأنه صفحة خضراء تمتد امامنا، يغطيه نبات حريّف(***) اسمه «الحرّة» طعمه لذيذ جداً وله بعض الشبه بالرَشاد الذي ينمو في بلادنا ،

(*) – مدينة المانية مشهورة بجامعتها التي تأسست سنة ١٣٨٦ ، وبقصر قديم فيها مهدم – (لاروس)

(**) – صحيح ان صيغة اسم المكان من النقع هي «المنقع» ولكن العرب لا تستعملها لتشير إلى هذا النوع من الأرض ، بل تقول : النقع ، او النقعاء

(***) – الحريف (بكسر الحاء وتشديد الراء): الذي يلذع اللسان . والحرة هي الرشاد ، بفتح الراء .

والجمال ترغب كثيرا برعيه ، وعرب المدن يجفّفونه ويستعملونه للتهضيم ويدعونه «رّشادا».

وواصلنا السير خمس ساعات ونصف الساعة عبر سهول مماثلة تتخللها اكمات تغطيها نباتات كثيفة وملوّنة ، تعكس بشكل أخّاذ سواد جوانب الجبال الموحشة المحيطة بالسهول . وتتبعنا في الرمل الناعم آثار حوافر القطعان الّتي رعت هنا فوصلنا بسرعة الى خيام قبيلة رفيقيّ

ان منطقة الحرة الّتي يشكل «الجو» جزءها الجنوبي – ويكاد يكون الجزء الوحيد الصالح للسكن – انما هي سهل فسيح من الرمال يشبه في ميزاته الحِسمى ونجد والنفود . ويحد هذه المنطقة غرباً تهامة او سلسلة جبال الشفا من الوجه الى المويلح ، وشمالا ارض الحسمى وجزء من جبال الحرة يمتدُّ من الزاوية الى الشمال الشرقي على حافة الحسمى ، ووادي عويند حتّى سهل تبوك حيث تنعطف التلال نحو الجنوب في زاوية حادة ؛ وتحدّها شرقاً سلاسل التلال غير المنتظمة الّتي تنحدر من الزاوية المذكورة ، بموازاة سلسلة الشفا ، على طول وادي درب البكرة حتّى حِجر ، وجنوبا فرع من هذه التلال يوازي الجبال الّتي ترتفع حدودا شمالية لها ، وهو يمتد من تهامة الى حِجر ، ويتصل في زاوية منفرجة بجبال السلسلة الّتي تشكل الحدود الشرقية . وبهذا يجوز القول : ان منطقة الحرّة لها شكل المُعَيَّن (*) الذي تواجه زواياه الجهات الاربع .

ويُقدَّر عرض هذه المنطقة ، من درب البكرة الى جبال الشفا ، بيومين على الجمال . وطولها من الحسمى الى وادي نجد يقدر بخمسة ايام . ووصف لي رفيقاي وادي نجد بانه ينبسط على طول الجهة الجنوبية من جبال الحرة وينحدر في اتجاهين : اولهما نحو الوجه . والآخر نحو المدينة المنورة . غير اني لا استطيع تحديد اتجاهه بالضبط لاني لم ازر تلك المنطقة .

(*) – المعين ، (بضم الميم وتشديد الياء المفتوحة) : شكل ، في الهندسة سطح متساوي الاضلاع الأربعة المستقيمة المحيطة به ، غير قائم الزوايا . بالانكليزية Rhomboid

ولديّ من الاسباب ما يجعلني اعتقد ان جبال الحَرة في ناحية وادي نجد مشوّشة التكوين كثيرا ، تتخللها اودية رملية وتتتابع في اتجاهٍ جنوبيٍّ شرقي من النفود ، ارض الجو . واعظم هذه الاودية وادي أورش الذي يملك فيه بنو بَلِيّ مزارع نخيل وحيث يزرعون الذرة والشعير في السنين الغزيرة الامطار .

وتزعم قبيلة بَلِيّ انها وحدها تملك الحَرة بكاملها . وهي من عادتها ان تقيم في «الجو» حيث لا يحق لاي بدوي آخر ضرب خيامه دون الحصول على اذن منها . والقبيلة لا تغادر مكانها هذا إلا في ما ندر ، وذلك بالرغم من ميزات موقع منطقتهم التي تترامى من شاطىء البحر الاحمر الى الحجاز ونجد ، وبالرغم من سهولة في المواصلات مع الوجه وتبوك وتيماء والمدينة المنورة .

وليس في المنطقة آبار ، ولا ماء ، سوى ما يتجمع من الامطار في بِرَكٍ وفجوات في الصخور تشكل صهاريج طبيعية (أجباء). لذلك تضطر قبيلة بَلِيّ الى النزوح في حالات الجفاف الى مناطق قصية بحثا عن ماء ومراعٍ في جوار دمشق وحلب . هكذا فعلت في ربيع ١٨٤٦ ، ويظهر على ما قاله السمعاني(٥٠) في «الانساب» ان سكان الحرة السابقين ، من قبيلة سُلَيم العظيمة ، اعتادوا النزوح الى هذه البقاع عينها من بلاد العرب ، والى المنطقة المجاورة لمدينة حمص .

ان قبيلة بَلِيّ غنية وإنْ عدد افرادها ليس كبيرا . كانوا يملكون الكثير من الخيل والماشية ففاجأتهم في سنة ١٨٤٧ جماعات غفيرة من الحويطات ، من بطن ابن الجاز من وادي موسى ودخلت المراعي خلسة وسطت على خيولهم كلها وعلى اكثر جمالهم قبل ان يدروا بوصولها ، ولكنهم (بني بلي) استطاعوا على رغم من ذلك ان يعوضوا على انفسهم بعدد وافر من الجمال في غزوات قاموا بها على الشرارات وعلى القبائل المجاورة التي لا تربطهم بها أية علاقة .

وخوفا من بأس عرب شمّر المتزايد ، ومن نفوذ شيخهم ابن الرشيد — وهو وَهّابي المذهب يحارب باسم ابن سعود إمام نجد وحاكمه ، ويغزو القبائل غير

المتّبعة مذهبه ويخضعها بحجة مجاهدة (... من هم) من غير الوهابيين، في سبيل الله – فان قبيلة بَلي انضمت الى الاتحاد بأن أدّت مختارةً الى ابن الرشيد الزكاة التي نص عليها القرآن الكريم. إلا ان عضوية الاتحاد لا تمنح صاحبها ان يحميها ابن الرشيد من القبائل المعادية، ولا تفرض عليه قيودا في المعاملات التي يجريها مع العربان الاخرين، اكانوا من الاتحاد أم لم يكونوا، لذلك ما تزال قبيلة بَلي تدّعي الحق في جبي الاخاوة من تيماء في حين ان عرب الشمّر هم الذين يملكونها ويقيمون فيها. وتجبي بلي ايضاً اخاوة من بلدة «العُلا» (٥١) التي تملكها، والتي هي في الوقت عينه تحت سلطة والي المدينة التّركي. وهذا الوالي هو الذي يفرض زكاتها. وتدّعي قبيلة بَلي أن «الوجه» تابعة لها. غير ان الحكومة المصرية هي التي تجبي المال منها وتحمي سكانها ممن يحاول فرض ضرائب عليهم، او جباية اموال منهم.

تتمون قبيلة بلي الحبوب من «الوجه»، والوجه يستورد المؤن من القُصَير في الشاطىء المصري من البحر الاحمر. وتتمون التمر من وادي أُورِش وتيماء والعُلا، كما يجلب الحجّاج اليها البن من الحجاز ويأتونها بالثياب من سورية ومصر.

والمنطقة التي ترافق بليٌّ الحجّاجَ فيها تمتد من ضبا(٥٢)الى الوجه في الطريق المصرية، ومن بركة المعظم الى الحِجر في الطريق السورية: ففي ضبا تخلف بني عقبة في درك القوافل المصرية بطونٌ من بلي هي المعاقلة و العراضات وبنو أوط المقيمون في وادي الفرا وفي جواره. ويقوم البطن الرئيسي من بلي –وهو المواهب واليه ينتمي رئيسها الشيخ ابن داما – بمرافقة الحجاج في الطريق السورية.

بنو بلي هم اول قبيلة في هذه البقاع تشبه لهجتها نطق سكان نجد، ونطق بدو عنزة الذي يختلف كثيراً عن لهجة المدن ولهجة العرب الاكثر اختلاطاً بسواهم، ذلك انهم يكثرون التنوين واستعمال بعض الصيغ الصرفية والنحوية والتعابير القديمة، ولا سيما لفظهم القاف والكاف لفظا غريبا يسميه النحويون بالكشكشة.

ويقول بنو بَلِي انهم اعتنقوا الوهابية مختارين ، دليلا على ايمانهم . وهم يؤدون الزكاة ، وبانتظام يقيمون الصلوات الخمس والفرائض والشعائر الخاصة بالمذهب ، الا انهم فيما عدا ذلك يجهلون تعاليم الاسلام الاساسية جهلا مطبقا ، ولا يكترثون — مثلهم مثل سواهم من البدو — بالفقه والشرع الاسلاميين .

يقال ان بني بَلي قحطانيون من اليمن . ولكني ارى ملامحهم اقرب الى بني عنزة والى القبائل السورية العدنانية منها الى الحويطات وعرب غربي شبه الجزيرة العربية ومصر . والكثيرون منهم ذوو بشرة فاتحة اللون ، وهذا امر نادر جدا في الصحراء ، أظن انه يقتصر على القبائل الشمالية فقط . ولم تكن هذه الملامح وتلك اللهجة وحدها العامل الذي دفعني الى التفكير بعنزة ، بل دفعتني الى ذلك ضيافتهم السخية التي تميّز بدو الداخل عن جيرانهم المقيمين عند حافة الصحراء . وتبين لي كذلك انهم مرحون وعندهم الكثير من حضور الذهن كعرب الشمال البعيدين عن عادات الوهابيين الصارمة وعن تقشفهم .

ويقول القلقشندي : « بنو بَلِيّ بطن من قضاعة من القحطانية ، النسبة اليهم «بَلَوي» وهم بنو بلي بن عمرو بن الحارث بن قضاعة. قال في «مسالك الابصار» : ومنازلهم الان بالداما ، وهي ما دون عيون القصب ، الى اكري فم المضيق ، وعليهم دَرْك الحجيج هنالك . ومنهم جماعة بصعيد الديار المصرية . قال الحمداني : وديارهم خميم وما تحتها . ويصف ابن اياس في «نشق الازهار» عيون القصب واكري بقوله انهما منزلان في طريق الحج على ساحل البحر الاحمر . في عيون القصب عيون ماء جارٍ ينمو حولها القصب الفارسي وهي موضع استراحة للحجّاج الذين يضربون خيامهم على ضفّة الماء ويستحمّون في البرك ويغسلون ثيابهم فيها . وعيون القصب تذكر على انها اول منزل الى الشمال من المويلح في طريق الحج المصري . ذكرها كاتب مصري اسمه حافظ احمد في «مختصر تاريخ مصر» (*) وتعرف حاليا باسم « العيون » . ولا ريب في انها هي هي عيون

(*) — قال فالين ان هذا الكتاب « مخطوط في المتحف البريطاني ، رقمه ٩٩٧٢ » . ولا نعرف شيئاً عن مؤلفه .

القصب ، التي عرفها الجغرافيون .

أما اكري (واحمد حافظ كتبها في قائمته خطأ: اكره)، فهي المنزل الاول جنوبي الوجه. وبرغهاوز Berghaus وضعها في ممرّ جبلي اسمه المضيق على خارطة بلاد العرب التي رسمها . وعيون القصب واكري تحدّان منطقة وادي داما ، وكانتا تحدّان سابقاً ديار بني بَلِي. اما اليوم فضبا والوجه هما ، على ما قلناه ، حدّا المنطقة التي يملكها البلَويون، وعلى هؤلاء درك الحجيج فيها من ضبا الى اسطبل عنتر المعروف حاليا باسم وادي داما .

من التقاليد المنقولة والمعمول بها حالاً هنا علمت ان اول من سكن الحَرّة قبيلة بني سُلَيم . وقيل عنها ايضا انها ملكت مدينتي تيماء وخيبر . ويقول القلقشندي عن هذه القبيلة البائدة : «ان بني سُلَيم قبيلة قوية من قيس عيلان ، والنسبة اليهم سُلَمي . وهم بنو سُلَيم بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس. وكان لسليم من الولد بُهثة ومنه جميع اولاده . ويقول في «العبر» إن منازلهم كانت في عالية نجد ، قرب خيبر ، وان من منازلهم حَرَّة سليم وحرة النار بين وادي القرى وتيماء ، قال : وليس لهم حاليا اي اثر لهم في ديارهم الاولى، ثم قال: وبافريقية منهم حيٌّ عظيم الخ ...» (*) وقال صاحب «كتاب البلدان» ان في بلاد العرب ثماني مناطق يطلق عليها اسم الحَرَّة : منها : حرة بني سُلَيم ، وحرة النار ، دون تعيين موقعهما . ومع ان حرّة بني بَلِي التي ذكرتها لا تقع بالضبط بين تيماء ووادي القرى على ما قاله صاحب «العبر» ، فاني اظن انها حرة بني سليم عينها . (٥٣)

اما وادي القرى (٤٩) فيصفه صاحب «نشق الازهار» بانه وادٍ بين المدينة والشام ، وفيه حصن مشيد . نحتت بيوته في الجبال (**) والتربة في هذا الوادي أثالب ،

(*) – نهاية الارب ، ص ٢٧٣ .

(**) – « وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين » – صدق الله العظيم !

اي بقاع مغطاة بفتات الحجارة والتراب. وفيه اقام اهل ثمود (٥٤) وحتى اليوم ترى بئرهم التي شربوا منها وشربت ناقة صالح (*) ووصف ابن الاثير في كتابه «تحفة العجائب» (٤٨) وادي القرى بما يماثل ما في «نشق الازهار». اما «اوضح المسالك» فيناقض ابن حوقل القائل «ان بلدة الحِجر في جبال الحجاز، على يوم من وادي القرى»، اذ وَجد، شخصيا، ان الشقة بين المكانين خمسة ايام . ويقول السمعاني في «الانساب» ان بين الحجر ووادي القرى ثمانية اميال . ويقول جغرافيون آخرون في وصفهم حدود جزيرة العرب ان البحر الاحمر يمتد على طول الشاطىء من ايلة الى مَدْيَن (٥٥) فوادي القرى ، فينبع الخ... نزولا حتى اليمن . وأرى ، بعد المقارنة بين مختلف تلك الروايات ، ان فم الوادي يقع في الساحل بين مَدْيَن وينبع ، اي في الوجه على ما هو محتمل . اما راس الوادي ففي الحِجْر ، حيث الحفريات المماثلة لحفريات وادي موسى وجبل الناقة ما تزال تشهد جميعها بان في الحِجر كانت مضارب ثمود وكانت قصة ناقة صالح العجائبية . وعلى الخارطة التي وضعها برغهاوز(٥٨) وادٍ في جوار المدينة اسماه وادي القرى، واما صاحب «اوضح المسالك» فيقول ان بين الحِجر ووادي القرى خمسة ايام . ولم يقل ما اذا كان الوادي من ناحية الوجه هو الى الغرب من الحِجر ، او الى الجنوب من المدينة . وعلى كل فالكاتب يُعتبر قريبا من الحقيقة في تقديره المسافة بين الحِجر والوجه وبين الحجر والمدينة ، وهي اربعة ايام ، والفارق بيوم واحد مردّه الى كون المؤلف يرى الطريق اطول مما هي عليه، وهو خطأ لاحظته في اكثر تقديراته. ومع ان اسم وادي القرى غير معروف عند البدو الحاليين ، فاني لا أتردد في تعريفه بانه وادي نجد الحالي الذي يمتد ، على ما قلته آنفا ، نحو الوجه من جهة على طول السفح الجنوبي لجبال الحرة في جوار «الجو»، ونحو داخل الصحراء من الجهة الاخرى في اتجاهٍ جنوبيٍّ شرقي

وكان بنو بَلي ، وانا عندهم ، ينتقلون يوميا من مكان الى آخر حتى قاربوا

(*) — « قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » . — صدق الله العظيم !

سهل المنقع الذي دخلت منه أول مرة الى ارض نفود «الجو» .

السادس عشر من نيسان (ابريل) غادرت مستضيفيّ (بني بَلِي) يرافقني ثمانية منهم يقودهم دليلي عقيد القبيلة . وهم ينتوون ، بعد ايصالي الى تيماء ، الاغارة على الشرارات في جوار الجوف(١٣) ، وكان سبيلنا في ارض الحرة القاتمة اللون عبر عدةٍ من قممٍ سود ، الى اليمين من المنقع . فمشينا خمس ساعات في اتجاهٍ شرقيٍ – جنوبي شرقي ووصلنا الى تلة فيها صهريج طبيعي يحتوي على مياه أمطار جيدة . فقضينا ليلتنا فيها ننتظر الراغبين في الانضمام الينا .

السابع عشر من نيسان (ابريل) ايقظنا مع الفجر وصول متطوعين جدد ، او كما يُسمّون هنا «شركاء في الحملة» فنهضنا فورا وتابعنا رحلتنا في الاتجاه عينه الذي بدأناه أمس ، في ارض جبلية مماثلة ، لونها قاتم . وبعد اربع ساعات وربع الساعة وصلنا الى درب البكرة ذات الارض الصخرية المشوّشة والتي يفوق عرضها هنا عرضها في الشمال ، حيث قطعتها ، مبلغاً جعلها تفقد شكل الوادي . ثم عبرنا سلاسل تلال مرتفعة غير منتظمة ووصلنا بعد ساعتين وعشرين دقيقة الى طريق الحج السوري ، في مكان يبعد ثلاث ساعات عن الدار الحمراء . وهي ثالث منزل الى الجنوب من تبوك .

وطريق الحج هنا تمتد مسافة طويلة في اتجاه جنوبيٍ شرقي ، عبر وادٍ عريض واسع ، تحدّه في طرفه الشمالي الشرقي تلال اكثر ارتفاعاً واكثر انتظاما من التلال التي قطعناها قبل قليل . ومن الارجح انها الجزء الشرقي من مجموعة تلال المنطقة ، بالرغم من انها فقدت شكلها البركاني وانحسرت عنها طبقة فتات الصخور السود ، هذه الطبقة التي تغطي ، في محلات اخرى من جبال الحرة ، اللون الطبيعي الاحمر للصخور الرملية . لقد قطعنا الوادي في ساعة وعشرين دقيقة باتجاهٍ جنوبيٍ – جنوبيٍ شرقي . ثم شرعنا في تسلق القمم المقابلة عبر مضيق اسمه ابو جُنَيْب ، ومن اعلى المضيق وعلى مدّ البصر ، تراءت لنا تلال متموجة من

صخور رملية تنخفض تدريجاً نحو الشرق وتعتورها اودية متعرجة تنصب في وادٍ عظيم اسمه وادي مَرْطَى يوازي طريق الحج ويتسع تدريجاً وينحدر في اتجاهٍ جنوبي شرقي .

الثامن عشر من نيسان (ابريل) تابعنا سلوكنا في المضيق اربعين دقيقة ثم عطفنا الى اليسار ودخلنا في وادٍ جانبيٍ سرنا فيه ساعة باتجاهٍ شمالي شرقي ، وسرنا ساعة اخرى وعشر دقائق نحو الشرق . هنا تحولت الجبال الى ارض صخرية منخفضة ومتموّجة . وبدلاً من اودية رملية ينبت فيها شجر الأرْطَى (*) وجدنا وهاداً صخرية قليلة العمق . وبعد سبع ساعات وثلاثة ارباع الساعة مشيناها باتجاهٍ شرقيّ في ارض وعرة وصلنا الى صهريج فيه مياه كثيرة ، جانب القمة ، في طرفٍ سهل فسيح يبتدىء من هنا ويسمى «الحالة» ويمتد حتى «القصيم» فملأنا قِرَبنا بسرعة ورحلنا حالا لان الرفقاء كانوا يخافون ، على رغم من تأهبهم للغزو ، ان يفاجئهم غزاة مثلهم من البدو اشدّ منهم بأسا . ولم يشعروا بالامن إلا بعد ساعة ونصف الساعة من مغادرة الصهريج . وكانت رحلتنا اليوم في سيرٍ دائري كي لا نترك أثرا في الرمال يدل الينا فيما اذا صدف ان مرّ آخرون بعدنا . ووصلنا اخيراً الى ارض صلبة هي ارض برك جافة ، او مناقع ، تخترق السهل . فعدنا الى السير باتجاه الشرق حتى حططنا للمبيت .

التاسع عشر من نيسان (ابريل) تابعنا السير في طريق متعرجة عبر مناقع ، وفي قعر اودية منخفضة ومستوية حتى وصلنا الى تيماء بعد ست ساعات وعشر دقائق . وقد طال مسيرنا قليلا بسبب تعرّج الدرب الذي سلكناه .

العرب جميعا يعدّون اليوم تيماء من نجد ، ويجوز عدّها واحدة من مدن حدوده الغربية . واعتقد ان السبب في عدم حسبان كامل هذه المنطقة الواقعة الى الغرب جزءً منه مردّه الى كونها تشكل قعر واد رفيق الانحدار «يَنْجُد» منه كل

(*) — ثمره يشبه العناب .

من مرّ الى نفود نجد المرتفعة .(*)

ان منطقة نجد تبدأ عند السهل الفسيح العظيم المنبسط في شمالي جزيرة العرب ، بين جبال سورية ونهر الفرات ، وتحدّها غربا جبال الشراة والشفا ، وشرقا قمم وادي سرحان الرملية التي تبتدىء على يومين جنوبي دمشق وتشكل سلاسل نفود نجد حتى جبل أجأ الغرانيتي . وتمتد منطقة نجد نزولاً الى جوار تيماء حيث تنفتح مع ارض «الحالة» في سهل عظيم آخر يماثل في طبيعته القسم الشمالي منها . ويمتد من المدينة والطائف على طول جبال العارض — وهي حدود نجد الجنوبية — حتى الخليج الفارسي (**)

واظن انه من الاصح القول إن أولى هذه البقاع التي تُعَدّ سهلاً هي في الواقع واد عظيم يضيق تدريجاً بين المناطق المذكورة آنفاً والمحيطة به ، وينحدر تدريجاً نحو ارض الحالة ومنها ينحدر برفق نحو الخليج الفارسي . (**)

واذا نظرنا الى نجد على انه وحدةٌ رأيناه ارضا صحراوية متموجة تقطعها في الغرب اطراف اجبل تنبثق من الجبال الغربية ، وتتخللها في جهاتها الاخرى مجموعات تلال ، وقمم منفردة معزولة . والسهول المترامية بين تلك التلال مختلفة الحجم ، كبيرة وصغيرة ، تربة بعضها من النفود ينبت نباتاً صحراويا قليلاً ، وبعضها الآخر ذو تربة صلبة مجدبة لا خضرة فيه ولا حياة . وتسود في القسم الغربي منها الصخور الرملية. وقد ترى صخورا جيرية في النفود وفي الارض المجاورة لها . اما الغرانيت فلم يثبت لي وجوده في سوى جبل طيّء . والماء نادر في نجد بسبب ارضه الصخرية التي يجوز تمييزها بانها اكثر الاراضي العربية جدوبة ووحشة .

في سنة ١٨٤٥ قطعتُ هذه المنطقة ، من موضع قرب الطفيلة الى وادي

(*) — يريد انه يخرج أو يرتفع .
(**) — هكذا نعت الخليج ، وهو خطأ: فالخليج هنا عربي . واجع الرقم اا٥ ٢ في ملحق الاستدراك والتعقيب .

سرحان ، على جمل سريع في ٥٢ ساعة (٢٦٠ميلا). وعلى هذا الاساس أقدّر المسافة من درب الحج ، فوق الدار الحمراء وقرب تيماء ، الى اقرب بقعة من نفود نجد باربع وعشرين ساعة فقط .

يُقدّر عدد سكان تيماء بماية اسرة جميعهم من الشمّر ، في بطنين اثنين : علي وحَمْدَة ، والشمّر يختلفون عن بني عنزة المقيمين في الصحراء المحيطة بتيماء اختلافا كبيرا . ففي عنزة ملامح تلاحظ فيها قسمات سورية ، واحيانا قسمات يهودية صرف (كذا)، اما الشمّر فتتميز بملامح تذكرنا بانسبائهم من عرب اليمن .

ويخيّل اليّ اني استطيع ملاحظة وحدة الاصل ، هذه ، في القبائل المتحدرة من القحطانيين ، بوضوح تقريبي ،على اساس الزمان الذي انقضى منذ نزوح تلك القبائل المتحدرة من مضاربها الاولى ونسبة نقاء (او عدم نقاء) السلالة بعد اختلاطها بسكان المناطق التي نزحت اليها.ويروي عرب الشمّر في عنعناتهم انهم من القبائل التي نزحت متأخرة من الجنوب وقد احتفظوا اكثر من سواهم بملامح جدودهم اليمانيين ، الامر الذي يلحظه ايّ شخص عاش مدة بين عنزة .

يخضع بنو شمر لابن الرشيد زعيم شيوخهم في نجد ، وهم مثل جميع الوهابيين يتبعون في حكمهم الشريعة الاسلامية اكثر من اتباعهم نظام الصحراء العرفي . وفي الامور الهامة يُطلَب الفرقاء الى حائل للمثول امام ابن الرشيد فيستشير هذا قاضيه ويصدر حكمه وفقاً للمذهب الحنبلي الذي اتبعه الوهابيون عند بدء حركتهم الاصلاحية. ويذهب فريق من الكتّاب العصريين(*) الى ان الوهابيين قد اعتنقوا المذهب الحنفي . ويروي البعض الاخر انهم وضعوا مذهبا خاصا بهم يؤلف طائفة مستقلة . والروايتان لا اساس لهما من الصحة . فالوهابيون مصلحون فقط ويتبعون المذهب الحنبلي .

تنتصب تيماء على ارض من صخور كلسية متبلورة . وترتفع قليلا عن الارض

(*) — كان ذلك في أواسط القرن التاسع عشر .

المحيطة بها . والقليل الذي تستطاع فلاحته وزراعته من ارضها هو البقاع الرملية الداخلة في الصخر . ويملك السكان مزارع نخل كبيرة تثمر ثمرا منوعا ، وبعضه يسمّى بالحلوة وهو اشهى وازكى تمر في بلاد العرب . ويزرع في تيماء بعض الحبوب ولا سيما صنف ممتاز من الشوفان ، إلاّ ان المحصول لا يسد حاجة الاهلين .

القسم الاكبر من البساتين ترويه بئر غزيرة المياه اسمها «بير الهدّاج» تنبع في وسط البلدة . اما الجنائن البعيدة فترويها الآبار المجاورة لها . والوسيلة المستعملة في رفع المياه وجرها في قنوات للري هي عينها المستعملة في بلاد ما بين النهرين (العراق) وفي نجد ، اي انها دلو من جلد الجمل تتدلى من طرف رافعة طويلة ، نقطة استنادها في قمة عمود مثبت في الارض . اما الساقية او الناعورة (دولاب الماء) التي تستعمل في مصر فلا اثر لها هنا . أضف الى هذا كله ان شكل المنازل وزراعة الجنائن وكثيرا من الميزات تذكرني اني دخلت ارض نجد : ففي القرى التي على الساحل تظهر العادات المصرية واضحة . وكذلك تسود العادات السورية القرى المنتشرة على طول سلسلة الشراة ، وحتّى الجوف في الداخل . اما في تيماء فتظهر اول دلائل لمدنيّة مختلفة يبدو لي انها انتقلت من بلاد ما بين النهرين الى القسم المجاور لها من بلاد العرب ، وما لبثت ان انتشرت تدريجاً في جميع انحاء نجد .

ان المسافة بين تيماء والعُلا تقدر بمسيرة يومين ونصف اليوم باتجاه جنوبيّ غربي ، والطريق المؤدي الى العُلا لا ماء فيه ، سوى ما يتبقى في احواض وصهاريج بعد سقوط الامطار . وقيل لي ان سكان العُلا يبلغ عددهم ثلاثمائة اسرة تشمل عددا كبيرا من المتولدين ، وهم يتعاطون اعمال التجارة الصغيرة مع البدو المجاورين ومع ينبع والوجه والمدينة .

والكاتب الوحيد الذي ذكر العُلا هو احمد الدمشقي(٤٥)في مؤلّفه «اخبار الدول» (*) حيث يقول عنها انها «بلدة في طريق الحج السوري ، على خمسة ايام

(*) – بل ذكرها أيضا ياقوت في « معجم البلدان » ، وقد أوجزناه في التعليق في ذيل الصفحة الـ ٣٨ .

من المدينة ، في وادٍ فيه مزارع نخل وينبوع ماء جارٍ ». وأقول : انها تقع خارج طريق الحج ، على ست ساعات الى الجنوب الغربي من الحِجر ، المنزل الرابع من تبوك ، ويتفق الجميع على ان المسافة من تيماء الى تبوك اربعة ايام ، والسفر بينهما سهل . وفي منتصف الطريق صهريج اسمه «عُقْلَة» ندر ان جف ماؤه . والجوف تقع على خمسة ايام الى الشمال الشرقي من تيماء في حين تبعد خيبر عنها ثلاثة ايام طويلة .

إن الاشارات الى تيماء التي استطعت العثور عليها في الكتب العربية قليلة طفيفة ، وهي تردّد القول عينه «ان تيماء بلدة في الصحراء السورية (كذا) وهي لطيّء ، فيها من التمر اكثر مما في تبوك وتعتبر اغنى منها . وحصن الابلق المنسوب للسموأل بن عاديا كان فيها». قلت : لم أر أية اطلال للحصن . والسكان لا يذكرون اسمه . وجل ما هنالك خربة بناء صغير من حَجَرٍ منحوت ، نصفه مطمور بالرمل والنفايات ، ويكاد لا يذكر ، فلا يعقل ان يكون هو الحصن القديم الشهير .

ان اكثر البدو المقيمين في جوار تيماء من قبيلة عنزة . واعظم بطونها «الفقراء» وولْد علي ، وولد سليمان ، والبِشْر . ويقيم «الفقراء» بين الحِجر وتبوك وخيبر وتيماء ، وفخذهم الرئيسي بنو وهاب . ويقيم ولِد علي وولِد سليمان ، عادة ، في الاجزاء الجنوبية من النفود الى الشرق من تيماء . اما البِشْر ، والعواجي فخذهم الرئيسي ، فمنتشرون في النفود ، من هنا وشرقاً حتى القصيم ، في الاراضي المغطاة بالحصى التي تلي النفود. وبنو شمّر يفضلون عادةً الاجزاءَ الشرقية من النفود والبقاع القريبة من العراق الى حيث كانوا ينزحون في القرن الماضي (*) بطناً بعد بطن واسرة بعد اسرة . ومن الصعب تحديد مناطق البطون المختلفة لان هذه البطون تعيش في صداقة وتخالطٍ وتنزل احياناً في مكان واحد . وفي نهاية الربيع ، عندما

(*) — القرن الذي سبق رحلة المؤلف ، وهو القرن الثامن عشر .

يشح الماء ويقل الكلأ في النفود تقترب كل قبيلة من منازلها او قريتها ، وفي موسم قطف التمر تضرب كل منها خيامها قرب سور بلدتها .

٢٦ من نيسان (ابريل) انطلقت مع عواجيٍّ من البِشْر كان راجعاً الى موطنه ، بعد سفره من حائل الى مصر دليلا لجماعة تقود عشرين حصاناً لعباس باشا (*) ، وعلى بعد ساعة الى الجنوب من تيماء مررنا بقمة غُنَيم اليتيمة الى يميننا ودخلنا بقعة منبسطة اسمها السنانية . وبعد سير طال خمس عشرة ساعة بلا توقف في هذه البقعة ، وفي ارض «الحولة» التي هي امتداد لها ، اتينا مضارب «الفقراء» ، وعددها مايتا خيمة ونيّف نصبت على سفح تلة منعزلة من صخور رملية اسمها جبل بَرْد ، وكان اكثر سيرنا ليلاً . وعلى قدر ما استطعت أن ارى في الظلمة وجدت ان سُرانا كان في منبسط تحدّه في الشمال الشرقي سلسلة النفود ويمتد على مد البصر نحو الجنوب الغربي . واظن ان النفود كانت على خمس ساعات من طريقنا ، وبدت لنا مثل سلسلة تلال من الصخور الرملية تنتصب فوق الارض الغربية المنخفضة وتمتد من الشمال الى الجنوب .

قضينا اليوم التالي في خيام «الفقراء» . وفي المساء لحقت بنا جماعة كان ابن سعود قد ارسلهم في اواخر السنة الماضية في خيل الى (الخديوي) عباس باشا وهم الآن في طريق العودة الى الرياض مقام زعيمهم، ومعهم واحد من عبيد باشا مصر ارسله مولاه لشراء خيول جديدة من نجد .

٢٨ من نيسان (ابريل) انضممنا بعضنا الى بعض وانطلقنا من المضارب يرافقنا شيخ من «الفقراء» وبعض جماعته باتجاهٍ شرقيٍّ – جنوبيٍّ شرقي في اراضي الحولة، في سهول من الرمال الناعمة تتخللها اكمات منخفضة وكتل من صخور رملية. وكان المنظر العام يشبه منظر الحِسْمى، وسرعان ما اظهرت تموجات الأرض اننا نقترب من النفود . وبلغ مسيرنا اليوم سبع ساعات وعشر دقائق فقط

(*) – هو ابن طوسون بن محمد علي باشا . انظر الرقم ال٣٥ من ملحق الاستدراك والتعقيب .

٢٩ من نيسان (ابريل)   بعد ساعة من انطلاقنا وصلنا الى حوض ماء اسمه «مُغَيْرة» . وبعد ثلاث ساعات اخرى ونصف الساعة اتينا المنحدر الجنوبي لارض النفود وسلكنا طريقنا صعوداً ونزولاً على رمال ناعمة متموجة ساعتين وربع الساعة حتّى وصلنا الى مرتفع من الصخور الرملية اسمه «عرنان» فيه صهريج ماء اسمه عِنْز . ولم نتوقف للمبيت الا بعد ست ساعات اخرى .

٣٠ من نيسان (ابريل)   سرنا ساعة باتجــاه جنوبيٍّ – جنوبيٍّ شرقي ، الى جانب تلة من صخور رملية اسمها «المِسْمى» . ثمّ بدأت الارض تنخفض نسبياً وتنحدر الى وادٍ كبير اسمه «وريق» او «غوطة» . وهو لفظ يطلق على كل ارض مماثلة . وسرنا في الوادي اربع عشرة ساعة ونصف الساعة نحو الشرق .

اول نوار (مايو)   رأينا اليوم أجــأ وسلمى ، جَبَلَي طيّء الشهيرين ، وهما من صخور غرانيتية ويُعدّان اهم ما يحويه هذا الجزء من بلاد العرب . وسرنا الى اولهما وبعد تسع ساعات واربعين دقيقة بلغنا بلدة مَوْقَق ، في سفح أجأ ، وكنا قد عبرنا تدريجاً من ارض رملية ناعمة الى ارض صخرية تتميز بهــا اراضي جبل شمّر والاجزاء الجنوبية من نجد .

٢ من نوار (مايو)   سرنا تسع ساعــات وعشرين دقيقة في وادٍ ينحدر نحو الشرق – الشرق الجنوبي مخترقاً في العرض سلسلة أجأ كلها ، ثم دخلنا سهيل البطين الذي يمتد بين جبلَي طيّء ويشكل تماماً ما يسمى بمنطقة جبل شمّر . واسترحنا الليل هنا ، قرب «قُفار» اكبر بلدة في هذه البقعة ، وفيها المضارب الرئيسية لمن بقي من سلالة بني تميم القبيلة القديمة .

٣ من نوار (مايو)   بعــد ثلاث ساعات من السير نحو الشرق وصلنا الى حائل مقر زعيم شيوخ شمّر . وهي – الى حدٍّ ما – عاصمة بلادهم . وكان دربنا من تيماء اليها شبه دائري بسبب اتجاهنا جنوباً بعد مغادرتنا تيماء . امــا الطريق العادية من تيماء الى حائل فتتبع اتجاهاً شرقياً – جنوبياً شرقياً ، عبر اكمة «حلوان» المرتفعة عند حافة النفود ، على ثماني ساعات من تيماء . والمسافة بين

تيماء وحائل تقدر بحوالي خمسة ايام على الجمال .

سمعت بانباء عن اضطرابات في اراضي ابن سعود دفعتني — بالاضافة الى اعتبارات اخرى — للعدول في الوقت الحالي عن عزمي زيارة الاجزاء الشرقية من نجد والاراضي الممتدة الى الخليج الفارسي (*) فقررت متابعة سفري الى بغداد .

ان المواصلات بين جبل شمّر والعراق تتبع طريقين مختلفين ، اقصرهما في اتجاهٍ شماليّ — شمالي شرقي ، ثم شمالي ، وعلى الرغم من قلة الماء ومن مشاق السفر فيه ، فالجماعات القليلة والقوافل المسالمة المتوجهة الى بغداد لشراء الذرة والارز تفضله على الطريق الآخر لأن الاول اكثر أماناً. اما الطريق الآخر فيبدأ مشرقاً ثم ينعطف ويوازي تقريباً في اتجاهه الطريق الاول ، والماء فيه كثير يكاد يكون في كل محطة منه ؛ ولذلك يرتاده البدو فيقل الامن عليه ؛ ولا تسلكه إلا القوافل الكبيرة والجماعات المسلحة في غزواتها .

وهذه الطريق الاخيرة يتبعها حجّاج بلاد ما بين النهرين (العراق) في قوافل الكوفة من مشهد علي الى مكة ، ويقدّر طولها باحد عشر يوماً فيما اذا اخذ معدل سفر الحجاج اليومي بعين الاعتبار . والعرب ينسبون الآبار الموجودة في ذينك الطريقين ، وفي القرى والمحلات القديمة ، الى سليمان بن داود ويعزون اليه بناءها بمساعدة الجن الذي سخّره المولى القدير لسيطرته . اما في الايام الحديثة فيقال ان الست زبيدة زوجة هارون الرشيد هي التي اعادت بناء الآبار على طريق قوافل الكوفة واقامت الخانات . وهذه المباني لم يبق لها اليوم من اثر .

ولمّا كان عدد العربان الذين سأسافر معهم خمسة فقط — وهم في طريقهم الى مشهد علي لشراء مؤنة قبيلتهم من الأرز — فقد قررنا اتباع الطريق الصعب الامين . فانطلقنا في السابع من نوار (مايو) من قرية الجثامية — على ست ساعات الى الشمال — الشمال الشرقي من حائل — وسرنا باتجاهٍ شماليٍّ — شمالي شرقي

(*) — هو الخليج العربي . أنظر الرقم الـ ٢٥ في ملحق الاستدراك والتعقيب .

خمس ساعات وربع الساعة في سهل من النفود اسمه دقّي ، يحدّه في الشمال الشرقي جبل قَيْسي ، وهذا الجبل سلسلة هضاب منخفضة من صخور رملية تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي . والى يسارنا — اي الى الغرب — اطراف سلسلة أجأ الغرانيتية التي تنحدر بغير انتظام وتنتهي هنا ، على بضع ساعات ، الى الغرب من جبل قيسي . وعند الافق ، وراءنا . رأينا قمة «الجدادية» المرتفعة والمنفردة .

وراء جبل القيسي يبدأ سهل «الخَطّة» — البدو يقولون انه بين النفودين — وعبرنا هذا السهل باتجاهٍ شماليٍّ شرقي في سبع ساعات ، وفي منتصفه تقريباً مررنا ببئر عميقة جداً اسمها «بير التَيِّم» يضرب بنو الصُلَبَة خيامهم حولها في الصيف ، وهم اوضع بطون هتَيم .

٨ من نوار (مايو) مرة ثانية عبرنا في بقعة من النفود اقل تموجاً مما هي عليه عادة . ووصلنا بعد تسع ساعات ونصف الساعة الى بئر الاطواء التي يبلغ عمقها قراب خمسين قامة ، على ما قاله لي مرافقوي ،وهي قديمة جداً ومبنية من حجر منحوت بناء محكماً . وبعد اربع ساعات اخرى توقفنا للمبيت . وقد مررنا اليوم بآكام لم تكن سوى اكوام رمال يعرف الواحد منها بالطاووس .

٩ من نوار (مايو) مررنا بسلسلة تلال منخفضة من صخور رملية تسمى صَيلة . وهي اول تلال نراها منذ غادرنا جبل قَيسي ، باستثناء ماشاهدناه البارحة من كثبان الرمال . وبعد ثلاث ساعات من جبل صَيلة وصلنا الى حافة النفود وبدأنا النزول تدريجاً الى ارضٍ من الرمال الثابتة ، وبعد اربع ساعات اخرى دخلنا ارض «الحماطية» فوجدنا بعض الماء في فجوات صخور جيرية . والى يسارنا — اي الى الغرب — ارض الحيانية حيث الماء ، على ما قاله لي رفاقي ، موجود ايضاً في اماكن مماثلة .

واما الى يميننا ، وعلى يوم واحد الى الشرق ، فارض «لَيْنَة» التي تمر بها قوافل

الحج الكوفي ويرتادها عرب الجوار ويضربون خيامهم فيها لكثرة آبارها (*) وقرب قعرها . ووقفنا تلك الليلة للمبيت بعد ثلاث ساعات اخرى وربع الساعة .

١٠ من نوار (مايو) بعد مسيرة ثلاث ساعات وعشرين دقيقة وصلنا الى سلسلة من التلال الرملية تسمى «الدهناء» ، تشكل حدود النفود في الجهة الشمالية الشرقية . وتمتد هذه التلال بلا انقطاع من قرب الجوف ، التي تبعد عنا قراب اربعة ايام ، والى «عمود الخيمة» (**) على شاطىء الخليج الفارسي (***) وتنحدر تلال النفود الاخرى وامتداداتها تدريجاً باتجاه البحر ، وتنتهي قبل الشاطىء ، وتتخللها بقع من الارض ذات تربة مختلفة . اما في الجهة الاخرى من «الدهناء» ، الى ناحية الخليج ، فتصادف بقع من رمال النفود الناعمة ، فقدت الميزات الخاصة بالاراضي المرتفعة التي تحتل وسط الصحراء الشمالية بين سورية وبلاد ما بين النهرين (العراق) .

قطعنا الدهناء (****) في نصف ساعة وأتينا الى ارض «الحجارة» التي تمتد من الدهناء الى العراق . وهي ، على مسمّاها ، أرض من حجارة صلبة ، تشكل

(*) – يقول صاحب «القاموس» ان سليمان بن داود حفر هذه الآبار – فالين .

(**) – أو رأس الخيمة ، وهناك قهر القراصنة من الجواثمة (القواسم) سنة ١٨٠٩ .

(***) هو الخليج العربي الذي يخطىء الرحالون الاجانب بتسميته بالخليج الفارسي . أنظر الرقم (٢٥) في ملحق الاستدراك والتعقيب .

(****) يقول صاحب «القاموس» ان الدهناء هي الفلاة ؛ وهي أيضاً ديار بني تميم في نجد ، وباستطاعتي القول انها البقعة التي قطعناها . ويطلق السكان الحاليون اسم الدهناء ، ويلفظونها بفتح الدال والهاء بمعنى البطحاء على الرمال أحياناً ، بينما هي تعني حقاً ارضاً رملية منخفضة تغطي سطحها الحصى وتجمع فيها احياناً المياه المتحدرة من الأرض التي تعلوها . غير اني لم أسمع هؤلاء السكان يستعملون كلمة الدهناء بمعنى صحراء النفود ، كما استعملها الجغرافيون العرب وكوسان دي برسيفال . فهم اليوم يطلقون اسم النفود على البقعة بكاملها . وهذه الكلمة تعني أرضاً رمالها ناعمة . ولا بد لي من الاشارة إلى اني لم أجد مرجعاً قديما يورد هذا المعنى الأخير لكلمة النفود – فالين .

المرتفعات فيها تموجات متتالية تتخللها سهول من الحصى . ولا تبرز في هذه الارض فوق السطح المتموج اية تلال او مرتفعات تبدل من الرتابة في المنظر ، او تساعد المسافر على ان يتبين طريقه . وحتى الآن كانت سبيلنا من جبل شمّر باتجـاه شمالي – شمالي شرقي تقريبـاً . ومن هنا « اخذنا النجم القطبي بين حاجبينا» ، على حد قول العرب ، واتجهنا شمالا . وتوقفنا للمبيت بعد سبع ساعات ونصف الساعة .

١١ من نوار (مايو) بعد تسع ساعات ونصف الساعة وصلنا الى آبار «حزيل» ويبلغ عمق الواحدة منها عشرين قامة تقريباً وهي مبنية من حجر منحوت مثل بئر الاطواء . وتابعنا السير وتوقفنا للمبيت بعد ساعة وعشرين دقيقة .

١٢ من نوار (مايو) سرنا ثلاث عشرة ساعة ونصف الساعة ومررنا بسلاسل تلال منخفضة ، بعضها من صخور رملية والبعض الآخر من صخور كلسيـة .

١٣ من نوار (مايو) بعد ساعتين ونصف الساعة من انطلاقنا نزلنا في سهل «المجامر» المنخفض الذي تنتشر على سطحه الرملي آكام من رمال متكتلة يصل علوها الى مستوى الارض المجاورة . وبعد خمس ساعات اخرى ونصف الساعة اتينا منطقة المُشَيْقيق لعلنا نعثر على الماء، فوجدنا الصهاريج قد جفّفها الصيف واضطررنا لمتابعة الرحلة طوال اليوم دون نقطة ماء تروي عطشنا . فمشينا ايضاً سبع ساعات وعشرين دقيقة ووقفنا للمبيت .

١٤ من نوار (مايو) بعد خمس ساعات وصلنا الى صهاريج «صَمِيْت» فملأنا قِرَبنا وتابعنا السفر ثماني ساعات وربع الساعة قبل ان نحط الرحال للمبيت .

١٥ من نوار (مايو) وصلنا الى الحدود الشمالية لارض الحجارة ودخلنا وادياً منفتحاً وجدنا فيه بعض الخضرة ، منها شجيرات اكاسيا يسميها

العرب شجر السِدْر . وقطعنا هذا الوادي باربع ساعات وربع الساعة وأتينا سهل « جُفْـرة العراق » قرب قرية «قصر الرُحَيمي» ، وتوجهنا منه الى القبة الذهبية لضريح الامام علي وقد بدت لنا في الافق . وعبرنا — في طريقنا على الارض الرملية المتموّجة — قاع قناة شابور القديمة الجافة ، ثم مررنا في مضيق في جبل «سنام» المنعزل . وبعد مسير اثنتي عشرة ساعة دون توقف في الليل وصلنا الى مشهد علي (ض) خاتمة رحلتنا .

انتهى

ملاحق

١ـ الاستدراك والتعقيب
٢ـ الفهارس

الاستدراك والتعقيب

(١) — جبال الشراة (بفتح الشين) : من أعمال جند فلسطين إلى الجنوب ، من كور سورية لما وليها عبيدة بن الجراح في بدء الحكم الاسلامي . قال ياقوت : انها صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول (صلعم) . النسبة اليها : شَرَوي ، (بفتح الشين والراء) » . وإلى هذا الصقع نسب كثيرون من الرواة ، منهم عليّ بن مسلم بن الهيثم الشروي . وقال ياقوت أيضا ان هنالك شراة آخر «جبل مرتفع في السماء من دون عسفان ، من يسارها ، تأوي اليه القرود . ينبت النبع والقرظ والشوحط وهو لبني ليث خاصة ، ولبني ظفر من سُلَيم ، وبه عقبة تذهب إلى ناحية الحجاز — لمن سلك عسفان — يقال لها الحريطة » . (ياقوت : ص ٣٣١) .

(٢) — « باشا مصر » : في ذلك الزمان هو محمد علي باشا مؤسس الأسرة العلوية (الخديوية) . وكان الغربيون يسمون الحاكم في المقاطعات العثمانية بلقبه: « باشا » ، فيقولون : باشا مصر وباشا حلب وباشا بغداد الخ ... أي : حاكم مصر ، وحاكم حلب ، وحاكم بغداد .

أدخل حكم محمد علي العلم والتنظيم إلى مصر ، وأوجد نهضة مباركة ، وحلم بأن يصير سيد الشرق العربي ، ولكنه سطا على الفلاح المصري وزاد في بؤسه . تاريخ الحكّام يعدّه من أدهى رجاله ، ولولا الحروب التي بذّر الأموال عليها لكانت مصر قد صارت جنة .

(٣) — اردكنضه Erdkunde : كتاب ضخم بالالمانية في علم الأرض وعلاقة هذا العلم بالطبيعة وتاريخ الانسان ، أو : « الجغرافية المقارنة العامة على كونها أساساً وطيداً للدراسة والاستعلام في العلوم الطبيعية والتاريخية » .

وضع هذه الموسوعة المؤرخ الجغرافي ، الرائد ، كارل ريتّر (أنظر ترجمته رقم ٢٠ في هذا الملحق) وبدأ نشره من سنة ١٨٢٢ حتّى سنة ١٨٥٩ التي توفي فيها . وقد تناولت الأجزاء الأولى من الاردكنده دراسة القارة الاسيوية — وفيها العالم العربي الذي رآه كارل ريتّر من أفضل أجزاء هذه القارة — وعاشت هذه الموسوعة إلى أواخر القرن التاسع مرجعاً جغرافياً محترماً جدا . (*)

(٤) — تَبوك : قال ابو زيد: « تبوك بين الحِجْر (بكسر الحاء) وأول الشام ، على أربع مراحل من الحِجر نحو نصف طريق الشام وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي (صلعم) . ويقال ان أصحاب الأيْكة الذين بُعث اليهم شُعيب ، عليه السلام ، كانوا فيها . ولم يكن شعيب منهم وانما كان من مَدْيَن . ومدين على بحر القُلْزُم (البحر الاحمر) على ست مراحل من تبوك . وتبوك بين جبل حِسْمى وجبل شَرورَى » .

وقال ابن جابر : « توجّه النبي (صلعم) في سنة تسع للهجرة إلى تبوك من أرض الشام ، وهي آخر غزواته ، لغزو من انتهى اليه انه قد تجمع من الروم وعاملة ولخم وجُذام ، فوجدهم قد تفرقوا فلم يلق كيدا . ونزلوا على عين فأمرهم رسول الله (صلعم) ان لا أحد يمس من مائها ، فسبق اليها رجلان وهي تبضّ بشيء من ماء فجعلا يدخلان فيها سهمين ليكثّر ماؤها فقال لهما رسول الله (صلعم) : « ما زلتما تبوكان منذ اليوم » فسميت بذلك تبوك . والبوك : ادخال اليد في شيء وتحريكه . وركز النبي (صلعم) عنزته فيها ثلاث ركزات فجاشت ثلاث أعين ، فهي تهمي بالماء حتّى الآن . وأقام النبي

(*) وقع خطأ مطبعي في كتابة Erdkunde في بعض مواضع فالمرجو تصحيحه .

(صلعم) بتبوك أياماً حتى صاخه أهلها . الخ ... » (معجم البلدان لياقوت : دار صادر وبيروت : ج ٥ ، ص ١٤) .

وسميت غزوة تبوك بغزوة العسرة لقوله تعالى : « والذين اتبعوه في ساعة العسرة » . وتعرف أيضا بالفاضحة ، لافتضاح المنافقين فيها . (القلقشندي في « نهاية الارب » ـــ طبعة مجلة « البيان » النجفية ، ص ٤٢٨) .

وقال عبد الله فيلبي :

« ... وقد وجدتُ في أحد النقوش على مدخل القلعة (قلعة تبوك) الرئيسي عبارة تقول : « جُدّدت وأصلحت هذه القلعة المباركة بناءً على أمر صاحب الشرف السلطان ابن السلطان ، السلطان محمد خان ابن السلطان ابرهيم خان ابن السلطان ... عثمان حفظ الله ملكه ... طول الزمان ... وقام على تجديدها العبد لله القدير محمد بن ... من دمشق الشام غفر الله له ، في السنة الرابعة والستين بعد الألف للهجرة » (١٦٥٤ م .) ـــ « ارض الأنبياء » ـــ ص ١٦٣ ـــ ترجمة عمر الديراوي . بيروت .

(٥) ـــ أذرح: قال ياقوت : أَذْرُح من أعمال الشراة ، قبلي فلسطين . فيها كان أمر المحكمين بين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص . قال ذو الرمّة يمدح ابن أبي موسى :

أبوك تلافى الدين والناسَ بعدما تساؤا ، وبيتالدين منقطع الكِسْرِ
فشدَّ إصارَ الدين أيام أَذْرُحٍ وردّ حروباً قد لقحنَ إلى عُقُر

(٦) ـــ الكَرَك : مدينة في شرقي الاردن . ذكرها ياقوت بأنها « قلعة حصينة جداً في طرف الشام ، من نواحي البلقاء في جبالها ، بين أَيلة (العقبة) وبحر القُلْزُم (البحر الأحمر) وبيت المقدس . وهي على سنّ جبل عالٍ تحيط بها أودية إلاّ من جهة الربض » . ـــ معجم البلدان : ١٦ ، ص ٤٥٣ .

والكرك قديمة جداً كانت عاصمة مملكة مؤاب في عهد قائدها مشع بن

لكموش ، وهو ملك عظيم رفض الخضوع لاسرائيل وحاربها . وقد ذكرته التوراة في سفر الملوك الثاني .

ثم صارت الكَرَك بلدة رومانية ومركز مطرانية . استولى المسلمون عليها صلحاً بقيادة عمرو بن العاص . وفي الحروب الصليبية جُعلت أمنع معقل فرنجي على الجانب الشرقي للاردن والبحر الميت . سكنها الملك بلدوين الرابع . تاريخها في تلك الحروب لا يقل شأناً عن تاريخ اختها الشوبك . (أنظر رقم ٩ في هذا الملحق) .

في حكم المماليك ، وهو عنوان الفوضى ، جعلوها ملجأ أو سجنا للسلاطين والأمراء .

ثارت على احتلال ابرهيم بن محمد علي باشا والي مصر .

في أواخر القرن التاسع عشر صارت متصرفية مرتبطة بوالي دمشق ، وتضم أقضية العقبة ومَعان والطفيلة وناحية تبوك .

بعد انسحاب الأتراك من البلدان العربية (١٩١٨) استرجع المجالي في الكرك سطوتهم عليه (مقتبسة من «تاريخ شرقي الأردن وقبائلها ») .

(٧) — جُبّة : بالضم ثم بالتشديد ، تنسب إلى أذْرُح . قال كثير :

وإنك عمري هل ترى ضوءَ بارق
عريض السنا ذي هَيْدبٍ متزحزحِ
قعدتُ لـــه ذات العشاء أشيمُـــه
بمرٍّ ، وأصحـــابي بجُبَّـــة أذْرُحِ

وفي الشرق جُبّات (او جبب) كثيرة ، ذكر ياقوت منها سبعا . وفي لبنان الشمالي جُبّة تعرف باسم جبة بشرّي ، فيها جبل الأرز ومصايف رائعة .

(٨) — السُّيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري .

ولد سنة ١٤٤٥ م . في القاهرة ونشأ يتيماً . نبغ في التفسير والحديث والفقه والنحو والبيان والبديع واللغة والتاريخ .

سافر إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب ، باحثاً دارساً مستطلعاً حتى جمع العلوم من أطرافها .

لما بلغ الأربعين اعتزل الناس في منزله على النيل منصرفاً إلى الكتابة . « وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردّها . وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر اليه ، وأرسل اليه هدايا فردّها » .

انافت مؤلفات السيوطي على ٥٥٠ جزءً بين كتاب كبير ورسالة صغيرة ، منها :

« طبقات الحفّاظ » و « طبقات المفسرين » و « الاتقان في علوم القرآن » و « الازدكار في ما عقده الشعراء من الآثار » و « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » و«تاريخ الخلفاء» الخ ...

توفي السيوطي سنة ١٥٠٥ م . في القاهرة . من تلاميذه : المؤرخ المصري ابن اياس مؤلف « بدائع الزهور في وقائع الدهور » .

(٩) — **الشَوبك:** (في المملكة الاردنية) « قلعة حصينة بين عمّان وأيلة (العقبة) والقُلْزُم (البحر الاحمر) قرب الكَرَك ». وذكر التنوخي : ان يقدور الذي ملك الفرس سار في سنة ٥٠٩ إلى بلاد ربيعة من طيء ، وهي ياق والشراة والبلقاء والجبال ووادي موسى ، ونزل على حصن قديم خراب يعرف بالشوبك بقرب وادي موسى ، فعمّرهُ ورتّب فيه رجاله ، وبطل السفر من مصر إلى الشام بطريق البرية مع العرب بعمارة هذا الحصن » — معجم البلدان (١٢ : ٣٧٠) .

وفي الحروب الصليبية استولى الاجانب على جنوبي‌شرقي الاردن ورمموا قلاعه،

ومنها قلعة الشوبك التي سميت بكرك دي مونرويال (*) وصار لها شأنها في تلك الحروب.

وعلى مقربة ميل واحد منها خرائب الحوص (العيس) موطن النبي أيوب .

جدّد الملك الناصر بن قلاوون بناء قلعتها .

في سنة ١٩٠٥ ثارت الشوبك على حامية القلعة ففتكت الحكومة العثمانية بأهليها فتكاً ذريعاً .

من أهم عشائر الشوبك اليوم : الشقيرات والهباهية. والرفايعة والملاحيم والغنيميون والطورة (بتصرف عن « تاريخ شرقي الاردن وقبائلها) .

(١٠) — يوهان لودفيغ بوركهاردت: Johann Ludvig Burckhardt:
عالم ، مستعرب ، فقيه ، رحّالة ، سويسري المولد ، انكليزي المصير ، مسلم الآخرة . ولد في لوزان (١٧٨٤) ودرس العربية ومبادىء الدين الاسلامي في المانية وانكلترة ، معدّاً نفسه لاستكشاف المجهول في العالم العربي .

سنة ١٨٠٩ حققت الجمعية الافريقية البريطانية في لندن أمنيّته وسافر بنفقتها ، متنكرا باسم الشيخ ابرهيم بن عبد الله ، زاعما أنه تاجر مسلم من الهند — وفي قولٍ إنّ اسلامه كان صادقا » لا مطية لمأرب — فزار سورية ولبنان وفلسطين والحجاز ومصر وبلاد النوبة . اليه يرجع الفضل في اكتشاف الآثار الرومانية في مدينة البتراء (مدائن صالح) من أعمال شرقي الاردن فذاع صيته مكتشفا من الدرجة الاولى .

في طوافه بالعالم العربي ازداد تضلعا من اللغة العربية وعلوم الدين الاسلامي ووفر اختزانه من بحرهما حتّى صدق العلماء اسلامه . وهو أول « مسيحي » وصف مناسك الحج وصفا كاملا وصحيحا . وكذلك كان ما كتبه عن مكة المكرمة والمدينة المنورة اللتين أقام فيهما . وقد رأى في البداوة النبل والشهامة . وأحبّ البدو وفضّلهم ، في حالات كثيرة ، على الحضريين في الشرق والغرب ،

(*) — Kerak de Montroyal

مؤكدا ان العربي (البدوي) هو أريحي مُنجدِ ، يُستجار به فيلبيّ فيما اذا روعيت كرامته . (ومثله رأى الرحالة ڤالين مؤلف كتابنا هذا .)

أعجب بوركهاردت اعجابا شديدا بمحمد علي والي مصر « الحاكم المسلم المتسامح » ، بعد أن قربه الباشا منه وشمله برعايته . وبدأت اليوم بعض وثائق مكتشفة حديثا تكشف عن ملامح في تلك العلاقة فتقول ان الرّحالة عمل مستطلعاً حال الحجاز وبلاد النوبة لمصلحة محمد علي الطامع بالاستيلاء على العالم العربي... والثابت ، أيضا ، ان بوركهاردت عمل في خدمة الانكليز الذين أوفدوه في رحلته. ولم يكن ثمة ما يحول دون ذلك الاستطلاع المزدوج لان محمد علي كان يومها يغازل الاستعمار الانكليزي ، وهو الذي ساعد الرّحالة على الحج إلى بيت الله الحرام فكتب بوركهاردت بالانكليزية البليغة أروع ما كتب في وصف مناسك الحج ، وموسمه ، وعاداته ، وتقاليده ، وحجاجه .

توفي بوركهاردت في خريف ١٨١٧ في القاهرة ، مؤمنا مسلما ، ودفن في القرافة الكبرى بنفقة صديقه محمد علي باشا بعد أن صلي عليه في مسجد الازهر ومشى في جنازته العلماء وكبار موظفي الوالي مشيعين عالما تقيا خسره أصدقاؤه المسلمون والعرب .

كتب بوركهاردت ، بالانكليزية ، كثيرا عن العالم العربي ، ولعله أغزر كتّاب زمانه في ذلك. ووضع مجلدات عن أسفاره طبع منها بعد وفاته الكتب الآتي بيانها :

١) « رحلة في سورية والأرض المقدسة »

٢) « رحلات في الجزيرة العربية »

٣) « ملاحظات عن البدو »

٤) « أمثال عربية »

وترك مذكرات وشروحا قيمة لا تحصى ، وترك أيضا مخطوطات نفيسة وكتباً نادرة اشتراها من مختلف المدن العربيـــة التي أقام فيها ، وقد أوصى بها بعد وفاته لمكتبة جامعة كامبريدج .

قلنا : قد يختلف ، اليوم ، في تقدير روعة ما كتبه بوركهاردت عن العرب وبلادهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، ولكنه لا يختلف ، ولن يختلف في كونه أول من توقع — وكان ذلك في مطلع القرن التاسع عشر — ان الحكم التركي سيزول من الحجاز ، وان العرب سيستقلون . (اقتبسنا بعض سيرته من كتاب « ارتياد العربية » لكيرنان) .

(١١) — الحويطات: هذه رواية اخرى عن أصلهم رواها اللفتنت كولونيل فردريك ج . بيك في « تاريخ شرقي الاردن وقبائلها » :

« يحتل الحويطات القسم الجنوبي من شرقي الاردن منذ عدة عصور وقد جاء عنهم في كتاب The Handbook of Arabia ما يلي :

« يدعي الحويطات أنهم شرفاء النسب ، أي أبناء النبي من ابنته فاطمة ، لكن قيل عنهم ما يسترعي ويستوجب الدرس والتمحيص ، أي أنهم من بقايا الانباط الذين كانوا مسيطرين على طرق القوافل إلى اليمن — طرق تجارة البهارات — وكانت عاصمتهم بطرا على بعد بضع ساعات من غربي معان . »

والحقيقة التي لا جدال فيها هي أن الحويطات لم يتمكنوا بعد من إثبات نسبهم الشريف الذي يدعونه ، وقد وصلتنا القصة الآتية عن نسبهم واصلهم :

مرّ ثلاثة حجّاج من العقبة قادمين من الحجاز بطريقهم إلى القدس وكان يرافقهم ولد صغير . يقول الحويطات ان هؤلاء الحجاج كانوا من الأشراف ، أما أعداؤهم فيقولون انهم كانوا من قبيلة هتيم الوضيعة . ولما كانوا في العقبة مرض الولد ولم يتمكن من متابعة السفر فعهدوا بتطبيبه والاعتناء به إلى أسرة عربية كانت تسكن هناك .

ترعرع الولد في أحضان هذه الأسرة وتعلق بها ولما رجع صحبه من القدس أخفي الولد وقيل لهم إنه مات . انطلت عليهم هذه الكذبة وذهبوا إلى أوطانهم غير عالمين أنهم تركوا وراءهم جداً لقبيلة كبيرة لا تزال تتخبط في تعيين نسبها وضبط أصلها .

كان اسم الولد غازي ، واسم ربّ الأسرة الّتي تعهّدته معاذ ، جد قبيلة بني عطيه . توفي معاذ عن ثلاثة أولاد ، وهم : عطيه وعقيلان وخميس .

ولما كبر غازي تزوج ابنة عطية بن معاذ الخ ... (ص ٢٢٨) .

قلنا : وفي الحرب العالمية الاولى كان شيخ الحويطات الشيخ عوده أبو تايه الذي قام بدور جريء في الثورة العربية على الحكم التركي . « فكانت خدماته للحلفاء تفوق الحصر » (**فردريك ج . بيك** : ص ٢٣٣) .

(١٢) — الحُمَيمة : «يرى موسل MUSIL ان«الحميمة»هي مدينة AUARA النبطيّة، ويشير إلى روايةتأسيسها الّتي ذكرها اورانيوس URANIUSواسطيفان البيزنطي . وخلاصتها ان « حارثة » ابن ملك الانباط حلم ان والده سينشيء مدينة AUARA ، من كلمة «حوراء» أي البيضاء . فلمّا قص حارثة حلمه على والده ، أخذ يفتش عن موضع أبيض ينشيء عليه المدينة . وبينما كان يفتش عن هذا الموضع تراءى له شبح رجل أبيض على جمل أبيض استخفى فجأة . فلمّا دنا من مكان الشبح وجد بقايا شجرة ذات عروق ممتدة فأمر أن يكون موضع حوراء » — رواه الدكتور جواد علي في « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام »: ج ٣ ، ص ٤٠ — بيروت ١٩٦٩ .

قلنا : والأب موزيل الذي استشهد به الدكتور جواد علي كاهن من تشيكوسلوڤاكية ، درس اللغة العربية عند الاباء اليسوعيين ببيروت وعاش سنين طويلة في لبنان وجعل منه منطلقاً إلى رحلاته الدراسية في الجزيرة العربية ، فكتب عن قبائلها أبحاثاً قيمة . ولد سنة ١٨٦٨ وتوفي سنة ١٩٤٤ ، وقد عرفناه عالمـاً جغرافية العربية وأحببنا فيه وداعته واخلاصه للعلم .

(١٣) : الجَوْف : المطمئن من الأرض . اسم واد في أرض عاد ، فيه ماء

وشجر ، حماه رجل اسمه حِمار بن طويلع كان له بنون خرجوا يتصيدون فأصابتهم صاعقة وماتوا ، فكفر أبوهم كفرا عظيما قائلا : « لا أعبد ربّاً فعل بي هذا الفعل » — العياذ بالله العظيم ! — ثم دعا قومه إلى الكفر فمن عصى منهم قتله وقتل من مرّ به من الناس ، فأقبلت نار من أسفل الجَوف فأحرقته ومن فيه وغاض ماؤه ، فضربت العرب به المثل وقالوا : « اكفر من حِمار ، وواد كجوف الحمار » (عن ياقوت ، باختصار) — وهنالك جوف في اليمن ، وجوف آخر غير الذي يذكره فالين .

(١٤) — كارستن نيا بوهر (نيبور) : (١٧٢٣—١٨١٥) Carsten Niebuhr

عالم ، مهندس ، مستعرب ، رحالة الماني . أتيح له أن يكون أحد علماء البعثة الاستكشافية التي رعاها وأوفدها (١٧٦٧) فريدريك الخامس ملك الدانمارك إلى شبه جزيرة العرب لدرس مناطقها وأراضيها ومياهها ونباتاتها ومناخاتها ولهجاتها ، ولكل ما له علاقة بالكتاب المقدس .

وكان نيابوهر يعرف بعض العربية فلما وصل إلى اليمن تعرّف إلى رجل ماروني من جبل لبنان علمه لهجة البلاد العامية مما ساعده كثيراً — إلى كونه يرتدي الزي الشرقي ويسافر على حمار — على مقاربة الناس والاتصال بهم والتحدث اليهم دون أي حذر . ولكن هذا كله لم يمنع من أن تلقى البعثة عذابا ومشاق لا توصف حتى مات جميع رجالها الخمسة وهم علماء وفنانون ومات خادمهم ولم يبق الا نيبور الذي وضع بالالمانية كتابا قيّما عما رأته ودرسته البعثة عنوانه : « رحلات خلال جزيرة العرب » في ثلاثة مجلدات ، وترجم إلى الفرنسية والانكليزية وأحدث دوياً في عالمي الاستشراق والاستكشاف لأنه كان أول دراسة موضوعية علمية تناولت حالات عالمنا العربي وبسطتها بدقة وامانة وفهم ، وامتازت بأنها باكورة الكتب الرصينة التي وضعها في ذلك الماضي الضيق الافق ، مؤلّفٌ مسيحي عن العرب والاسلام ولم يَبدُ متعصبا ، ولا مخاصما ، ولا متحاملا ، بل كان يقظا بعيدا عن روح الرحالين الاسبقين

الذين عرفتهم القرون الوسطى – في الشرق والغرب – قصيري النظر وضيقي الصدر وصغيري الفكر .

وكذلك امتاز نيبور بأنه أول كاتب توقع النجاح للحركة الاصلاحية الاسلامية التي نادى بها المسلم العظيم الامام الشيخ محمد عبد الوهاب واشتهرت باسم « الوهابية » – هكذا أسماها الاتراك وحليفهم محمد علي (والي مصر) للتقليل من شأنها الاصلاحي – فأنصفها نيابور مدفوعاً بايجابية العالم المتفتح العقل وقال عنها إنها من المحتمل أن تزداد نفوذا في بلاد العرب . وبقي كتاب نيبور ما يقرب من دهر ونصف الدهر المرجع الوحيد الامين لمن رغب في معرفة شيء صحيح عن العرب والمسلمين . وصحيح ان الظروف لم تسمح لنيبور بان يعرف كل شيء عن العالم العربي ولكن الذي عرفه وكتبه موضوع ثقة وتقدير . (اقتبسنا بعضه عن كيرنان في كتابه : « ارتياد العربية ») .

(١٥) – اولريش ياسبر زيتسن Ulrich Jasper Seetzen : طبيب ، عالم ، مهندس ، مستعرب ، رحالة الماني ، ولد سنة ١٧٦٧ ودرس في جامعة غوتنغن الشهيرة بمستشرقيها . اتقن علوم النبات والحيوان والفلك . عين عضوا في جمعية الأبحاث الطبيعية في كل من برلين وڤيانّة . رحل سنة ١٨٠٢ إلى الشرق العربي بمساعدة الدوق فون غوتا صاحب مجلة « الرسالة الجغرافية والفلكية » ، وهو الذي شجعه ورعى رحلته . وكان مقررا أن يذهب زيتسن من مصر إلى اكتشاف منابع نهر النيجر في افريقية الغربية – امنيّة أكثر الرحالين المستكشفين في ذلك الزمان – ولكن أرض اليمن جذبته اليها واستبقته فيها .

اتقن زيتسن العربية في سورية ولبنان وفلسطين ومصر ، ومكث في هذه الأقطار سبع سنوات يتجول في مدنها وقراها دارسا آثارها وطبيعتها متخذاً اسم الحاج موسى اسماً له . ثم أعلن اسلامه (تموز ١٨٠٩) وسافر إلى جُدّة فمكة المكرمة حاجا ، ورسم الكعبة رسما دقيقا كاملا وتابع سفره إلى صنعاء وعدن فجبال اليمن . ولسوء حظ الارتياد العلمي قتل زيتسن في آخر سنة ١٨١١ في بلدة تعز مسموما بأمر من الإمام المتوكل على الله أحمد بن علي العباس

الذي ارتاب في دينه وفي مهمته بعد أن بلغه انه ساحر . (وكتبت شؤون كثيرة في اغتياله) .

والذي لا ريب فيه هو أن أولريش ياسبر زيتسن يعتبر أول رحالة كشف عن الكتابة الأثرية الحميرية ، وان قتله أخسر الاستكشاف العربي رائدا ذكيا وشجاعا . (اقتبسنا بعضه عن كيرنان في كتابه « ارتياد العربية ») .

(١٦) — الدكتور روبنسون (ادوار): عالم أميركي ، دكتور في الفلسفة وفي اللاهوت . ضليع باللغتين العبرية واليونانية القديمة . تخصص بدرس الآثار المسيحية (المقدسة) في المشرق ، ولا سيما في فلسطين ، وتعمق بتفسير نصوص التوراة والانجيل . زار سنة ١٨٣٨ لبنان وسورية وفلسطين وجوارها ووضع عن رحلته كتاباً جغرافياً وتاريخياً قيماً بعنوان « التفتيش عن الآثار التوراتية في فلسطين والأقطار المجاورة » بسط فيه مشاهداته وشروحاته وتعقيباته بسطاً وافيا وطبعه في وقت واحد (١٨٤١) في الولايات المتحدة الاميركية وانكلترة والمانية في ثلاثة أجزاء ، فأحدث صدوره اهتماماً بالغاً في جميع الاوساط العلمية التي تعنى بهذا الموضوع في العالم . ثم رجع الدكتور روبنسون إلى المشرق بعد أربع عشرة سنة من زيارته الاولى وكتب بحوثاً جديدة ذات آراء جريئة ... وقد يكون من أهم مؤلفاته كتابه « المكتبة المقدسة » BIBLIOTHECA — SACRA الذي صار مرجعاً لمن يعنى بموضوعه . (١٧٩٤ — ١٨٦٣) .

(١٧) — « تمرد مارد وعزّ الابلق » : مَثَل يُضرب لكل ما يمتنع عن صاحبه . ويبدو ان رحالتنا قالين لم يفهم معناه . أما « مارد » فهو حصن أُكَيدر في دومة جندل ، والابلق حصن منيع آخر في تيمــاء يخص الشاعر الشهير السموأل ، وقد وصفوه بالابلق لأنه بني بحجارة مختلفــة الألوان . ورووا ان الملكة الزباء قصدت الحصنين ولم تقدر عليهما ، فقالت: « تمرد مــارد ، وعزّ الابلق ! » — « فرائد اللآل في مجمع الامثال » ، لا برهيم الاحدب —

ج ١، ص ١٠٥ ، المطبعة الكاثوليكية ببيروت.

وقال في محيط المحيط (ص ١٢٥) : « الابلق الفرد حصن للسموأل إبن عادياء اليهودي مبني من حجارة بيض وسود ، قيل بناه أبوه ، وقيل سليمان، والأول هو الصحيح بدليل قوله :

بنى لي عاديا حصنـاً حصينـا وبئراً كلمـا شئـتُ استقيتُ

وكان له حصن آخر في دومة الجندل مبنٍ من حجارة سود ، قصدتهما هند بنت الريان الغساني (ملكة الجزيرة العربية) الملقبة بالزبّاء لكثرة شعرها ، فعجزت عنهما فقالت : تمرَّد مارد وعزَّ الابلق . فذهب قولها مثلا » .

(١٨) — **القلقشندي** : أبو العباس أحمد ، هو أحد أعلام عهد المماليك بمصر ومن أكثر مؤلفيهم إنتاجاً . ولد سنة ٧٥٦ ﻫ (١٣٥٥ م) . في قلقشندة (محافظة القليوبية) ، ويرجع نسبه إلى أصل عربي قح ، فأنه من بني بدر بن فزارة من قيس عيلان . وبنو فزارة من القبائل التي وفدت على وادي النيل في الفتح الاسلامي وبعده . نشأ أبو العباس في بلدته الأم وتلقى دروسه الاولى فيها ، ثم رحل إلى الاسكندرية طلبا للمزيد من العلم فنال أوفره من أشهر علماء عصره ، وتفقّه ومهر . ثم أخذ في تدريس علم الفقه ووضع كتابين في شرحه . ولم يلبث أن ذاع نبأه حجةً وبحراً في المعرفة فاختير كاتباً بديوان الانشاء في آخر سلطنة السلطان برقوق،الاولى . ثم ناب في الحكم . وديوان الانشاء يومئذ هو ديوان كتبة السلطان ، وهؤلاء معاونوه الأقربون وكتمة أسراره وأصحاب الدالة عنده في بعض الأحيان .

وفي ذلك المنصب وضع القلقشندي موسوعته الفريدة باسم « **صبح الاعشى في صناعة الانشا** » ، جمع فيها فاوعى ، اذ ملأها من كل فن خبراً ومن كل علم باباً ، باسطاً جميع ما يحتاج اليه الكاتب من ثقافة لاتقان صنعته ، وباسطاً جميع الأساليب الانشائية التي عرفتها الممالك الاسلامية مشرقاً ومغرباً. وخصّ مصر ، مسقط رأسه ، بالكثير من أبواب كتابه الضخم فنشر تاريخها بشمول وتناول سير حياتها في مختلف العصور فوصفها وصفاً جامعاً « لم يدع صغيرة

ولا كبيرة إلا ذكرها ، ولم يغادر شاردة ولا واردة إلاّ أحصاها ، فصار كتابه كتاب تاريخ وسِيَر ، ولغة وأدب ، وفقه وتفسير للقرآن والحديث ، وشرح للأمثال والحِكم العربية ، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة المصرية خاصة » (محمد عبد الرسول إبرهيم ، في التعريف بصبح الاعشى ، ج ١ ، ص ١٨) .

وصرف القلقشندي عشرين سنة تقريبا في وضع موسوعته هذه ، مستنداً إلى مصادر لا تحصى من الينابيع التي كتبها أعلام العربية والاسلام . ثم أوجز « صبح الاعشى » للذين لا يقوون على قراءة مجلداته الكثيرة واختصره بكتاب أسماه « **« ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر »** ، ولكن الموسوعة ظلت وحدها المعروفة المشهورة ، وظلت وحدها المرجع لكل باحث .

وقد أعادت الحكومة المصرية طبْع « صبح الاعشى » طبعاً علميا انيقاً وألحقته بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية ، فأحسنت صنعاً وكانت مشكورة .

وللقلقشندي كتاب آخر ذو قدر عظيم ، مثل الكثير من مؤلفاته ، اسمه « **نهاية الارب في معرفة أنساب العرب** »، رجع اليه الرحالة ڤالين مراراً في تنسيب القبائل التي ذكرها في كتاب رحلته . ولكن القلقشندي لم يكن ، على ما بدا ، شديد الارتياح إلى « نهاية الارب » فوضع كتاباً جديداً عنوانه « **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان** » ، استدراكاً على الكتاب الأول وعمل فيه يد الحذف والتصويب والزيادة حتى عُدّ في زمانه من أكمل المؤلفات في التنسيب العربي .

وتوفي أبو العباس القلقشندي ليلة السبت في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٨٢١ هـ . (١٤ من تموز ١٤١٨) وكان ، إلى علمه ، مفضالاً وقوراً ، وعلى تواضع ومرؤة وخير . رحمه الله .

(١٩) — هامر ، يوسف (من أسرة هامر پرغستال Hamer Purgstall النمسوية) ولد بڤيانّه سنة ١٧٧٤ ، شاعر ومؤرخ ومستشرق يتقن من اللغات

الشرقية العربية والتركية والفارسية . ترجم بعض أجزاء من القرآن الكريم . عين سنة ١٨٠٢ سكرتيراً للبعثة (السفارة) النمسوية في استنبول ومكث سنتين أطلع فيهما على مخطوطاتها القيمة . وفي سنة ١٨٠٧ ، وكان قد ذاع تمكنه من لغات الاستشراق الثلاث ، ألحق بالبلاط الملكي بفيانـة ترجماناً له .

في سنة١٨٤٧ أسس أكادمية العلوم واختير رئيساً لها .

أشهر كتبه : « تاريخ السلطنة العثمانية » في عشرة أجزاء ويعد من المصادر الرئيسية لمعرفة حوادث الشرق . ووضع كتابين آخرين عن « استنبول والبوسفور » في جزءين وعن « الدستور والادارة في السلطنة العثمانية » في جزءين . وله « علم البلاغة الفارسية » . عاش اثنين وثمانين عاماً محافظاً على قواه العقلية ، توفي سنة ١٨٥٦ .

(٢٠) —ريتر Karl Ritter : مؤرخ ، جغرافي ، ولد في كوادلينبرغ بالمانية سنة١٧٧٩ ونشأ يتيماً فلجأ إلى وجيه موسر منفرنكفورت اسمه Hollweg فأدخله جامعة مدينته حيث تخصص بالتاريخ والجغرافية ثم صار استاذاً فيها . وذاع صيته فنقل رئيساً لتدريس الجغرافية بجامعة برلين واستاذاً للتاريخ في الكلية الحربية (من تلاميذه فيها المرشال مولتكه الاب) .

وريتر أول عالم عالج أبحاثه الجغرافية على أسس فلسفية وتاريخية واقتصادية ، وأخرج « موضوع » الجغرافية من نطاقه البدائي الضيق (الكاتالوغ !) إلى ميادين « العلم » الحديث وجعله فرعاً كاملاً من فروع هذا العلم . وكارل ريتر من أوائل الرواد الذين قالوا إن طول السواحل الشاطئية في بلد ما من شأنه تسهيل الأسفار البحرية ، وهذه الأسفار تؤدي ، بالتالي ، إلى اتساع الاحتكاك الفكري بين الشعوب وإلى تبادل المعرفة والمصادر المادية (المواد الخام) والتجارة

له مؤلفات كثيرة أهمها وأضخمها موسوعته « اردكنده » (أنظر رقم ٣ في هذا الملحق) في تسعة عشر مجلداً . توفي سنة ١٨٥٩ .

ويعرف الاستشراق الالماني عظيماً آخر باسم ريتر هو Hellmut ريتر العالم بالمخطوطات الشرقية. وهو الذي دل إلى المخطوطات العربية القيمة فياستنبول .

(٢١) ــ أرمان بيار كوسان دي پرسڤال: مستشرق فرنسي ولد سنة ١٧٩٥ ودرس اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ثم صار استاذا فيها. « جال ثلاث سنوات في بلاد الشام وعكف على دراسة آثار العرب وتاريخهم قبل الاسلام »، ووضع في ذلك كتابا بثلاثة مجلدات أسماه:

Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme.

وهو الكتاب الذي استشهد به أوغست ڤالين مؤلف هذه الرحلة في كلامه على الحجاز.

ولكوسان دي پرسڤال هذا بحوث في تراجم الموسيقيين العرب، وأصلح القاموس العربي الفرنسي لبقطر وأعاد طبعه. (عن « الاعلام » بايجاز).

وكان والده جان جاك كوسان دي پرسڤال، مستشرقا هو أيضا، ولعله العامل الأول الذي شجّع ولده على اقتفاء أثره بعد أن قام بدور رئيسي في الاستشراق. ولكنه لم يملأ عين أحمد فارس الشدياق فسخر منه في « الفارياق » في فصل « ذنب الكتاب » ص ٩ و ٢٤.

(٢٢) ــ الصنم وَدّ : كان بوادي القُرى، بدُومة الجندل، وكان عامر الاجدار بن عوف القُضاعي سادناً له. ولما جاء الاسلام بعث الرسول (صلعم) خالد بن الوليد من غزوة تبوك لهدمه فحال السَّدَنة بينه وبين هدمه فقاتلهم خالد حتى قتلهم. ورأت والدةٌ ابنها بين القتلى فقالت:

ألا تلــك المــودةُ لا تــدومُ ولا يبقى على الدهر النعيمُ ...

وقالت:

يا جامعاً، جامعَ الاحشاءوالكبدِ يا ليت أمّك لم تولد ولم تلدِ

وهدم خالدٌ الصنم.

ووصفه مالك بن حارثة الاجداري، قال: كان أبي يبعثني باللبن إلى وَدّ قائلاً: إسقهِ الهك، فكنت أشربه. ثم رأيت خالد بن الوليد يكسره وجعله جُذاذاً ... وكان وَدّ تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، نُقش عليه حُلّتان، وهو مُتّزر بحلّة، مرتدٍ بأخرى، وعليه سيف قد تقلّده،

وتنكّب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء وجَعبة فيها نَبل » — عن « كتاب الاصنام » بتصرف ، ص ٥٥ ، تحقيق الاستاذ أحمد زكي باشا (المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩١٤) .

(٢٣) — ابو زياد : يزيد بن عبدالله الكلابي أديب عراقي عاش في أيام المهدي العباسي . له كتاب «النوادر» أخذ عنه ياقوت .

من شعره :

له نار تشبّ على يفاع ... إذا النيرانُ ألبست القناعا
ولم يكُ أكثر الفتيان مالاً ... ولكن كان أرحبهم ذراعا »

توفي سنة ٨١٥ م في قطيعة العباس بن محمد .

(٢٤) — قَنَا ، (وكُتبت قنى ، وعُرّفت) : جبل في شرقي الحاجز ، وجبل لبني مرة من فزارة . قال اسحق بن ابرهيم الموصلي : « وقف (الشاعر) نُصيب على بيوت واستسقى ماءً فخرجت اليه جارية بلبن وماء وسقته ، وقالت له : شبّبْ بي . فسألها : وما اسمك ؟ أجابت : هند . فنظر إلى جبل وسألها : وما اسم هذا العلَم ؟ قالت : قنا . فأنشد :

أحبّ قناً من حبّ هند ولم أكن ... ابالي ، أقرباً زاده اللهُ أم بعدا
أروني قناً أنْظُرْ إليه فإنني ... أُحبُّ قناً ، اني رأيت به هندا !

وشاعت هذه الأبيات وخطبت الجارية من أجلها » (عن « معجم البلدان » بتصرف) .

(٢٥) — « الخليج الفارسي » : الرحالون الاوروبيون والاميركيون — ومن بعدهم الكتّاب جميعا — أطلقوا خطأ على الخليج الذي بين الشواطىء العربية والايرانية اسم « الخليج الفارسي » أو « خليج العجم » أو « البحر الفارسي » —

وكلها تسمية غير صحيحة – والارجح في هذا الخطأ أن واحدا من الرواد الاولين عرف شاطىء الخليج الشرقي الذي استولى الفرس على بعض أرضه ولكنه لم يعرف شواطئه العربية ، ولا سيما التي في الساحل الغربي – جنوبي ايران – فوهم ان الخليج ، كله ، فارسي وأطلق عليه هذا الاسم الخطأ . وكان ان أخذ بهذا الوهم من كتب بعده عن الخليج . وحتى العرب بأكثرهم وقعوا في الخطأ .

أما كون التسمية خطأ وكون الخليج عربيا في أكثر شواطئه ، فحقيقة يثبتها التاريخ والجغرافية . وأول من أصاب وأعلن عروبته المؤرخ الروماني الأشهر PLINE سيد مؤرخي الغرب القديم ، فسمّى الخليج باسمه الحقيقي وأكّد أنه « الخليج العربي » .

وذُكرت هذه الحقيقة التاريخية في الخارطات الجغرافية الاولى التي وضعها العلماء الغربيون في القرون الوسطى . ونجد مجموعة منها معروضة في احدى قاعات الجمعية الجغرافية الفرنسية بباريس (شارع سان جرمان) تعرف باسم ناشرها ميركاتور MERCATOR مبتكر وضع مساقط الخرائط، ويرجع وضع احداها إلى سنة ١٥٩٥ وقد ذكر فيها اسم الخليج باسمه العربي « سينوس أرابيكوس »
SINUS ARABICUS

ونحن في هذا التصويب لا نمالىء السياسة ، ولا نقرب منها . ولا ننكر ان بعض الخليج في ساحله الشرقي يتصل بالأرض الايرانية ، الا اننا نحسن إلى الحقيقة في تصحيح الخطأ . ولا سيما ان الأراضي التي يكتب عنها الرحالة جورج أوغست ڤالين واضع هذا الكتاب انما هي عربية قحة ، في قلب العالم العربي ، فمن الصواب والحق أن ينعت خليجها بها .

وللبحاثة الاستاذ قدري قلعجي كتاب قيّم في هذا الموضوع اسمه «الخليج العربي » نشرته دار الكتاب العربي ببيروت سنة ١٩٥٦ ويُعدّ أكمل مؤلف في بابه حتى اليوم .

(٢٦) – يَبْرِين : هو رمل لا تُدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حَجْر اليمامة . وقال السكرّي : « يَبْرِين بأعلى بلاد بني سعد »

قال جرير :

لما تذكّرتُ بالديرينِ أرّقــني صوتُ الدجاج وضربٌ بالنواقيسِ
فقلت للركب اذ جَدّ الرحيل بنا يا بُعدَ يَبْرين من باب الفراديس

(٢٧) — الجوهري : أبو نصر اسماعيل بن حماد : ذكره الزركلي في « الاعلام » بقوله : « أول من حاول الطيران ومات في سبيله . لُغوي . من الأئمة . خطّه يذكر مع خط ابن مقلة . وله كتاب في العروض ، وكتاب في النحو . أصله من فاراب ودخل العراق صغيراً ، وسافر إلى الحجاز فطاف البادية . وعاد إلى خراسان ثم أقام في نيسابور . وضع جناحين من خشب وربطهما بحبل وصعد سطح داره ونادى في الناس : « لقد صنعت ما لم أُسبق اليه وسأطير الساعة . » فازدحم أهل نيسابور ينظرون اليه ، فتأبّط الجناحين ونهض بهما فخانه اختراعه فسقط إلى الأرض قتيلا . » (الاعلام : ١ : ٣٠٩) .

قلنا : وكانت وفاة الجوهري سنة ٣٩٣ هـ . (١٠٠٣ م .) ولم يذكر الزركلي تاريخ ولادته . وفي « النجوم الزاهرة »— عن مرآة الزمان ، وابن كثير — ان الجوهري مات ابن ست وسبعين سنة ، فيكون مولده سنة ٣١٧ هـ. (النجوم الزاهرة: ج ٤ ص ٢٠٨) .

له « الصحاح » ، وهو معجم مرتب على حروف الهجاء .

وأخطأ الاستاذ الزركلي في قوله ان الجوهري أول من حاول الطيران ... في حين أن الاستاذ ذكر في الجزء الرابع من «الاعلام» ان عباس بن فرناس المخترع الاندلسي المتوفى سنة ٢٧٤ هـ « أراد تطيير جثمانه فكسا نفسه الريش ، ومدّ له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة (...) فهو أول طيار اخترق الجو الخ ...» (ص ٣٧)

(٢٨) — اللقيطة : ضبطها ياقوت بكسر القاف وقال: « هي بئر بأجأ في

طرفه، وتعرف بالبويرة. وقيل: اللقيطة ماءٌ لغنيّ(*) بينها وبين مذ عايومان إلا قليلا.»

(٢٩) — الهيثم بن عدي : أديب ومؤرخ سوري عالم بالنسب ولد في منبج (٧٣٢ م.) وأقام بالكوفة وجالس الخلفاء المنصور والمهدي والهادي والرشيد وروى عنهم. قيل فيه انه من المدلسين. له تآليف كثيرة منها « بيوتات العرب » و «بيوتات قريش» و «نسب طيّء» و «تاريخ الاشراف» الخ... أخذ عنه كثيرون من كبار المؤرخين الذين جاؤوا بعده. توفي قرب واسط بالعراق سنة ٨٢٢ م.

(٣٠) — ابرهيم باشا : هو ابن محمد علي باشا مؤسس الاسرة العلوية التي حكمت مصراً مئةً وثماني وأربعين سنة. ابتداءً من ولاية المؤسس في ١٨٠٥م. وختاما بالملك الطفل أحمد فؤاد الثاني (١٩٥٣) ابن فاروق اللذين خلعتهما ثورة ٢٣ يوليو.

والافراد الذين تولوا من هذه الاسرة حكموا بارادة اجنبية عن مصر وعن الشعب المصري.

اشتهر ابرهيم باشا بمهارة استراتيجية وأعمال جريئة، وبحروبه في اليونان والحجاز ونجد والسودان وفلسطين ولبنان وسورية وتركية — ولا مصلحة للشعب المصري في واحدة منها — معتمداً على ضباط فرنسيين اقتبس منهم بعض نزعات أوروپية عصرية.

وحروب ابرهيم باشا في الحجاز ونجد — وهي مؤلمة جداً وقاسية ومؤسفة جدا — ضد الحركة الاصلاحية الوهابية، زاعماً أنها دفاع عن الاسلام (!) ولسلامة الحج، لم تكن أول اعتداء من محمد علي باشا على تلك البلاد وتلك الحركة، فقد سبق له أن جهّز لمحاربتهما حملة من ثمانية الاف ألباني من أشجع رجاله بقيادة ابنه طوسون باشا فانكسرت شرّ كسرة وقتل منها خمسة آلاف جندي في معركة الجديدة، ثم طارد « الاخوان » فلولها حتى ينبع.

ولم يكن محمد علي وابناه طوسون وابرهيم إلا ممتثلين أوامر السياسة

(*) — غني بن اعصر : بطن من قيس بن عيلان

التركية التي زعزعت الحركة الاصلاحية الوهابية نفوذها في الجزيرة العربية المترامية الاطراف . وقد بذلت استنبول ما في وسعها لترجع ذلك النفوذ إلى الجزيرة ، ولا سيما بعد أن استطاع البطل العربي ، الاصيل ، سعود الثاني أن يوحّد بلدانها حتى دانت له الجزيرة كلها ، فخاف الترك أن تستيقظ « العنصرية العربية » في مختلف أقطارها ويحيا الحكم العربي ، فأمروا محمد علي بالزحف على الجزيرة والقضاء على الدولة السعودية . ولبّى والي مصر رغبة استنبول ليكسب رضاها عنه ويبقى والياً على وادي النيل ، فدفع المسلمين إلى قتل المسلمين وخرب ديارهم ، وحلّ البلاء على الجميع !

(٣١) — تدمير الدرعية : في الثالث من شهر ذي القعدة ١٢٣٣ هـ . (٥ من أيلول ١٨١٨م.) بدأ الجيش التركي وجيش ابرهيم باشا بن محمد علي والي مصر هجومهما على الدرعية ، مقرّ الحركة الاصلاحية الوهابية ، واستبسلت المدينة طوال أربعة أيام في ردّ الغزاة عنها ودافعتهم دفاع الأسود حتى كاد أبناؤها يستشهدون جميعاً فأكرهت على الاستسلام. وفي شعبان ١٢٣٤ (حزيران ١٨١٩) أمر ابرهيم باشا جنوده بتدميرها وقطع النخيل فيها ، « فتحولت إلى ركام من الأنقاض وأصبحت بلقعاً وخراباً ، وتفرّق أهلها ... » — (صلاح الدين المختار في « تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها » : ج ١ ، ص ١٥٩) .

(٣٢) — ڤالين وآل الرشيد: الرحّالة ڤالين أحب الأمير عبد الله آل الرشيد حاكم شمر ، وأحب ولديه ، وأخلص لهم إخلاصاً صادقاً في ما كتبه عنهم . ويلاحظ القارىء أنه حاول دائماً أن يقلل من سلطان آل سعود عليهم ، لعله يستطيع اظهارهم أنهم زعماء « مستقلون ». إلا أن ڤالين لم يستطع النكران ان أصحابه تابعون — وإنْ إسمياً — للزعامة السعودية ، فكان بارعاً في التوفيق بين هواه والواقع .

(٣٣) — مؤلفات الشيخ محمد عبد الوهاب : ذكر ڤالين (ص ١٠٨) خمسة من مؤلفات الشيخ محمد عبد الوهاب. ولم ينقل عناوينها بنصها ، بل ترجمها بكلام يدل على مواضيعها . فرجعنا إلى « تاريخ نجد » للامام العلاّمة الشيخ حسين بن غنام — وهو خير من أرّخ للحركة الاصلاحية التي قادها المصلح الكبير — ونقلنا عنه أسماء المؤلفات التي ذكرها ڤالين . وهناك مؤلفات لم يشر اليها رحّالتنا وقد ذكرها الشيخ ابن غنام ، منها : « كتاب السيرة المختصرة » و « كتاب السيرة المطوّلة » و « كتاب مختصر الهدى النبوي ، الخ ..: ولم نجد بينها اسم كتاب « بساتين الاتقياء » الذي ذكره ڤالين بالانكليزية
The gardens of the pious.

(٣٤) — أسباب حملات محمد علي (باشا) على الوهابيين : قلنا في تعليق سابق (رقم ٣٠) ان تلك الحملات لم تكن إلا بأمر استنبول — ومن السلطان عينه — وقد البستها السياسة التركية طابعاً مذهبياً ، تحريضاً، في الظاهر ، على الدعوة الاصلاحية . ثم أثبتت الحوادث والأيامأن المحرّك الحقيقي لغضب الترك على الدعوة انما هو خوفهم من يقظة القومية العربية. فلم يكن محمد علي باشا ، والحالة هذه ، في حملاته التي أشار اليها ڤالين إلا منفّذ غاياتأجنبية ومطامع شخصية ، أهمها مشيئة السياسة التركية الحؤول دون انبعاث العرب . قال العالمان المصريان عمر الاسكندري وسليم حسن ، وهما يذكران في تاريخهما تلك الحروب المشؤومة ، انها : « في الحقيقة ، كانت حرباً بين العنصرين التركي والعربي ، وكلاهما يودّ لو يضعفالآخر أمامه فيميل عليه ميلة واحدة يكون فيها القضاء المبرم عليه .» — تاريخ مصر من الفتح العثماني ... ص ١٤٠ ، من ط ٥ ، مطبعة المعارف بمصر ١٩٢١.

(٣٥) — عباس الأول : هو ابن طوسون بن محمد علي باشا والي مصر. تسلم مقادير الحكم سنة ١٨٤٨ بعد وفاة عمه ابرهيم باشا . قتل سنة ١٨٥٤، وقيل في قتله انه بتدبير من أفراد أسرته لأنه كان يكرههم وقد أقصاهمعن

الحكم وطمع بالقسم الأكبر من ميراث جدهم محمد علي، فدفعوا خصيّين من خصيانهم قتلاه وهو نائم بقصره في بنها . وكتم النبأ بضعةأيام ثم نقلت جثته إلى القاهرة. قال عمر الاسكندري وسليم حسن في « تاريخ مصر من الفتح العثماني » ما ملخصه: ان عباس باشا بدأ حكمه بهدم كل ما بناه جده محمد علي ، فأنقص الجيش المصريوأغلق المعامل . وأغلق المدارس ، واستسلم للمطامع الانكليزية . امتاز حكمهبأنه أنشىء فيه أول خط حديدي في الشرق كله – وهو الممتد بين الاسكندريةوالقاهرة – امتثالاً لمشيئة حكومة لندن كي يسهل نقل البريد والمسافرينبين الهند وأنكلترة ، بطريق مصر . (ص ٢١٢ ، من ط ٥) .

(٣٦) – **الفيروزابادي ،** بكسر الفاء: الامام القاضي مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي ، المشهور بالفيروزابادي ، كان إماماً في اللغة والفقه والحديث والتفسير والتاريخ . ولد بقرية كازرون سنة ٧٢٩ هـ . (١٣٢٩ م) من أعمال شيراز في الجزء الجنوبي من ايران اليوم . درس في شيراز أولاً ثم في العراق والشام . وسافر إلى بلاد الروم (تركية) ومصر ومكة المكرمة والهند واليمن ، وحط رحاله عام ٧٩٦ هـ . في زُبيد عاصمة تهامة اليمن وهو ابن سبع وستين سنة فرحب به ملكها وسأله أن يفقّهه فوافق الفيروزابادي على طلبه . وكافأه الملك وعيّنه قاضياً ولقبه بمجد الدين اعجاباً بعلمه ، فأقبل عليه الطلاب من كل جهة وصار المقصد والمرجع والمفتي . عاش في زبيد اثنتين وعشرين سنة مكرماً محترماً حتى توفي في شوال من ٨١٩ هـ .

وضع الفيروزابادي كتباً ورسائل عالج فيها كثيراً من شؤون الدين واللغة والتاريخ ، منها : « سفر السعادة » في الحديث والسيرة النبوية ، و « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » و « تاريخ أصبهان » الخ... وأشهر كتبه معجم ضخم اسمه « القاموس المحيط » طبع في أربعة أجزاء . وفي قول أنه مختصر لمعجم أول وضعه في خمسة وستين جزءاً .

ولم يسلم « القاموس المحيط » من النقد، رغم استناد صاحبه إلى « صحاح »

الجوهري وغرفه منه و « تبجّحه عليه » ، وكان أقسى النقاد إمام العربية في عصره أحمد فارس الشدياق اللبناني الذي وضع فيه مجلداً ضخماً في ٦٩٠ صفحة من القطع الكبير ، أسماه « الجاسوس على القاموس »(*).

وعلى ما رآه جميع أئمة اللغة من نقص وخطأ في معجم الفيروزابادي — وهيهات أن يستطيع فرد واثنان وثلاثة في ذلك الزمان وضع معجم عربي كامل لأوسع لغة عرفها البشر — ففضل الفيروزابادي عظيم ، وأثره كريم ، رحمه الله !

(٣٧) — المدائني : أبو الحسن علي « راوية مؤرخ ، كثير التصانيف ، من أهل البصرة . سكن المدائن . ثم انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفي . أورد ابن النديم أسماء نيف ومئتي كتاب من مصنفاته في المغازي والسيرة ، النبوية وأخبار النساء وتاريخ الخلفاء وتاريخ الوقائع والفتوح ، والجاهليين ، والشعراء والبلدان . قال ابن تغري بردي : « وتاريخه أحسن التواريخ ، وعنه أخذ الناس تواريخهم » . بقي من كتبه « المردفات من قريش » (مطبوع » و « التعازي » (مخطوط) . ولد ٧٥٢ م . وتوفي ٨٤٠ م . —«الاعلام»: ٥: ١٤٠ (ط ٢) .

وفي « المنجد » : مؤلفاته العديدة من أهم مراجع تاريخ آسية الوسطى على أيام الفتوحات . عنه أخذ الطبري والبلاذري — ص ٤٨٧ .

(٣٨) — الواقدي : محمد بن عمر ، من أقدم المؤرخين في الاسلام. ولد بالمدينة سنة ١٣٠ هـ . تاجر بالحنطة وضاعت ثروته فانتقل إلى بغداد سنة ١٨٠ هـ . (٧٩٦ م) وتقرب من الخليفة الرشيد فولاه القضاء واستمر فيه أكثر من ربع قرن ، توفي سنة ٢٠٧ هـ . (٨٢٣ م) .

(*) مطبعة « الجوائب » في استنبول سنة ١٢٩٩ هـ . (١٨٨٢)

من مؤلفاته : « المغازي النبوية » و « فتح افريقية » و « فتح العجم » و « فتح مصر والاسكندرية » الخ ... وعرف بأنه صاحب « فتوح الشام » ولكن خير الدين الزركلي يقول ان « أكثره مما لا تصح نسبته اليه » (« الاعلام » : ٧ ، ص ٢٠٠ – ط ٢) . وقال الخطيب البغدادي : « كان الواقدي كلما ذكرت له واقعة ذهب إلى مكانها فعاينه ، وأشهر من روى عنه كاتبه محمد بن سعد » صاحب كتاب الطبقات الكبير . وقال محمد بن اسحق : « قرأت بخط عتيق قال : خلف الواقدي بعد وفاته ستماية قمطر كتباً ، كل قمطر منها حِمْل رجلين ، وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار » (الفهرست : ١ ، ص ٩٨) .

(٣٩) – ابن إياس : أبو عبد الله محمد بن احمد ، أبو البركات ، مؤرخ مصري من المماليك الجراكسة الاصل . ولد في القاهرة في الثامن من حزيران (يونيو) ١٤٤٨ وأخـذ عن العالم المصري جـلال الدين السيوطي . وضع تاريخ « بدائع الزهور في وقائع الدهور » في خمسة أجزاء وتناول في أكثرها تاريخ مصر المماليكية . وله أيضا « نشق الازهار في عجائب الاقطار » (لم يطبع منه إلا خلاصة) وهو الذي رجع اليه ڤالين في هذا الكتاب .

توفي ابن اياس سنة ١٥٢٤ بعد أن شهد في سنيه الأخيرة انقضاء حكم المماليك وسيطرة بني عثمان على أكثر بلاد العرب ، فدوّن ذلك كله في الجزء الأخير من « بدائع الزهور » .

(٤٠) – السبوت : عشيرة من العطيات المنحدرة من الجد الاعلى عطيه . وقد زحف ، تدريجا ، قسم كبير من مضاربهم في الحجاز إلى الشمال . ويقول فردريك بيك ان « بعض السبوت يقطنون بجوار الكرك (شرقي الاردن) وينقسمون فريقين : الاول . فريق البريكات وهم القرعان والروابين والرويعات والسواريا الذين منهم الشيخ حمد الفرحان . والفريق الاخر ، المراعية ، هم النجارات

والسلامات والمواسات والزله . » — تاريخ شرقي الاردن وقبائلها ، ص ٢٢٤ (مطبعة دار الايتام الاسلامية الصناعية بالقدس) .

ويقول القلقشندي في « نهاية الارب » ان السبوت « بطن من لبيد من سليم من العدنانية ، منازلهم في برقة » .

(٤١) — **الحِسْمى** : كذا أدخل عليها التعريف ، وفي جميع المراجع العربية التي بحثنا عنها فيها قرأناها بدون ال . ياقوت ضبطها بكسر الحاء وسكون السين والألف المقصورة . وهي جبال وأرض تنزلها جُذام . قال ياقوت : « ... ويقال : آخر ماء نضب من ماء الطوفان : حِسْمى ، فبقيت منه هذه البقية إلى اليوم . فلذلك هو أخبث ماء . وفي أخبار المتنبي وحكاية مسيره من مصر إلى العراق قال : « حِسْمى أرض طيبة تؤدّى لين النخلة من لينها وتنبت جميع النبات ، مملوءة جبالاً في كبد السماء متناوحة ملس الجوانب ، اذا أراد الناظر النظر إلى قلة احدها فتل عنقه حتى يراها بشدة ، ومنها ما لا يقدر أحد أن يراه ولا يصعده . ولا يكاد القتام يفارقها الخ ... » — (معجم البلدان ، ص ٢٥٩) .

(٤٢) — **السلطان سليم الأول** : هو تاسع السلاطين العثمانيين . تمرّد غير مرة على والده السلطان بايزيد بقوة الجنود الانكشارية الذين كانوا يناصرونه . وقد أرغموا السلطان الوالد على الاستقالة لابنه سليم فتولىّ هذا الحكم سنة ١٥١٢ وكان سفاكا للدماء قتل أبناءه وقتل سبعة من وزرائه . وحارب ايران وقصد احتلال العالم العربي فاستقبله سكانه بالولاء وبايعوه (١٥١٦) ولقّبه خطيب الجامع الاموي بخادم الحرمين الشريفين فبكى غير مصدق هذا الشرف . توفي سنة ١٥٢٠ بعد أن حكم ثماني سنوات وخلفه ابنه المعروف باسم السلطان سليمان القانوني .

(٤٣) — **جبل قطيفي** : لم نقع في ياقوت على هذا الاسم ، وانما هنالك

قرية باسم القطيف لجذيمة عبد القيس . قال الشاعر العبدي :

وتركنَ عنتَرَ لا يقاتل بعدهـــا   أهل القطيف قتالَ خيل تنفع

« ولما قدم وفد عبد القيس على النبي (صلعم) سألهم عن البلاد ، فقالوا له : هل دخلتها يا رسول الله ؟ فأجاب : نعم ، دخلتُ هَجَر وأخذت اقليدها (مفتاحها) » .

وڤالين يشير إلى جبل قطيفة ويذهب إلى أنه قد يكون اسم جبل أم سلمان الذي في جُبة (أنظر ص ٧٧ وما بعدها) .

(٤٤) — السپاهي : أو : سپاهي زاده ، محمد بن علي البروسوي ، أديب وجغرافي تركي شهير ، ولد ببروسة من أعمال تركية ، ولا تعرف سنة مولده . درس العربية بدمشق وألّف بها . له « انموذج الفنون » (لم يطبع) وله « أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك » ، وهو كتاب « تقويم البلدان » لأبي الفداء ، رتّبه السپاهي على الحروف الابجدية وزاد عليه وعدّل فيه . وهذا الكتاب لم يطبع ومخطوطه محفوظ في مجموعة ريش بالمتحف البريطاني بلوندرة تحت رقم ٧٥٠٥ . توفي سپاهي زاده سنة ١٥٨٩ في بروسة .

(٤٥) — احمد الدمشقي : أبو العباس أحمد بن يوسف القرماني ، المعروف بالدمشقي . أجمع الذين أرّخوا له على أنه ولد سنة ١٥٣٢ م بدمشق وعاش فيها ، وبلاده تبدأ حياتها بالسيطرة العثمانية بعد انقراض حكم المماليك . درس على علماء مدينته ودرّس في حلقاتها ومساجدها . وصفه المحبّي بأنه « كان حسن المحاضرة رقيق المعاشرة ، تولّى النظر (في دمشق) في وقف الحرمين . » (خلاصة الاثر : ١ ، ص ٢٠٩) . وضع كتاب « أخبار الدول وآثار الأوَل » في خمسة وخمسين جزءً مع مقدمة طويلة .

وجاء في « الاعلام » (١ : ٢٦١ ، ط ٢) أن الدمشقي ، هذا ، توفي سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠) ، وان له كتاباً آخر اسمه « الروض النسيم في مناقب

السلطان ابرهيم » لم يطبع . وإنْ صح هذا القول كان تاريخ وفاة الدمشقي خطأً : فالسلطان ابرهيم تولى سنة ١٠٤٩ هـ (١٦٤٠) وقتل خنقاً سنة ١٠٥٨ هـ . (١٦٤٨) . والمعقول أن يضع الدمشقي كتابه عن السلطان المذكور في إبّان حكمه ، على الاقل ، لا قبل توليه العرش بثلاثين سنة في الحد الادنى !

والارجح أن كتاب « الروض النسيم» وضعه « دمشقي » آخر غير القرماني.

(٤٦) — **السلطان سليمان القانوني** هو عاشر السلاطين العثمانيين، والثاني منهم على العالم العربي . خلف أباه السلطان سليماً على العرش سنة ١٥٢٠ وبدأ حكمه في الحروب ولم يرتح منها يوماً ، فكافح شرقاً وغربا ، واحتل المجر وايران ورودس وبغداد وعدن الخ ... وحذا حذو والده فقتل أبناءه وأحفاده ووزراءه . وكان إلى بأسه ضعيفاً أمام زوجته السلطانة روكسلان والدة ابنه سليم الذي خلفه على العرش . وطال حكم السلطان سليمان ستاً وأربعين سنة وبلغت السلطنة في عهده ذروة السؤدد والتوسع وصارت الدول تّهابها . من أخطائه الكثيرة منحه صديقه وحليفه فرنسوا ملك فرنسا امتيازات قنصلية صارت بعده شؤماً ووبالاً على الشرق كله ... كان يستهل كتبه إلى شيوخ العرب بالآية الشريفة : « إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » . توفي سنة ١٥٦٦ .

(٤٧) — **الانكشارية :** تحريف كلمة « يكيجاري » التّركية ، ومعناها : الجيش الجديد . وأفراده من الشبان أسرى الحرب ، كان السلطان يفصلهم عن كل ما يذكرهم بأصلهم ثم يربّيهم تربية اسلامية بحيث لا يعرفون لهم أباً إلا السلطان ، ولا حرفةً إلاّ الجهاد في سبيل الله . وصاروا المعول الاول عليهم في الحروب ، ولكنهم خرجوا مع الأيام عن حدودهم وتعدّوا واستبدوا وصاروا يخلعون السلاطين والوزراء ويقتلون من لا يرتاحون اليه ، وعاثوا في السلطنة العثمانية فسادا فقضى عليهم السلطان محمود الثاني (١٨٢٦) .

ومن طريف ما كتبه عنهم محمد فريد ، رحمه الله ، في « تاريخ الدولة

العلية العثمانية » ان ضباطهم كانوا « يُلقّبون بألقاب غريبة في بابها ، ولكنها تدل على أن أولئك الجنود كانوا عائشين من انعامات السلطان ، وأنهم كأولاده . فمن ألقابهم « شوربجي باشي » و « عشي باشي » و « سقا أغاسي » و « أوده باشي » إلى غير ذلك . وهذه الألقاب كانت عندهم بمثابة العنوانات الخاصة بالرتب العسكرية . ثم انهم كانوا يعظمون ويجلون القدور (جمع قدر) التي كانت تقدم اليهم فيها المأكولات ، فكان الانكشارية لا يفارقون تلك القدور حتى وقت الحرب ، وكانوا يدافعون عنها دفاع الجنود عن أعلامهم ، حتى كان يعتبر ضياعها في القتال أكبر اهانة تلحق بأصحابها العار والفضيحة . وكانوا اذا أرادوا إظهار عدم الرضى عن بعض أوامر رؤسائهم قلبوا القدور أمام منازلهم ... » — (ص ٤٢ ، ط ٣ ، مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر ١٩١٢) .

(٤٨) — ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي الشيباني ، المعروف بابن الأثير ، ولد سنة ٥٥٥ هـ . (١١٦٠ م) في جزيرة ابن عمرو ، على دجلة ، فقيل له : ابن الأثير الجزَري . (*) .

نشأ في بيت علم وحكم ووجاهة من الموصل . عاش محدّثا عالماً موثوقاً برأيه ومؤرّخا نقّادة موثوقاً بحكمه ، حتى ذُكر بأنه من أعظم مدّوِني أخبار العالم الاسلامي — ان لم يكن أعظمهم — وصارت موسوعته « الكامل في التاريخ » المرجع الرئيسي لجميع كتّاب الشرق والغرب . (انتهى بحوادث سنة ٦٢٨ هـ ١٢٣١) .

وكان ابن الأثير على خلق كريم وأمانة ودين عزَّ نظيرها . روى ابن الطقطقي عنه : ان السلطان صاحب الموصل كلّف أخا عز الدين أبي الحسن أن يذكر له أميناً ديّناً يكون موضعاً للسر حتى يرسله في مشافهة سرية إلى الخليفة في بغداد ،

(*) له أخوان عالمان أيضا ، عرفا مثله باسم ابن الأثير .

فأجاب الأخ : يا مولانا ، ما أعرف أحداً بهذه الصفة مثل أخي عز الدين فكلّفه السلطان أن يرسل أخاه اليه .

وحضر عز الدين وشافهه السلطان بالمراسلة وامره بالسفر حالاً . فذهب ابن الأثير يودّع أخاه ووجده في الدهليز ينتظره . فتلقاه هذا بالسؤال عن مهمته ، فقال عز الدين : « الساعة شهدت لي يا أخي عند السلطان بالدين والأمانة وحفظ السر ، فهل يجوز ان أكذّبك في الحال ؟ اني لا أقول شيئاً إلا لمن أمرني السلطان بأن أقوله له . »

فبكى الأخ ودعا لأخيه . » (*)

وامتاز ابن الأثير في كل ما كتبه بأنه كان فيه بحّاثة وازناً ومعقّباً ذا وجدان ، لم يكتف بنقل الأخبار وإنما قمّشها وحلّل أسبابها ، وأبدى رأيه في أصحابها بكثير من الانصاف . وانتقد الحكم الايوبي انتقاداً حقّاً وجريئا . فتلك الصفات العاقلة وضعته في المكانة الاولى بين المؤرخين الحقيقيين ، وجعلت « الكامل في التاريخ » موضوع تقدير المستشرقين والمستعربين .

وعاصر ابن الأثير الغزوة التترية الوحشية وبعض الغزوات الاوروبية المخجلة فكتب عنها كتابة الفاهم ، وإن هو أُخذ بانفعالات فيها ، وكيف لا ينفعل وهو انسان مسلم قبل كل صفة .

ولمؤرخنا عدة تواريخ قيمة أهمها « الكامل في التاريخ » وله « أُسْد الغابة في معرفة الصحابة » جمع فيه أسماء الابطال الذين رافقوا رسول الله (صلعم) ، واختصر كتاب « الانساب » للسمعاني (أنظر رقم ٥٠ في هذا الملحق) وسماه « اللباب في تهذيب الانساب » بعد أن « استدرك عليه في مواضع ، ونبّه على اغلاط ، وزاد أشياء أهملها » (*) . ووضع ابن الاثير أيضاً « تاريخ الدولة الاتابكية »

وأخطأ الرحالة ڤالين ونسب له كتاب « تحفة العجائب » (أنظر ص ١٧٤) ويبدو أن هذا الخطأ وقع فيه كثيرون منهم الاستاذ الزركلي صاحب « الاعلام » .

(*) — اعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب للدكتور صلاح الدين المنجد : ٣ ، ص ٦٨ .

وقد نبّه الدكتور صلاح الدين المنجد إلى ذلك في « اعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب » : ٣ ، ص ٧٦) .

(٤٩) ــ وادي القُرى : (بضم القاف) : من أعمال المدينة . سمي كذلك لأن الوادي من أوله إلى آخره كان قرى منظومة . وبعض آثارها ظاهرة . لما فرغ الرسول (صلعم) من خيبر امتدّ إلى وادي القرى فغزاه ونزل فيه . وفيه كانت مضارب بني عُذرة الذين اشتهر منهم الشاعر العاطفي الشهير ، جميل بن معمر . وقصة هيامه بحب نسيبته بُثَيْنة مدوّنة في كتب الادب . وقد نظم فيها أرق شعره وتناقلته الناس . منه قوله :

« أقول لداعي الحب ، والحِجر بيننا
وادي القُرى : لبّيكَ ، لما دعانيا ... »

وقال ياقوت : وفي وادي القُرى « منازل قضاعة ثم جهينة وعذرة وبلي ، يمر بها حاج الشام . وكانت قديماً منازل ثمود وعاد ، وبها أهلكهم الله . ونزل بعدهم اليهود واستخرجوا كظائمها (أقنيتها) من بطن الأرض وأساحوا (أجروا) عيونها وغرسوا نخلها ، فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفاً وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأُكلٌ في كل عام ، ومنعوها لهم على العرب ودفعوا عنها قبائل قضاعة ...

قال جميل :

ألا ليت شِعري هل أبيتَنّ ليلةً ... بوادي القُرى ؟ إني إذاً لسعيدُ
وهل أرَيَنْ جُملاً به وهي أيّمٌ ... وما رَثَّ من حبل الوصال جديد ! »

(٥٠) ــ السمعاني : ابو سعد عبد الكريم بن محمد المروزي، ولد سنة ٥٠٦ هـ . (١١١٣) في مرو بخراسان ، بلدة أبي مسلم الخراساني ، (من تركستان السوفياتية اليوم) وما أن شبَّ حتى رحل سائحاً وطالب علم في طول البلاد الاسلامية وعرضها ، فزار العلماء وأخذ عنهم ، وصار حجةً في التاريخ .

من أشهر كتبه « الانساب » ، وهو معجم تراجم طبع في ليدن (المدينة الهولاندية المشهورة بجامعتها ومدرسة الاستشراق) سنة ١٩١٢ ، و « تاريخ مرو » و « تذييل تاريخ بغداد للخطيب » الخ ... »

ونقل في « الاعلام » : قال ابن قاضي شهبة : « ان السمعاني له خمسون مصنّفاً ، منها كما نقل ابن النجار من خطه: التذييل على ابن الخطيب اربعمائة طاقة ، وتاريخ مرو خمسمائة طاقة ، والأنساب ثلاثمائة وخمسون طاقة الخ ... وقال الذهبي : يقع لي ان الطاقة نصف كراس » (بتصرف عن الاعلام : ٢٤ ص ١٧٩) .

واختصر ابن الأثير « كتاب الانساب » وجعل عنوانه « اللباب في تهذيب الانساب » .

توفي السمعاني سنة ٥٦٢ هـ. في بلدة مرو التي ولد فيها .

(٥١) — العُلا ، بضم العين : موضع في وادي القرى على الطريق إلى الشام. نزل الرسول (صلعم) محلة العُلا وهو يقصد تبوك وصلّى فيها وبني مكان مصلاه مسجد .

(٥٢) — ضبا : قرية صغيرة على البحر الاحمر كان الاوروپيون يقولون في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي : من احتل ضبا استولى على منطقة العقبة كلها وسيطر على منتهى جميع الطرق التي تأتيها من ولايتي سورية والحجاز وما اليهما ، ومن ملك العقبة ساد على البحر الاحمر . وكان ان نشبت في سنة ١٩٠٦ أزمة خطيرة بين حكومتي استنبول ولندن أقلقت الدول بسبب ضبا وجاراتها الوجه ومويلح والعقبة وحدود سيناء . وقيل في حل الازمة لمصلحة الانكليز انه خطوة من هؤلاء إلى « امتصاص » شبه جزيرة العرب كلها إذْ لا يَشقّ عليهم بعدئذ سَدُّ مدخل الخليج العربي في وجه سكة حديد بغداد (الالمانية) التي تهدد رغيفهم الحيوي في الهند . وكانت منطقة العقبة ، وسكة حديد بغداد ، والنفط العربي ، من أسباب الحرب العالمية الأولى .

(٥٣) — الحَرَّة : وجمعها : الحَرّات والاحرون والحِرار والحرون . قال الاصمعي : « الحَرَّة الأرض التي ألبستها الحجارة السود » . والحِرار في بلاد العرب كثيرة ، أكثرها حوالي المدينة إلى الشام . ذكر ياقوت منها تسعا وعشرين . (ص ٢٤٥ — ٢٥٠) .

(٥٤) — ثَمُود : احدى قبائل العرب البائدة قبل الميلاد . كانت تعيش في الحِجْر بين الحجاز والشام ناحتةً بيوتها في الجبال . في غزوة تبوك مر النبي (صلعم) على وادي ثمود فقال لصحبه : « اسرعوا السير فانكم في واد ملعون ! » .

وعن المسعودي ، بايجاز : بعث الله صالحا نبيا إلى ثمود فلم يجبه الا نفر قليل . وسألوه المعجزات وأظهروا أوثانهم وتحدّوه قائلين : « يا صالح ، ان كنت صادقا بانك معبّر عن ربك فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقة ، ولتكن وبراء سوداء عشراء ، نَتوجاً حالكةً صَهابية ، ذات عُرف وناحية وشعر ووبر . » فاستغاث صالح بربه فتحركت الصخرة وتململت ، وبدا منها أنين وحنين ، ثم انصدعت من بعد تمخّض شديد ، كتمخض المرأة حين الولادة ، وظهرت منها ناقة على ما طالبوه من الصفة ، ثم تلاها سَقْب (ولد الناقة ساعة يولد ، والكلمة خاصة بالذكر) . هو مثلها في الوصف . وأقامت الناقة يحلبون من لبنها ما يعمّ شربه ثموداً كلها ، وضايقتهم في الكلأ والماء فقتلوها مع سَقْبها . ونظر صالح ما فعلوه فوعدهم العذاب من ربه فقالوا له مستهزئين : « ومتى يكون ؟ » وأجابهم : « تصبح وجوهكم يوم مؤنس (يوم الخميس) مصفرةً ، ويوم عروبة (يوم الجمعة) محمرة ، ويوم شيار (يوم السبت) مسودة . ثم يصبحكم العذاب يوم أول»(يوم الاحد) . وقد صدق الوعيد ووقع العذاب بهم . وخرج صالح ليلة الاحد من بين ظهرانيهم مع من خفّ معه من المؤمنين ونزل موضع مدينة الرملة من أرض فلسطين .

وآثار ثمود باقية إلى يومنا ويقال لها مدائن صالح . وفيها اعتقل المغفور لهم الشهداء عبد الغني العريسي وعمر حمد وعارف الشهابي في الحرب العالمية الاولى

وسيقوا إلى سجن عاليه وأعدموا شنقا في السادس من نوار ١٩١٦ .

ولثمود تاريخ بالفرنسية هو الأول في بابه ، وضعه المستشرق اليسوعي ألبر ڤن د ن براندن وطبعته الجامعة اللبنانية (بيروت ١٩٦٦) ، وفيه أسانيد كثيرة ومراجع قيمة ، وآراء أثرية جريئة .

(٥٥) أَيْلَة : واسمها اليوم العقبة ، فُرضة على القُلْزُم (البحر الاحمر) من شواطىء المملكة الاردنية ، كانت قبل الميلاد في الأراضي السورية منذ الملك رصين (٧٠٠ ق . م .) وسكنها الانباط ، وهم عرب ، ثم احتلها الرومانيون .

في فجر الاسلام كتب الرسول (صلعم) إلى أميرها يوحنا بن رؤبة يعرض عليه الاسلام أو أن يدفع الجزية فاتاه يوحنا إلى تبوك بهدايا ثمينة ودخل عليه وعلى صدره صليبه الذهبي ، فبشّ (صلعم) له مرحباً . وفي تلك الزيارة كتب الرسول ليوحنا هذا العهد :

« بسم الله الرحمن الرحيم
هذه امنة من الله ومحمد النبي ورسول الله ليُحنّه ابن رؤبة وأهل أيلة : سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمّة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام واليمن وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثا فانه يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ماءً يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر . كتبه جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنه ، بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم في السنة التاسعة للهجرة . »

وفي ياقوت ، عن أبي زيد : أَيْلَة مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير . وقد خالف اليهود فيها دينهم واصطادوا السمك يوم السبت الذي حرّم فيه العمل

فمُسِخوا قردة وخنازير .

واشترط الرسول (صلعم) على يوحنا بن رؤبة في عهده له قِرى من مرّ بهم من المسلمين ، وقرّر على كل حالم بارضه في السنة ديناراً فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار . وكان عمر بن عبد العزيز لا يَزداد على أهل أيلة عن الثلاثمائة دينار شيئا .

فيها قوم يذكرون أنهم من موالي عثمان بن عفان .

ويُنسب إلى أيلة جماعة من الرواة ، منهم يونس بن يزيد الايلي صاحب «الزُهري» ، واسحق بن اسمعيل بن عبد الاعلى الايلي .

وفي رضوى بالحجاز جبل اسمه أَيْلَة .

(٥٦) — أبو الفداء : اسماعيل ابن الملك الافضل علي الايوبي ، من الفرع الايوبي الذي حكم حماة . ولد بدمشق سنة ٦٧٢ هـ . (١٢٧٣) . كان « جامعاً لاشتات العلوم ، ماهراً في الفقه والتفسير والأصلين والنحو والعروض وعلم الميقات والفلسفة والمنطق والطب والتاريخ . »

شارك من صغره ، بقيادة المماليك ، في مجاهدة الفرنجة لاخراجهم من الديار العربية وكوفئ على حسن بلائه باستعادة حكم حماة بعد أن كان قد خرج من بيته وتولاه أحد المماليك ، فعُيّن أبو الفداء على نيابة حماة وأصاب الخدمة فيها فرقي إلى سلطان عليها (٧١٢ هـ) وعُرفت حماة باسمه « مدينة أبي الفداء » .

من أهم آثاره : « **المختصر من أنباء البشر** » المعروف بتاريخ أبي الفداء ، استقاه من مؤلفات كبار المؤرخين الذين سبقوه (وكثيرون منهم فُقدت كتبهم فصار لتاريخه قدره) . وأما الاحداث التي جرت في عصره وقد اشترك في أكثر التي وقعت منها في محيطه فكتبها كلها كاشفاً عن تفاصيلها بكل دقة ، وكان لتأريخه لها شهادة العيان من رجل كبير عرف بالصدق .

ولأبي الفداء كتاب آخر هو « تقويم البلدان » في جغرافية العالم الاسلامي ، وفيه نصوص « من مؤلفات ليست بين أيدينا ، وهذه النقول تجعل للكتاب بعض

الاصالة والشأن(*) وقد اختصره أكثر من واحد ، أولهم الذهبي فمحمد السپاهي (أنظر رقم (٤٤) من هذا الملحق) .

توفي أبو الفداء سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢) في حماة ودفن بها « ولم يرَ الناس – على قول ابن الوردي – في الملوك أفضل منه بعد المأمون ، ممن جمع الملك والعلم معاً » .

(٥٧) – أصحاب الايكة : الأيْكة غَيْضة تنبت ناعم الشجر . والفيلسوف محمد فريد وجدي يقول في تفسيره إن أصحاب الأيْكة هم قوم شُعيب ، وأيْكتهم كانت بقرب مَدْين . وقد أراد شُعيب اصلاحهم فقالوا له : « انما أنت مختلّ العقل بالسحر المتكرر ، وما أنت الا بشر مثلنا فأسقطْ علينا قطعاً من السماء ان كنت صادقا . » فأخذهم عذاب يوم الظلة ، يوم استظلوا من الحر المنبعث عليهم تحت سحابة فأمطرهم ناراً فأحرقتهم .

(٥٨) – برغهوس، هرمان ، Berghaus : جغرافي الماني ولد سنة ١٨٢٨ وكان من أوائل الذين طوّروا « موضوع » الجغرافية وقالوا بوجوب بنائه على أسس « علمية » جديدة فيها فلسفة وتاريخ واقتصاد واجتماع ، بعد أن كانت الجغرافية في القرون السابقة « تخمينات » وقياسات غير صحيحة ، وشيئاً مثل السحر ! وضع برغهوس « الاطلس الطبيعي » الذي اشتهر باسمه ، وساعد في الاطلس الجغرافي الالماني الكبير . توفي سنة ١٨٩٠ في غوتا .

(٥٩) – بُسَيطة : ضبطها ياقوت بالضم ، تصغير بسطة . وقال انها

(*) اطلب سيرة أبي الفداء في « اعلام التاريخ والجغرافية عند العرب » للدكتور صلاح الدين المنجد : ج ٣ .

« أرض في البادية بين الشام والعراق . حد ها من جهة الشام ماء يقال له « أمرّ » – بتشديد الراء – ومن جهة القبلة موضع يقال له قَعْبة العَلَم ، وهي أرض مستوية ، فيها حصى منقوش أحسن ما يكون ، وليس به ماء ولا مرعى . أبعد أرض الله من السكان . سلكها أبو الطيب المتنبي لما هرب من مصر إلى العراق ، فلما توسطها قال أحد عبيده وقد رأى ثوراً وحشيا : « هذه منارة الجامع » ، ورأى آخر نعامة فقال : « وهذه نخلة » فضحكوا وقال المتنبي :

بُسَيطةُ مَهْلاً سُقيتِ القطارا   تركتِ عيون عبيدي حَيارى ...

وقيل : بُسيطة على طريق طيّء إلى الشام . جاء في الشعر : بُسَيطة وبُسَيط » .

(٦٠) – البَلاذُري : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر داود المصري الأصل . من أسرة عريقة في العلم . ذكره ڤالين (ص ٦٤) باسمه الأول – احمد بن جابر – (والأصح : أحمد بن يحيى بن جابر) ، ثم أشار اليه بأنه « ابن جابر » ، ولم يذكر لقبه البَلاذري الذي شهر به . ثم ذكر كتابه باسم « الفتوح » وهو « فتوح البلدان » الذي يُعدّ من أصدق المصادر للفتوحات الاسلامية ، فقد بسط فيه أخبارها مفصلة ودوّن الاحكام التي سار عليها الخلفاء ، وعني باثبات أحكام الخراج والعشر والخاتم والنقود والخط ، وأشار إلى حضارات البلدان المفتوحة وإلى نظمها الادارية والمالية والاجتماعية ، وإلى تواريخها قبل الاسلام ، مبتدئاً بالجزيرة العربية فالشام فارمينية وبلدان افريقية والاندلس وفارس وما اليها وخراسان والسند الخ ... وقال فيه المسعودي : « لا نعلم في فتوح البلدان (كتاباً) أحسن منه » * .

وطبع هذا السفر الضخم ، كاملاً أو موجزاً أو متقطعاً ، في ليدن (هولاندة) وباريس والقاهرة وبيروت ، وترجمه إلى الانكليزية فيليب حتّي (نيويورك) وإلى الالمانية او . ريشر (ليپزيغ) ولعل أصح طبعاته العربية تلك التي نشرها

(*) « مروج الذهب ومعادن الجوهر » (١ : ١٤) – نشره شارل بلا – المطبعة الكاثوليكية – بيروت ١٩٦٦ .

العالم البحاثة الدكتور صلاح الدين المنجد (١٩٥٧) وقد استندنا إلى ارشاده في بعض كلامنا على البلاذري .

وفي قول إن صاحبنا أصله فارسي . والمرجح أنه ولد في بغداد، ولا تعرف سنة ولادته بالضبط ولكن المأثور أنها في أواخر القرن الثاني للهجرة، وأخذ عن علمائها ثم سافر إلى سورية وطاف بها طولاً وعرضاً ، مستمعاً دارساً جامعاً مدوّناً مجادلا ، « فجمع إلى علم أهل العراق علم أهل الشام » ، إلى معرفة كاملة بالفارسية وآدابها وتاريخها .

ولما رجع البلاذري إلى مسقط رأسه ملآن الصدر بعلومه نال حظوة لدى الخلفاء العباسيين ، واحداً بعد آخر ، وأكثرهم الخليفة المستعين بالله الذي عطف عليه عطفاً جميلا . ومما يروى من معروف الخليفة عليه أنه حباه بسبعة آلاف دينار أرفقها بهذا الكتاب :

« قد أنفذتُ اليك سبعة آلاف دينار . وأنا أعلم أنك ستُجفى بعدي ، وتطرح ، وتجتدي فلا يُجدى عليك ، فاحفظ هذه الدنانير عندك ، فاذا بلغت بك الحال إلى هذا فانفق منها ولا تتعرّض لاحد فيبقى ماءُ وجهك عليك . ولك علي أن لا تحتاج ما عشتُ إلى شيء في أمرٍ دنياك ، كبير أو صغير ، على حسب حكمك وشهوتك » (*) .

وعاش البلاذري سنوات مشمولاً برعاية المستعين ، ثم المعتز ، وقد أدّب لهذا ابنه عبد الله . وبعد وفاة المعتز أصاب صاحبنا فقر وضيق ، فلجأ إلى عبيد الله بن يحيى وزير المعتمد ، قال البلاذري :

« كانت بيني وبين عبيد الله بن يحيى بن خاقان حرمة منذ أيام المتوكل ، وما كنت أكلفه حاجة لاستغنائي عنه ، فنالني في أيام المعتمد على الله إضاقة فدخلت اليه وهو جالس للمظالم ، فشكوت اليه تأخر رزقي وثقل ديني وقلت: « إن عيباً على الوزير — أعزه الله — حاجة مثلي في أيامه وغض طرفه عني ... » وقع لي بعض ما أردت » .

(*) — « أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب » ، ص ٢٠ ، للدكتور صلاح الدين المنجد .

ولكن ابن خاقان لم يكرر المساعدة . ومات البلاذري وهو في عوز وشيخوخة كئيبة .

وللبلاذري أيضاً : « انساب الاشراف » وهو كتاب قيم حققه الدكتور محمد حميد الله ، و « كتاب عهد أردشير » (نظمه شعراً)

وقيل ان اسم البلاذري غلب عليه لأنه شرب عصارة البُلاذر في آخر أيامه وأصابه مسٌ . وكان شاعراً فحلاً ومؤرخاً مدققاً يتقن الفارسية والعربية معاً .

قال في « محيط المحيط » ، ج ١ ، ص ١١٨ : البَلاذِر نبات ثمره شبيه بنوى التمر ، ولبّه مثل لب الجوز . حلوٌ وقشره متخلخل متثقب . قيل : يقوّي الحفظ ولكن الإكثار منه يؤدي إلى الجنون . كما يحكى عن جماعة أنهم كانوا يحضرون الدرس في مدرسة الشيخ يعقوب السيرافي فانقطعوا أياماً ثم حضر واحد منهم على رأسه عمامة كبيرة لها عَذَبة تمسّ الأرض ، وباقي جسمه عريان ليس عليه ستر بالكلية ، فابتهج الشيخ من منظره وقال : « يا فلان ، ما بالكم انقطعتم عنا كل هذه الأيام ؟ » .

فقال (المعمّم): يا مولاي ، كنا نسمع الدرس ولا نحفظ شيئاً ، فوصفوا لنا حَبّ البلاذر فاستكثرنا منه فجنّ أصحابي كلهم ، وما سلم إلا أنا !

(٦١) — حاجي خليفة : (ورد ذكره ص ٤٣ ، الهامش) هو مصطفى بن عبد الله كاتب چلبي ، المعروف بالحاج خليفة لأنه عمل في وظيفة « الخليفة» أي الدائرة المالية في استنبول . من أكبر أدباء الترك المستعربين. تنقل موظفاً في العراق وسورية والحجاز وعرفها معرفة صحيحة وكتب أبحاثاً قيمة فيها. من أعظم كتبه : « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » (مجلدان) و « تحفة الكبار في أسفار البحار » و « تقويم التواريخ » ، وكلها بالعربية ومطبوعة. وفي سنيه الأخيرة انقطع للتدريس . ترك كتباً مخطوطة بالتركية في الأدب والشعر والتصوف والتاريخ والفقه . ولد سنة ١٦٠٩ في استنبول وتوفي فيها سنة ١٦٥٧. تجد مراجع عن حياته ومؤلفاته في « الاعلام » لخير الدين الزركلي : ج ٨ ، ص ١٣٩ ، الهامش ١ من الطبعة الثانية .

(٦٢) — **قبيلة الشَمَجي** : قال عمر رضا كحاله في « معجم قبائل العرب القديمة والحديثة » إن الشَمَجي : « بطن من طيّء بن أُدَد ، من بني زيد بن كَهلان . من مياههم : موقف . » — عن الاشتقاق لابن د يد ، ص ٢٣٣ ، ومعجم البلدان لياقوت ، ٣ : ٥١٨ .

قلنا : ان مياه بني زيد بن كهلان التي أشار إليها هي مَوقَق ، وليس « موقف » . وهذه خطأ مطبعي في الأرجح . أنظرها في ياقوت : ج١٨ ، ص ٢٢٦ . ولم نجد للشمجي ذكراً في « أنساب الاشراف » وانما ذكر البلاذري بني الجشمي (بالجيم) وذكر منهم بالتخصيص ابا أسامة زهيراً بن معاوية الجشمي بأنه قتل عمير بن عبد عمرو الخزاعي في بدر . وابو اسامة هذا هو الذي حمل التهديد من ابي سفيان الى رسول الله (صلعم) في يوم الخندق ، وقد اتي على ذكره غير مرة في مغازي النبي ، فرأيناه (الجشمي) في صف الذين عادوا المسلمين كافرين .

فهل اراد ڤالين اسم الجشمي ووقع في التحريف ؟

(٦٣) — **الفرغاني** : احمد بن محمد بن كثير ، فلكي ، من فرغانة ، (في تركستان السوڤياتية اليوم) درس في بغداد وعاش فيها . لا يعرف تاريخ ولادته ولكنه عاش في المنتصف الأول من القرن التاسع . قال صاحب « المنجد » ان المتوكل الخليفة العباسي أرسل الفرغاني إلى مصر « ليناظر عناية مقياس النيل » .

وضع « كتاب الحركات السماوية وجوامع علم النجوم » وتُرجم إلى العبرية واللاتينية وأعيد طبعه مراراً ، أهمها طبعة يوليوس ، الكثيرة الحواشي الجغرافية في أمستردام سنة ١٦٦٩ .

وله رسالة في « الاسطرلاب » . قال كراتشوفسكي ان الفرغاني « ساق بعض البراهين المتداولة في أيامنا لاثبات كروية الأرض ، كاختلاف مواعيد طلوع نجم معين أو اختلاف الكسوف باختلاف الأماكن الخ ... (تاريخ الادب الجغرافي العربي : ١ ، ص ٤٧) .

(٦٤) – ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ، ولد ، على الترجيح ، سنة ٥٧٥ هـ . (١١٧٩) في بلاد الروم (تركية اليوم) وأُسر صغيراً مع جماعة من قومه وحملوا إلى بغداد فاشتراه تاجر اسمه عسكر الحموي وأطلق عليه اسم ياقوت الذي كان يُطلَق على الرقيق ونسبه اليه وعلمه القراءة حتى يضبط له أعماله. ولما كبر أعتقه . وكان ياقوت قد جاب أكثر بلدان الشرق في خدمة مولاه وازداد إقبالاً على طلب المعرفة وجمع كتباً كثيرة فنضج وصار من فحول التا يخ والجغرافية ، عاش سنيه الأخيرة في حلب التي أحبها ممتهنا نسخ الكتب. وفي العاصمة الحمدانية وضع تحفته « معجم البلدان » وبوّبه على الحروف الأبجدية ناهجاً فيه نهجاً علميا جديداً كما هو هذا النهج اليوم ، جامعاً فيه فوائد الجغرافية واللغة والتاريخ والادب حتى جاء آية في بابه (*).

ولياقوت أيضاً « إرشاد الاريب الى معرفة الاديب» المعروف بمعجم الادباء، جمع فيه أخبار كل من عمل بالأدب ، معتمداً على كنوز مكتبته . وكثير من تلك المصادر هي اليوم مفقودة ، وهذا مما يزيد في قدر الكتاب. ثم اختصر «جمهرة النسب» لابن الكلبي ،وألف « معجم الشعراء » و « أخبار المتنبي » و « المشترك وضعاً والمفترق صقعا » الخ ... وبعضها مجهول المصير.

لم يعمـّر ياقوت كثيراً ، ومات ابن خمسين (في ٢٠ من رمضان ٦٢٦ هـ . – ١٢ من آب ١٢٢٩) وعاش آخر عمره بائساً معوزاً . وأوصى بأوراقه ومجموعاته إلى ابن الأثير اينقلها إلى بغداد .

(٦٥) – مَدْيَن : بفتح أوله وسكون ثانيه ، مدينة قوم شعيب سميت بمَدين وهو اسم ابن ابرهيم . وقال أبو زيد : انها بلدة على القُلْزم محاذية لتبوك وفيها البئر التي استقى منها موسى لسائمة شعيب . وقال انه رأى تلك البئر مغطاةً « قد بُني عليها بيت ، وماء أهلها من عينٍ تجري ، ومدين اسم القبيلة

(*) – نشره المستشرق الالماني وستنفيلد بعد جهد في تحقيق المنسوخ الذي عثر عليه ، ونشرته « دار صادر وبيروت » في طبعة متقنة اعتمدنا عليها في شروحنا لكثير من أسماء الاماكن .

قال الله تعالى : « وإلى مَدْين أخاهم شعيباً » (*) .

وقيل ان مَدين هي كَفَرَمَنْده من أعمال طبرية ذكرها كثيّر بشعره :

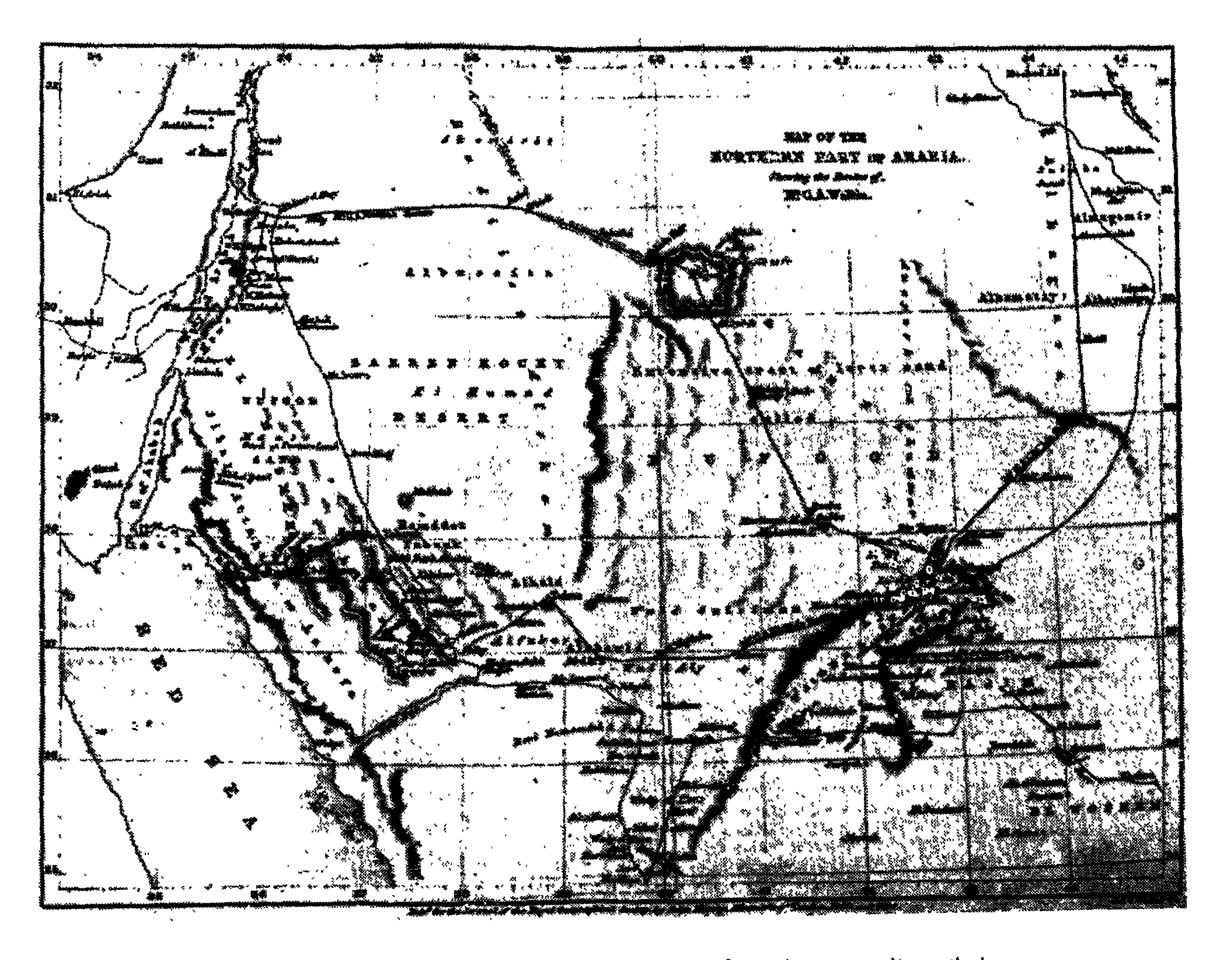
رهبانُ مدين والذين عهدتُم | يبكون من حَذَر العِقاب قعودا
لو يسمعون، كما سمعتُ، حديثها | خرّوا لعزّة رُكّعا وسجودا

(من ياقوت بتصرف) .

وتسكن اليوم مَدين فرق مختلفة من عشيرة المجالي أكبر عشائر الكرك .

انتهى

(*) – الأعراف ٨٤ ، وهود ٨٣ ، وقال محمد فريد وجدي في تفسيره : « أي أرسلنا إلى أولاد مدين بن ابرهيم شعيب بن ميكيل بن يشخر بن مدين .. فنصح لهم وأمرهم بتوفية الكيل والميزان وعدم أكل حقوق الناس الخ . » : ص ٢١٣ – أنظر رقم ٥٧ في هذا الملحق عن أصحاب الايكة .



خارطة شمالي جزيرة العرب في القرن التاسع عشر وفيها المناطق التي زارها المؤلف .

اسماء البلدان والاحياء والجبال والأودية والعيون والآبار والبحار والشجر وايام الأسابيع وشهور السنة الخ ...

الألف

الباء

التاء

الثاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الذال

الراء

الزاي

السين

الشين

الصاد

الضاد

الطاء

الظاء

العين

الغين

الفاء

القاء

القاف

الكاف

اللام

الميم

النون

(*) — لم نفهرس كلمة نخل ونخيل (الشجر) لكثرة ورودها في غالب الصفحات.

الهاء

الواو

الياء

فهرسة الأشخاص والقبائـــل والأسر والأصنام الخ ...

الألف

البــاء

الپاء

التــاء

الثـــاء

الجيم

الحاء

الخاء

الدال

الذال

(*) — هو الطبيب ابو الفضل فضل الله بن ابي الخير الهمذاني الملقب برشيد الدين . ولد بهمذان سنة ١٢٤٧ . يعد من اعظم مؤرخي الاسلام . اصله يهودي واعتنق الاسلام وصار وزيراً للسلطان محمود غازان المغولي الذي غزا سورية ورافقه فيها . وضع رشيد الدين كتاباً خطيراً اسماه « جامع التواريخ » . كتب الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد (مصر) سفراً جليلاً بعنوان « مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني » اعتبره فيه من عظماء الاسلام . مخطوطاته محفوظة بمعهد الدراسات الشرقية بموسكو . قتل رشيدالدين ظلماً بدس من حساده سنة ١٣١٨ م.

الزاي

السين

(*) — طبعت في ص ٢٠ « السباعي » خطأً . يرجى تصحيحها .

(*) — طبعت في ص ٦٣ « السكوفي » خطأ . يرجى تصحيحها .

الشين

الصاد

الضاد

الطاء

الظاء

العين

الغين

الفاء

الڤاء

القاف

الكاف

اللام

الميم

(*) طبعت خطأً بالقاف في بعض النسخ الاولى . يرجى تصويبها .

النون

الهاء

الواو

الياء

فهرسة الكتب والمطابع ودور النشر والمتاحف والجامعات الخ ...

(*) هو «انساب العرب» للسمعاني ، ذكره ڤالين مختصراً ، على عادته في اختصار اسماء بعض الكتب والمؤلفين والمصطلحات العلمية .

(*) ذكره ڤالين مختصراً . وهنالك اكثر من كتاب يبدأ اسمه بكلمة «العبر» ، ففي التاريخ : «العبر في خبر من غبر» للمؤرخ السوري الذهبي — وهو الذي يعنيه ڤالين هنا — وقد أعادت وزارة الارشاد والانباء في الكويت طبعه ، مشكورة ، في سلسلة مطبوعاتها القيّمة «التراث العربي » وهي سلسلة يسهر على تحقيقها نخبة من اعلام العربية .

وذكر «العبر » أيضاً الزركلي باسم «العبر في اخبار البشر» — «الاعلام» : ٦ ، ٢٢٣ — ولابن خلدون «كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر» ويعرف بتاريخ ابن خلدون العالم التونسي الشهير . وللمؤرخ اليماني ابن القاسم «العبر في ملوك حِمير».وهنالك أسماء لكتب في الفقه والتصوف وسواهما تبدأ بكلمة «العبر » .

(**) هو كتاب «القانون المسعودي » في الهيئة والنجوم والجغرافية للفيلسوف والرياضي المؤرخ ابي الريحان محمد البيروني الخوارزمي(٩٧٣ — ١٠٤٨) قدمه للسلطان مسعود الغزنوي الذي كان نصير العلماء وقد اختصر ڤالين اسمه ، كالعادة .

وهنالك كتاب آخر مشهور بالقانون وهو في الطب للفيلسوف الطبيب ابن سينا .

This book «**Suwar Min Shamali Jazirat Al-Arab**» covers an important subject concerning the Arabic-speaking world, dealing in particular with the Arabic Peninsula, its topography, people, language, civilization, and religious observance, and it also assesses this area's contribution in promoting culture and civilization.

Since the first edition is out of print, and in view of the great demand and the rarity of the subject, the publication of this second edition is long overdue.

Mr. Toufic Fadel, the Honorary Consul of Finland in Beirut, Lebanon, has been a guiding light in the publishing and distributing of both editions of this valuable book, recognising its scope in improving and strengthening relations between Finland and the whole of the Arab-world. For this he deserves the gratitude of each and every reader of this unique and important treatise.

Helsinki June 1991

Faruk Abu-Chacra
Senior Lecturer in Arabic
Department of Asian and African Studies
University of Helsinki
Finland

Wallin left for his journey in July 1843 via Paris, where he stayed some time, continuing to Cairo in January 1844, where he stayed one year, in April 1845 he left Cairo passing through Sinai and the desert of Al-Jawf. After four months he went on to the holy Mecca, where he performed the ceremonies of pilgrims. He also performed the prayers and named himself **Al-Haj Abd-ul-Wali.** In March 1846 he returned to Cairo, stopping briefly before commencing his second trip in 1846, this time to Palestine. He returned again to Cairo in June 1847.

At the end of the year **Abd ul-Wali** made his third trip, the longest one, setting out from Egypt to the Red Sea, then on to the port of Muwaylih on the west coast of the Arabic Peninsula and from there across the desert to Baghdad, Ispahan and Shiraz in Persia. Then he returned to Baghdad and from there went to Damascus, Beirut and by sea to Alexandria. He arrived in Cairo in June 1849 and from there he returned to Alexandria and Europe, passing through London in order to receive the prize of the «**Royal Geographical Society**» in recognition of the fact that he was one of the first Europeans to cross the North of the Arabic Peninsula. On returning to Helsinki,Wallin defended his second dissertation on the figure of «**Ibn al-Fared**». Abd-ul-Wali was appointed to the chair of Oriental studies at the University of Helsinki. It was to be a brief appointment however since Wallin died on the 23rd of October 1852, a day short of his 41st birthday.

Abd-ul-Wali brought back with him some of the Arabic manuscripts as well as his copious diaries, recording his impressions and experiences during his trips. These documents are preserved in the library of the University of Helsinki. Wallin's untimely death prevented him from publishing the material, which is widely regarded as a cultural and scientific treasure trove.

However, a catalogue of this material, has been published by the late professor Jussi Aro who, together with the Lebanese team Yazbeck and Shibli, contributed to the realization of this book.

Wallin's tomb is in Helsinki and his Arabic name,**Abd ul-Wali**,is engraved in Arabic script. On the first page of this book there is a reproduction of an oil painting depicting him in his Arabic costume. The portrait hangs in the most important hall in the University of Helsinki.

rely scientific, it was free from fanaticism and prejudices and had no expansional or colonial purposes. Furthermore, the Finnish and Scandinavian museums do not possess objects and antiquities plundered from the Arabic area.

One can say that the Finnish Orientalists have been treated with injustice and negligence by the researchers. And that is why, the historian Dr. Youssef Yazbeck and the Translator Prof. Samir Chibli deserve thanks and appreciation for their contribution in presenting the person of George August Wallin (Abd ul-Wali) and producing this book **«Suwar Min Shamali Jazirat Al-Arab»** in the Arabic language.

The Arabist George August Wallin, the most famous of the Finnish orientalists, was born in 1811 in one of the islands in the Alan archipelago situated between Finland and Sweden. At the age of six, Wallin moved with his family to the city of Turku, in the southwest of Finland, where he also went to school. In 1829 he moved to the new capital of Finland, Helsinki and began his studies of Oriental languages, concentrating on the Arabic language and culture. His first dissertation, written in 1839, was entitled **A comparison between literary and spoken Arabic.** With this qualification secured, Wallin moved to the University of St. Petersburg (now Leningrad) in Russia. At that time Finland was a Russian Grand Duchy following to Sweden's defeat in 1809 in the war against Russia. Wallin stayed in St. Petersburg for two years in order to deepen his knowledge of Arabic with the Egyptian professor Sheik Muhammed Ayyad al-Tantawi. Tantawi was one of the most distinguished professors to have taught Arabic in St. Petersburg. Wallin also set about studying and researching **Arabic poetry** and **Maqamat al-Hariri** (a well-known work of rhytmic prose by al-Hariri from the eleventh century) and **A Thousand and one Nights.**

Curiosity and a desire for knowledge of Islam and the lifestyle in the Arabic Peninsula were perhaps the main enticements for Wallin to leave his native country in spite of the dangers of travelling at that time, especially in the desert, without any comforts or supplies, under the heat of the burning sun and exposed to the bites of insects. The only means of transportation were camels and donkeys and very often the traveller had to proceed by feet.

After having received a scholarship from the University of Helsinki,

THE FINNISH ARABIST-ORIENTALIST
- GEORGE AUGUST WALLIN -

FOREWORD OF THE SECOND EDITION

Relations between Arabs and Scandinavians date back to the eighth century AD. This fact is confirmed by the famous Arab explorer **Ahmed Ibn Fadlan** in his travel account from the year 922 AD (edited by D. Sami al-Dahhan, Damascus, 1959), which is considered by scientific institutions and experts in the field to be one of the most important sources available on the Vikings. The Finnish museums provide further good examples of these relations: they display small antiquities, in particular coins, which go back to the Abbaside time. These coins were brought to the North by the Vikings through the Arabic-Islamic empire and through the trading links in the eighth century AD.

Oriental studies in Finland go back to 1640, when the first university was established in the city of Turku, at that time, the capital of Finland. Throughout its history a number of scientists have worked at this university researching in different fields of Arabic and Islamic studies and these studies still hold a central position in the Department of Asian and African studies at the University of Helsinki.

Some of the Scandinavian orientalists were attracted by the Arabic-speaking area, especially the Eastern part of it, which they recorded and described on the basis of first-hand experience.

Through their research, investigations and visits to a variety of locations they contributed by transferring an accurate picture of the Arabic-speaking area to Finland, as well as by studying the Arabic culture and Islam.

They established the teaching of the Arabic language and culture at the University and put it into practice, bringing up generations of orientalists who carried the banner on. For the Finnish orientalists the main ambition for exploration and research into the Arab-Islamic heritage was pu-

"Scenes From The Northern Arabic Peninsula"

"Suwar Min Shamali Jazirat Al-Arab"

By

George August Wallin



from English by
...ir Chibli

Realized in Arabic by the historian
Dr. Yousef I. Yazbec